طائر على سنديانة

مذكّرات

كمال الصّليبي



طائر على سنديانة

مذكّرات

صدف مثل هذه (ومثل حديث «الدْرِيَور» سيف عن شجر السَمَر)، حيث يتعلّم الإنسان من الاستماع، أعادت إلى ذاكرتي الأبيات من تراث الأدب الإنكليزي للأطفال التي تقول:

A wise old bird sat on an oak
The more he saw the less he spoke
The less he spoke the more he heard
Why can't we all be like that wise old bird?

(طائر حكيم مسنّ حطّ على سنديانة
كلّما رأى أكثر تكلّم أقلّ
كلّما تكلّم أقلّ سمع أكثر
لماذا لا نكون جميعاً مثل هذا الطائر الحكيم المسنّ؟)



دار الشروق للنشر والتوزيع
المركز الرئيسي - عمان/الاردن - تلفون ٤٦١٨١٩٠-فاكس : ٠٠٦٥
E-mail: shorokjo@nol.com.jo
website:www.shorok.com
ISBN 9957-00-202-3



طائر على سنديانة

مذكّرات

كمال الصّليبي

طائر على سنديانة

مذكّرات


٢٠٠٢

رقم التصنيف: 922.2
المؤلف ومن هو في حكمه: كمال سليمان الصليبي
عنوان الكتاب: طائر على سنديانة
الموضوع الرئيسي: 1- السيرة الذاتية
2- التراجم/ المسيحية
رقم الإيداع: 1429 / 6 / 2002
بيانات النشر : عمان: دار الشروق

● تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ردمك ISBN 9957 - 00 - 202 - 3

● طائر على سنديانة .
● الدكتور كمال الصليبي .
● صورة الغلاف : المؤلف في سن السادسة عشرة .
● الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2002 .



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11110 عمان - الاردن

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله: المنارة - الشارع المنارة - مركز عقل - التجاري هاتف 02/2961614
نابلس: جامعة النجاح - هاتف 09/2398862
غزة: الرمال الجنوبي قرب جامعة الأزهر هاتف 07/2847003

■ تحرير : مروان حمدان ، الاخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد نصرالله .

■ فرز الألوان و الأفلام :
دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190/1 فاكس 4610065 / ص.ب . 926463 عمان (11110) الأردن

Email : shorokjo@nol.com.jo

محتويات

ملاحظة وشكر

هذا الكتاب هو سجلّ لأشياء أذكرها. حاولت أقصى الجهد، في ما عدا بضعة مقاطع في الفصلين الأوّلين، أن أروي مشاهداتي والروايات التي سمعتها تماماً كما أذكرها، دون أن أخضعها لأيّ تحليل، ودون المزج بين ما أذكر وما صرت أعرف عن أيّ شيء شهدته أو خبرته لاحقاً.

كثيرون من أصدقائي رغبوا منّي تدوين مذكّراتي. وأنا أشكرهم لأنّهم حثّوني على القيام بهذا العمل. أشكر أيضاً الملاحظات الكثيرة التي قدّمها أسامة الخالدي على المسوّدة لهذه المذكّرات، ومونا ذيب وسعيد ياسين على نصّها النهائي. وكذلك أشكر زملائي في المعهد الملكي للدراسات الدينيّة بعمّان الذين ساعدوا في إخراجها: بكر الحياري الذي قرأ المسوّدة وعلّق عليها، ومروان حمدان الذي قام بتحريرها، وعلاء الرشق وحسن البطوش ونانسي طنّوس وجمانة عساكريّة ومحمد نصر الله الذين قاموا، كلّ منهم بدوره، بالإخراج. أضف إليهم هشام ساتي محمد بشير ومُسعد حجازي اللذَين قرءا النصّ النهائي وأبديا ملاحظاتهما عليه من وجهة نظر القارئ العادي.

كمال الصّليبي

١

أسرة تتكوّن

الصليبي نسبة إلى عيد الصليب الذي يقع في ١٤ أيلول، والذي يعتبره أهل الشام اليوم الفاصل بين الصيف والخريف. النصارى في السابق كانوا يطلقون اسم «الصليبي» أو «صليبا» (وهي اللفظة السريانية للاسم) على المولود يوم عيد الصليب. والمسلمون، مثلهم مثل النصارى، كانوا يطلقون صفة «الصليبي» على نتاج الموسم الرعوي أو الزراعي لعيد الصليب. الجدي الصليبي، مثلاً، هو عكس «الرُبَيعي» الذي هو نتاج الربيع من الماعز. والقمح الصليبي (كما في المثل «زوان بلادك ولا قمح الصليبي») هو قمح الموسم الذي يكون جاهزاً للبيع على البيادر في نهاية الصيف، تمييزاً له عن المخزون من محصول الموسم السابق. (عبارة «قمح الصليبي»، على ما سمعت، لا تزال دارجة بهذا المعنى في قرى جبل الخليل بفلسطين، إن لم تكن في مناطق أخرى من البلاد الشاميّة.) أمّا استعمال اللفظة جمعاً للدلالة على

الفرنجة الذين استولوا على معظم هذه البلاد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، فهو من مستحدثات القرن التاسع عشر، نقلاً عن المصطلح الأوروبي الذي هو من مستحدثات القرن السادس عشر. (لفظة crusades، مثلاً، إشارة إلى حروب الفرنجة مع المسلمين، لا يرد استعمالها بالإنكليزيّة قبل عام ١٥٧٧).

أمّا بالنسبة إلى عشيرة «بيت الصليبي» أو «أولاد الصليبي»، فأقدم ذكر لها يرد في «تاريخ الأزمنة» للمؤرخ البطريرك إسطفان الدويهي (توفي عام ١٧٠٤) الذي يصف «الصليبيّة» بأنّهم «نصارى ملكيّة من عين حليا». والملكيّة من النصارى العرب هم الطائفة التي تفرّع عنها الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك بعد عام ١٦٨٣. وكانت عين حليا حتى القرن السادس عشر (وموقعها الحالي داخل الحدود السوريّة، قرب بلدة صرغايا) كبرى قرى سهل الرملة، بأعلى وادي الزيداني في جبال لبنان الشرقيّة. وهي اليوم خراب، وأرضها «ربيع» ترعاه الأغنام. زرت الموقع عام ١٩٦٥ برفقة أحد شيوخ الجوار، فأخبرني أن عين حليا كانت في الأصل قرية عامرة حتى قامت بها الفتن، واتّفق أهلها، في آخر الأمر، على الجلاء عنها إلى مناطق مختلفة، منها جبل لبنان، حقناً للدماء، وذلك قبل ٤٠٠ عام تقريباً (أي في أواسط القرن السادس عشر).

ويتّضح من تاريخ البطريرك الدويهي أنّ عين حليا كانت بالفعل بؤرة للفتن في ذلك الوقت، وأنّ الصليبيّة فيها كانوا من المنشغلين بهذه الفتن، وهم المتحزّبون آنذاك لمقدّم القرية المدعو حسام الدين، من أعيان النصارى في المنطقة. وكان لهذا علاقة

نسب بالمقدّمين الموارنة في جبّة بشرّي، بشمال لبنان، وله طموح في مقدّميّتهم. وكان المقدّمون البشرّانيّون على خصام مع مشايخ آل حمادة، زعماء عشائر الشيعة في ذلك الجوار، فتحالف حسام الدين مع الحماديّة لنيل مأربه. وانتصر له الصليبيّة من نصارى عين حليا، فتضافروا هم والحماديّة في القيام بهجوم على بلدة بشرّي عام ١٥٤٧، تلته مجزرة قضت على أسرة المقدّمين البشرّانيّين برمّتها، ممّا أفسح المجال لانتقال مقدّميّة جبّة بشرّي من الأسرة «البشرّانيّة» إلى أسرة «العناحلة» الممثّلة بحسام الدين. ولعلّ الفتن التي تفاقمت في عين حليا، وانتهت بخراب القرية وجلاء الصليبيّة وغير الصليبيّة من أهلها، كانت لها علاقة ما بهذه التطوّرات.

وقياساً على ما هو معروف عن تركيب العشائر في البلاد الشاميّة وغيرها، فلا بدّ أن الصليبيّة في عين حليا كانوا يتألّفون أساساً من أرومة تحمل اسم العشيرة، وفروع من الأقرباء والأنسباء واللفيف، لكلّ فرع اسمه الخاص. ومهما كانت الحقيقة في هذا الشأن، فالواقع أن الأسر التي انتسبت تاريخيّاً إلى بيت الصليبي كانت على نوعين: نوع احتفظ باسم العشيرة، ونوع لم يحتفظ بالاسم، بل اكتفى بالانتساب. ومن الصليبيّة الذين احتفظوا بالاسم فريقان: فريق استقرّ في حمص بداخل الشام، وفريق انتهى به المطاف إلى الجرد والغرب، من المقاطعات الدرزيّة بجبل لبنان. وهناك استقرّ الصليبيّة في قرى مختلفة، منها أغميد عند حدود مقاطعة العرقوب، وبطلّون والمنطرة وبحوّارة بجوار بحمدون، وبخِشْتَيه بجوار عاليْه. وفي أواسط

القرن التاسع عشر انتقل بعض صليبيّة بحوّارة إلى مكان خارج عالَيْه كانت تقام فيه سوق أسبوعيّة لمقاطعة الغرب، فأسّس هناك نواة القرية التي صارت تعرف باسم سوق الغرب. (يشير جدي لأمّي إلى هذا المكان في مذكّراته المخطوطة، وهو الذي وعاه قبل أن يكتمل كيانه كقرية، بعبارة «السوق المكنّى سوق الغرب» .)

كان الصليبيّة في الجرد والغرب يعتزّون بكونهم عارفين لأنسابهم: كلّ فرد منهم ينتسب إلى «جبّ» (أي فرع) يحمل اسم الجدّ الخامس، وربّما السادس أو السابع. وتقوم الرابطة بين مختلف الأجباب على التزاوج فيما بينها. ونادراً ما كان الزواج يتعدّى حدود العشيرة. وبعد الانشقاق في صفوف النصارى الملكيّة بين الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك الذين تبعوا روما، بقي الصليبيّة في صفوف الروم الأرثوذكس من ناحية المبدأ. لكنّ الواقع، على ما يبدو، كان غير ذلك، إذ هناك ما يشير إلى أن الصليبيّة في بحوّارة، مثلاً، كانوا يميلون إلى الروم الكاثوليك، ربّما بسبب قربهم من دير الشير، أسفل بلدة عالَيْه، الذي كان (ولا يزال) من أهمّ أديرة هذه الطائفة. ويلاحظ هنا أنّ المبشّرين الأميركيّين الذين تعرّفوا إلى صليبيّة بحوّارة في أواسط القرن التاسع عشر اعتبروهم من الروم الكاثوليك، لا الأرثوذكس. ويشير جدّي لأمّي الذي هو من بحوّارة، في مذكّراته، إلى قريب له اسمه القسّ أنطون «الكاثوليكي»، كان في عداد رهبان دير الشير. ولعلّ معظم النصارى الملكيّة في الأرياف بقي يتأرجح بين الأرثوذكسيّة والكثلكة مدّة طويلة، يتبع في المذهب أقرب كنيسة

أو دير إليه، إلى أن يستقرّ ولاؤه في آخر الأمر إلى طائفة دون الأُخرى.

ولمّا كانت منطقة سهل الرملة، بجوار عين حليا، أرض رعي أكثر منها أرض زراعة، فالمرجّح أن الصليبيّة كانوا فيها، منذ البداية، أصحاب مواشٍ، فلمّا جلوا عن البلدة انتقلوا بمواشيهم من البقر والغنم والماعز إلى المناطق التي استقرّوا فيها. وهناك بقي معظمهم على الرعي حتى وقت متأخّر. ومن هؤلاء صليبيّة بطلّون وبحوّارة. وممّا سمعته عن أبي أن جدّه يوسف بن نهرا الصليبي أبقى من ماعزه قطيعاً صغيراً بعد أن بلغ الشيخوخة، وظلّ يرعى هذا القطيع في خراج بطلّون حتّى وفاته قرابة عام ١٨٩٠. وممّا سمعته عن أمّي أنّ والدها، وهو جدّي الدكتور إبراهيم بن شبلي الصليبي، باع الأبقار التي ورثها عن أبيه لكي يتعلّم.

هذا بالنسبة إلى أصل عشيرة الصليبيّة تقديراً. أمّا السلالة من الصليبيّة التي أنتمي إليها عن طريق الذكور والإناث، فلها تاريخ خاصّ يبدأ في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، عندما كانت البلاد الشاميّة خاضعة لحكم إبراهيم باشا المصري (١٨٣٢–١٨٤٠).

في ذلك الوقت كان كبير الصليبيّة في بحوّارة يدعى جريس بن يوسف، وله أربعة بنين – يوسف وشاهين وسليمان وإلياس – يقومون برعاية أبقاره في الحقول التابعة للقرية. ولهم أخت اسمها مريم. وفي أحد الأيام من عام ١٨٣٧ أو ١٨٣٨ كان أحد الإخوة الأربعة – وهو شاهين – خارجاً من القرية ليرعى أبقار

أبيه، فوجد شابَّين من مسلمي بيروت مختبئَين في مغارة، وهما هاربان من الجنديّة التي كان إبراهيم باشا فرضها آنذاك على مسلمي البلاد، دون النصارى. وطلب الشابّان من شاهين طعاماً يأكلانه، فجاءهم بطعام، وأعطاه أحدهما محفظة من وبر الإبل لقاء ذلك. وعندما عاد شاهين إلى البيت، والمحفظة في يده، سأله والده جريس عن مصدرها، فأخبره بأمر الشابَّين. فأرسل جريس يدعوهما إلى بيته ليستضيفهما، فمكثا عنده شهراً كاملاً.

خلال ذلك الشهر، أخذ سليمان بن جريس يصطحب الشابَّين البيروتيَّين كل يوم إلى ضفاف نهر الغابون، أسفل بحوّارة، فيعلّمانه القراءة والكتابة هناك على الطين عند حافّة النهر. هذا ما سمعته من أمي، رواية عن جدّتها أم عبدالله (التي هي مريم أخت سليمان). وممّا علمته أيضاً أنّهم كانوا يتّخذون من نبات الغزّار أقلاماً يكتبون بها على قطع من الخشب، مستخدمين وحل النهر للكتابة بدلاً من الحبر. (كان نصارى الجبل في ذلك الزمن، عدا الكهنة والرهبان منهم، أميّين على وجه العموم. أمّا المسلمون في بيروت وغيرها من المدن، فكان بإمكانهم أن يرسلوا أولادهم لتعلّم القراءة والكتابة في الكتاتيب.)

وبعد أن عاد الشابّان إلى بيروت، ذهب سليمان إلى دير الشير طالباً من الرهبان هناك كتاباً يقرأه، فأعطوه كتاباً يحتوي على مزامير داود. وصار سليمان بعد ذلك يتردّد على دير الشير كلّما تعذّرت عليه قراءة مزمور من المزامير، فيساعده الرهبان هناك على فكّ رموزه.

كان المرسلون الأميركيّون أسّسوا أولى مدارسهم في تلك الأثناء في قرية عُبَيه، قاعدة مقاطعة الشحّار المحاذية لمقاطعة

الغرب، فقرّر سليمان أن يلتحق بهذه المدرسة حيث تعلّم مبادىء اللغة الإنكليزيّة. وعاد بعد ذلك إلى بحوّارة، فعلّم أخاه الأصغر إلياس ما كان تعلّمه من العربيّة والإنكليزيّة. وأصرّت أختهما مريم أن تتعلّم هي أيضاً، رغم معارضة والدها الشديدة. وكانت في ذلك الوقت مخطوبة إلى أسعد بن عبدالله الصليبي، من جبّ مخايل في بطلّون، الذي كان يعارض، أيضاً، تعليمها بالشدّة ذاتها. وعندما استمرّت في إصرارها على التعلّم، استُفتي كاهن بحمدون للروم الأرثوذكس في القضيّة، فأفتى بأنّ العلم، من ناحية المبدأ، هو أفضل من الجهل. وكان لمريم ما أرادت. وما لبثت أن اقترنت بأسعد عبدالله، فأخذت تعلّمه – وتعلّم غيره في بطلّون – ما كانت تعرف من القراءة والكتابة. ومريم هذه، وكنيتها أم عبدالله، هي جدّة جدّتي لأمّي.

كانت بريطانيا في تلك الأثناء أنزلت قوّات عسكرية – هي وحليفاتها – على الساحل اللبناني لمساعدة الدولة العثمانيّة في إخراج القوّات المصريّة من الشام، وذلك عام ١٨٤٠. وكان بين العسكر البريطاني ضابط برتبة كولونيل اسمه شارلز هنري شرشل (Charles Henry Churchill)، تعرّف في دمشق على صبيّة اسمها مرشة سركيس، يقال إنها كانت راقصة، فتزوّجها، وقرّر البقاء في البلاد. وبعد زواجه، اشترى الكولونيل شرشل قرية بحوّارة من أصحابها الدروز (وهم آل تلحوق من عاليْه، مشايخ مقاطعة الغرب)، وابتنى لنفسه دارة جميلة في أعلى القرية، ما زالت أنقاضها قائمة إلى اليوم. وأمام الدارة شجرتان من الفلّ الأميركي جيء بنصبتيهما من إنكلترا، وهما أوّل ما عُرف من

هذا الشجر في بلادنا. ولعلّ كلّ ما عندنا من شجر الفلّ الأميركي متحدّر من هاتين الشجرتين.

وما إن اكتمل بناء دارة شرشل في بحوّارة عام ١٨٤٢ حتى أصبحت القرية محجّة لكلّ بريطاني يقوم بزيارة البلاد. ومن هؤلاء رجل أعمال اسمه جون لوذيان (John Lowthian) تقاعد من عمله في مدينة كارلايل (Carlisle) بشمال إنكلترا في أوائل الخمسينيّات من القرن، مقرّراً تكريس ما بقي له من العمر للتبشير البروتستانتي في بلاد المشرق. ويبدو أنّ جون لوذيان اختار بحوّارة مقرّاً له بسبب وجود شرشل (وهو الذي صار يسمّى محلّياً «شَرشَرْ بَيْك») في القرية. فسكن هناك في بيت جريس الصليبي، متّخذاً ابنيه سليمان وإلياس معاونَين له. وكان بتأثير من جون لوذيان أن تحوّل الأخَوان ليس فقط إلى المذهب البروتستانتي، بل إلى التبشير به. وتبعتهما في ذلك اختهما المتعلّمة مريم، ومن بعدها زوجها أسعد عبدالله وجيه صليبيّة بطلّون.

وبالتعاون مع جون لوذيان، قام سليمان وإلياس بإنشاء مدرسة عام ١٨٥٣ لتعليم الأولاد والشبّان من صليبيّة بحوّارة. ومن ثمّ أخذوا ينشئون المدارس في قرى أخرى من الجوار، ثمّ في قرى أبعد منها، مطلقين على مشروعهم اسم «مدارس لبنان» (The Lebanon Schools). وكبرى هذه المدارس مدرسة سوق الغرب التي نمت حولها قرية سوق الغرب. كان تمويل المشروع يتمّ عن طريق زيارات يقوم بها إلياس إلى بريطانيا (أولاها برفقة جون لوذيان) لجمع التبرّعات. واستغلّ إلياس هذه

الزيارات أوّلاً، للتحصيل العلمي قدر الإمكان وثانياً، للزواج، إذ إنّه اقترن بزوجة إنكليزيّة أنجبت له ابناً، ثمّ ماتت، فاقترن بزوجة إنكليزيّة ثانية أنجبت له ابناً ثانياً. (كلا الأخوين عاش ومات في بريطانيا: الأكبر، واسمه إيليّا، درس اللاهوت وأصبح قسّيسا، والثاني، واسمه كالب، درس الطبّ وصارت له شهرة واسعة في حقل الصحّة العامّة والطبّ الوقائي، إضافة إلى نشاطه المرموق بوصفه واحداً من أوائل أعضاء الجمعيّة الفابيانيّة Fabian Society التي انطلق منها فيما بعد حزب العمّال البريطاني. ولا تزال للأخوين في بريطانيا ذرّية عن طريق الإناث.)

لكنْ، المهمّ بالنسبة إلى ما نحن في صدده ليس إلياس، ولا أخاه سليمان، بل أختهما مريم التي تزوّجت أسعد عبداللّه الصليبي من بطلّون، ثمّ تحوّل كلاهما إلى المذهب البروتستانتي والتبشير به، وأنجبا البنين والبنات، فأصبح بيتهما أوّل بيت من الصليبيّة البروتستانت. ومن بناتهما فريدة الصليبي التي اقترنت بالقسّ صليبا جروان، فكان لها منه أربعة بنين وثلاث بنات، أكبرهنّ سارة التي تزوّجت الدكتور إبراهيم شبلي الصليبي، وهي جدّتي لأمّي.

أمّا صليبا جروان الذي هو والد جدّتي سارة، فأصله كاثوليكي من دير ميماس، من قرى منطقة مرج عيون. كان في الثالثة عشرة من العمر (أو ربّما أكبر بقليل) عندما اندلعت الفتنة بين الدروز والنصارى بجبل لبنان ووادي التيم عام ١٨٦٠، فهرب أهله وأقاربه من دير ميماس خوفاً من هجوم الدروز

عليها، ولجأوا إلى قلعة حاصبيّا حيث قضوا في المذبحة التي حصلت هناك. أمّا هو، فلم يلحق بأهله، إذ ساورته نفسه بأن يهرب إلى اتجاه آخر هو البحر، فوصل مساءً إلى عين الحلوة، خارج مدينة صيدا، وهو متعب، وقد تمزّقت ثيابه واهترأ نعلاه من المشي والركض في الوعر. جلس ليستريح عند مدخل بستان هناك، فغلبه النعاس ونام.

وحدث أنّ البستان، حيث جلس صليبا جروان ليستريح، كان فيه مركز الإرساليّة البروتستانتيّة الأميركيّة في صيدا، ومسكن القسّ جوشوا فورد (Joshua Ford) القيّم على هذا المركز. وما لبث القسّ فورد أن عاد إلى منزله في ذلك المساء، ووجد صليبا غارقاً في النوم عند مدخل البستان، فأيقظه وأدخله إلى البيت ليهتمّ بأمره. وكان للقسّ فورد ولد اسمه جورج، وهو من عمر صليبا جروان أو أصغر منه بقليل، فقرّر أن يستبقي صليبا تحت سقفه، يساعد في تدبير البيت ويتربّى تربية بروتستانتيّة مع ابنه. وهكذا شبّ صليبا بروتستانتيّاً في بيت القسّ فورد، مع ابنه جورج: جورج يرتدي الزيّ الإفرنجي، وصليبا يصرّ على الإبقاء على القمباز العربي، ولا يقتنع بالتخلّي عنه.

وكان صليبا وجورج يذهبان مشياً من عين الحلوة إلى شاطىء صيدا كلّما سنحت الفرصة للسباحة في البحر. ويُحكى أنّ جورج تقصّد ذات مرّة أن يكون السابق في الخروج من البحر، فأخذ قمباز صليبا وارتداه، وراح يجري إلى عين الحلوة تاركاً ملابسه الإفرنجيّة وراءه. فاضطُرّ صليبا إلى ارتداء هذه الملابس لكي يلحق برفيقه. ومنذ ذلك الوقت هجر القمباز ولم يعد إليه.

كـان صـلـيـبـا، في تـلك الأثـنـاء، الـتـحـق بمدرسـة المرسلين الأميركيّين في عَبَيه، حيث تـخرّج عام ١٨٦٤، فرُسم قسّيساً على الأثر (وهو أوّل من رُسم قسّيساً من النصارى العرب المتحوّلين إلى المذهب البروتستـانـتـي). ولـعلّ صـلـيبـا بـدأ يتردّد على عين زحلتا في تلك الأثناء واعظاً، وهو بعد في عهد التلمذة، فتزوّج لوسيا شكّور، من بنات الطائفة البروتستانتيّة الناشئة هناك (تاريخ زواجهما مسجّل في الإنجيل الذي كان يستعمله صليبا جروان منذ بداية عهده بالقسوسيّة.) لكنّ زواجهما لم يدم طويلاً، إذ توفّيت لوسيا. وكان صليبا آنذاك قسّيساً للكنيسة البروتستانتيّة في حمص، ولم يعد يطيق البقاء هناك بعد وفاة زوجته، فعاد إلى عين زحلتا. وصار يتردّد في الوقت ذاته على بحمدون ليقيم الخدمة الكنسيّة فيها. وفي بحمدون تعرّف القسّ الشاب الأرمل على أسعد عبدالله الصليبي وزوجته مريم، فتزوّج ابنتهما فريدة، وانتقل على الأثر من عين زحلتا إلى بطلّون حيث استقرّ في جوار حميه، وحيث وُلدت جدّتي سارة، كبرى بناته، عام ١٨٧٣.

كان القسّ صليبا جروان، على ما سمعت، رجلاً هادئاً ورعاً، نَشِطَ في تـأسـيس الـكنـائس البروتستـانـتـيّة المحلّـيـة، فكـان هـو، مثلاً، المؤسّس لكنيسة حمص، وكنيسة عين زحلتا، وكنيسة بحمدون (بمعنى أنّه هو الذي قام بتنظيم من سبق له أن تحوّل إلى المذهب البروتستـانتي من أهالي هذه الأماكن، في رعيّات كنسيّة حسب الأصـول). أمّـا زوجـتـه فـريدة الـتـي صـارت تـعـرف بـعد زواجـهـا بالقسّيسيّة، فكانت سيّدة قديرة، تأمر وتنهى، على ما كان يقال في وصفها، ولها «طلّة ملوكيّة». تلقّت علومها ببيروت في «مدرسة

الإنكليـز» للبنـات (British Syrian Training College)، وأكملـت الدراسة فيهـا، فكانت من أكثـر نساء البلاد تعلّماً فـي زمانهـا. وكذلـك كانت ابنتهـا سارة التي ورثت عن أمّهـا «الطلّة الملوكيّـة»، وتـخرّجـت في «مدرسة الأميركان» للبنـات (American School for Girls) ببيروت. وأنـا أذكر جدّتي سارة جيّداً: سيّدة جميلة، رشيقة القـامـة، على تقدّمهـا في السنّ. تمشي بفستـانهـا الطويل وكـأنّهـا تجرّ الذيل. تتكلّم الإنكليزيّة والفرنسيّة والتركيّة بطلاقة، وتقضي معظم أوقـاتهـا في المطـالعة. وكـان لهـا اهتمـام خـاص بـالموسيقى. أذكر أن أخي الأكبر سامي كـان يتمرّن على عزف البيـانو ذات يوم، فطلب مساعدتهـا بشأن مقطع معقّد لم يتمكّن منه. ولم تكن جدّتي سارة تعاطت الموسيقى منذ وقت طويل، لكنّ ذلك لم يثنهـا عن الاستجـابة لطلب حفيدهـا البكر. فـجلست إلى البيـانو، وجرت أصابعهـا على مفـاتيح الآلة بدقّة فـائقة، ودون أن تـخطـىء أو تتعثّر مرّة واحدة. ثمّ توقّفت عن العزف وقـالت لأخي بـالإنكليزيّة: If you want to play you must play like this (إذا أردت أن تعزف فعليك أن تعزف هكذا).

كـانت سـارة بنت القسّ صليبـا جروان في أواسط العشرينـات من عمرهـا عندمـا اقترنت بالدكتور إبراهيم بن شبلي الصليبي، من صليبيّة جبّ مخايل في بحوّارة. وكـان إبراهيم أصغر اخوتـه، ووالـدتـه عـبلـة بـنت ضـاهـر مـراد متّى من بـحمدون. ولد عـام ١٨٥٣في بـحوّارة عندمـا كـانت هذه القرية ملكاً للكولونيل شرشل الإنكليزي. وكـان لوالده شبلي أبقـار يربّيهـا على أرض شرشل بـالمرابعة. ثمّ انتقل شبلي بعـائلته إلى سوق الغرب، وبعد ذلك عـاد

بها إلى بحوّارة، ولم يلبث أن توفّي هناك عام ١٨٦٤، عندما كان ابنه إبراهيم في سنّ الحادية عشرة. وكان إبراهيم بدأ يتعلّم القراءة في سوق الغرب، وبقي مصمّماً على متابعة الدراسة دون أن تكون له قدرة مادّية على ذلك. وبعد أخذ وردّ، قرّر أن يبيع الحصّة التي ورثها من أبقار أبيه لهذه الغاية، كما سبق.

ذهب إبراهيم في البداية إلى دير الشير قاصداً نيل العلم عن طريق الترهّب هناك. لكن سرعان ما وجد من رهبان دير الشير ما نفّره من فكرة الانضمام إلى صفوفهم (هذا ما يقوله في مذكّراته)، فتحوّل عنهم إلى أقاربه البروتستانت، متحدّياً بذلك سائر أقربائه الذين اعتبروه مجنوناً، وصاروا يهزأون به. تمكّن في النهاية، بمساعدة قريبه إلياس الصليبي، من الالتحاق بكبرى «مدارس لبنان» في سوق الغرب عام ١٨٧١، ثمّ بمدرسة عَبَيه عام ١٨٧٣، ثمّ بالكلّية السوريّة البروتستانتيّة (التي هي اليوم الجامعة الأميركيّة في بيروت) في العام التالي، فتخرّج في هذه الكلّية بدرجة بكالوريوس في العلوم عام ١٨٧٨ (ما زالت شهادته عندي). واستمرّ بعد ذلك يدرس الطبّ في الكلّية ذاتها.

كان شارلز داروين (١٨٠٩–١٨٨٢) لا يزال على قيد الحياة في إنكلترا آنذاك، والعلماء في العالم منقسمون بين مؤيّد ومعارض لنظريته في «النشوء والارتقاء». ومن بين المنقسمين حول هذه النظريّة أساتذة الكلّية السوريّة البروتستانتيّة ببيروت وطلاّبها. وكانت إدارة الكلّية تشجب الداروينيّة بشدّة، وتعتبرها خطراً على الإيمان المسيحي. ومن سوء طالع إبراهيم أنّه كان في عداد الطلاّب المقتنعين بنظريّة «النشوء والارتقاء». وعندما تفاقم الخلاف عام

١٨٨٢ بين إدارة الكلّية من جهة، وبين الأساتذة المؤيّدين للداروينيّة من الجهة الأخرى، وصُرف الأساتذة العرب من هؤلاء، وأُجبر الأميركيّون على الاستقالة، قامت إدارة الكلّية، أيضاً، بطرد الطلاّب المناصرين لهؤلاء الأساتذة. وكان إبراهيم الصليبي في جملة من طرد، في الوقت الذي كان ينتظر فيه أن يتخرّج. فاضطُرّ، هو والمطرودون الآخرون من أبناء صفّه، إلى الذهاب إلى كلّية الطبّ العثمانيّة بإسطنبول لتقديم امتحاناتهم النهائية فيها ونيل شهاداتهم منها. (ما زالت شهادة الطبّ التي تسلّمها جدّي الدكتور إبراهيم من إسطنبول موجودة عندي، وعلى رأسها طُغرآء السلطان عبد الحميد الثاني.)

عاد إبراهيم من إسطنبول إلى بيروت في عام ١٨٨٤ طبيباً، فالتقى بالمبشّر الألماني يوهان شنلّر Johann Ludwig Schneller، رئيس البعثة البروتستانتيّة اللوثريّة في فلسطين. وكانت هذه البعثة أنشأت مستوصفاً في بلدة الخليل، فعرض شنلّر على الدكتور إبراهيم أن يكون الطبيب لهذا المستوصف. فغادر بيروت إلى الخليل في الخريف من ذلك العام، وبقي يعمل هناك مدّة من الزمن زار خلالها بريطانيا بقصد الزواج (وربّما كان ذلك محاولة منه للاقتداء بقريبه إلياس الصليبي)، لكنّه عاد من رحلته البريطانيّة خائباً. (جلّ ما جناه من هذه الرحلة أنّه دخل الماسونيّة لفترة وجيزة خلال زيارة قام بها لسكوتلاندا، لكنّ الماسونيّة لم تعجبه، فأسرع إلى التخلّي عنها.)

بعد ذلك انتقل الدكتور إبراهيم من الخليل إلى السلط، في شرقيّ الأردن، فعمل هناك عدّة سنين في مستشفى الإرساليّة البريطانيّة

الأنكليكانيّة، ثمّ صار له «دكّان» – أي عيادة خاصّة – في زقاق أسفل حيّ النصارى من البلدة. وبيته يتألّف من غرفتين في أعلى «العقبة»، وهي الدرج الحجري الذي لا يزال يربط بين الزقاق وذلك الحيّ. وأمام الغرفتين مسطبة كان يجلس عليها آخر النهار، فيجتمع حوله شبّان السلط يستمعون إلى شروحه لنظريّة «النشوء والارتقاء»، ومبادىء الفلسفة «الطبيعيّة» (أو «النشريّة»، من naturalism، كما كانوا يقولون)، أو إلى حديثه عن علم الفلك، ونظريّة الإيثير في فلسفة الكون التي كانت يومها رائجة بين علماء الغرب.

أحبّ الدكتور إبراهيم السلط وأهلها، وصار له بين شبّانها أتباع أسموهم تلاميذه. ومن بين هؤلاء تلميذ مفضّل اسمه محمد الساكت. وبقي الدكتور إبراهيم «اللبناني» (كما كان يصف نفسه) يتردّد على جبل لبنان لزيارة أقاربه في بحوّارة وبطلّون. وكان يقوم بمثل هذه الزيارة عام ١٨٩٨، وهو آنذاك في الخامسة والأربعين من العمر تقريباً، عندما تعرّف إلى قريبته سارة بنت القسّ صليبا جروان، فأُعجب بها وتزوّجها. وعاد العريسان إلى السلط معاً: سافرا من بحمدون إلى دمشق بالقطار الذي كان أنشىء حديثاً، ومن هناك أكملا الرحلة إلى السلط مع قافلة من المسافرين ركوباً على الخيل. ومما سمعت أن العروس سارة – وهي التي نشأت في دلال – عطشت عطشاً شديداً في الطريق، وكان الماء الذي مع القافلة نفد. ثمّ مرّوا في مرج موحل كانت فيه أبقار ترعى، فاضطُرّت إلى شرب ماء من دعس تلك الأبقار.

وعندما ولدت «الستّ سارة» (كما صارت تسمّى) ابنها البكر، طلب الدكتور إبراهيم من تلميذه المفضّل محمد الساكت أن يختار

له اسماً، فاختار له اسم كمال. وهو اسم كان الأتراك في ذلك العصر بدأوا يطلقونه على الذكور من أولادهم. والاسم غير مألوف بعد بين العرب، عدا النصارى الذين كانوا يطلقونه تقليديّاً (هو واسم جمال) على البنات دون البنين. وبعد كمال رزق الدكتور إبراهيم عام ١٩٠٠ بابنة سمّاها سلوى، هي أمّي. وما لبث كمال أن توفّي وهو بعد صغير. وبعد ذلك رزق الدكتور إبراهيم عام ١٩٠٦ بولد آخر سمّاه، أيضاً، كمال. ثمّ تزوّج محمد الساكت ورزق بولد سمّاه بنفس الاسم. فصارت تسمية كمال تقليداً في العائلتين. ومن تلاميذ الدكتور إبراهيم من أطلق الاسم، أيضاً، على واحد من بنيه، فنشأت من ثَمّ مجموعة «كمالات» السلط.

ولديّ انطباع بأن الستّ سارة أصيبت بخيبة بعد زواجها من الدكتور إبراهيم، إذ إنّها لم تحبّ الحياة في السلط، كما إنّها لم تشارك السلطيّين إعجابهم بآراء زوجها في فلسفة الكون. إضافة إلى أن الدكتور إبراهيم لم يكن طامحاً بالثروة، بل كان التطبيب بالنسبة إليه – وهو آنذاك الطبيب الوحيد في تلك المنطقة – أكثر ما يكون رسالة إنسانيّة. ولذلك بقي، هو وعائلته، يعيشون عيشة متواضعة لا تبعد كثيراً عن الفقر. ولعلّ الستّ سارة – وهي السيدة المؤمنة، وبنت القسّيس – كانت ترى في فلسفة زوجها «الطبيعيّة» ضرباً من الإلحاد. ومن النصارى المؤمنين في السلط من كان بالفعل يعتبر الدكتور إبراهيم ملحداً، بل إنّه أصبح مضرب المثل في الإلحاد بينهم. (درج الاعتقاد بين هؤلاء بأنّ الدكتور إبراهيم تراجع عن إلحاده عندما اقترب من المنيّة، فصاروا يقولون: «حتى الدكتور إبراهيم عاد إلى الإيمان قبل أن

يواجه ربّه.» هذا ما حدّثني به صديقي خالد الورّ، بعمّان، نقلاً عن والده وأعمامه.)

وجاء وقت لم تعد الستّ سارة تطيق عيشة العوز في السلط، فاستأذنت زوجها بالعودة مع ولديها – سلوى وكمال – إلى بيت أبيها في بطلّون. وبقي الدكتور إبراهيم وحده، يجتمع مع تلاميذه السلطيّين في البيت الصغير عند رأس «العقبة»، ويتردّد على بطلّون لتفقّد عائلته بين الحين والآخر، وهو في معظم الأحيان فارغ الجيب.

وانكبّ الدكتور إبراهيم على التأليف غير المجدي مادّياً بعد مغادرة عائلته السلط، فوضع كتاباً في علم الفلك وفلسفة الكون سمّاه «ميزان الأكوان ودولاب الزمان»، وآخر في الأصول الحديثة لتربية النحل، وعدداً من المقالات في مواضيع مختلفة، نشرت آنذاك في مجلّة «المقتطف» بمصر. وكان ذلك سبباً في جعل الستّ سارة تلجأ إلى مواردها الخاصّة من خلال العمل في التعليم حتى تتمكّن من تربية أولادها. علّمت أولاً في المدرسة البروتستانتيّة للبنات بدمشق. (هناك اضطُرّت إلى لبس البرقع، على ما سمعت من أمّي، لأنّ نساء النصارى بدمشق كنّ يتحجّبنَ آنذاك.) ومن دمشق انتقلت الستّ سارة إلى التعليم في مدرسة البنات بسوق الغرب، وبقيت هناك حتى اندلاع «الحرب العظمى» (أي الحرب العالمية الأولى) عام ١٩١٤ وبدء المجاعة، فعادت مع ولديها إلى بطلّون.

كان الدكتور إبراهيم التحق في تلك الأثناء بالخدمة الطبّية في الجيش العثماني بالسلط، فوفّر ذلك إعاشة من القمح لعائلته في بطلّون تأتيهم من مخازن الجيش في صَوْفَرَ. وكانت منطقة

بطلّون – مثلها مثل بحمدون – أرض كروم، فاستعاض أهلوها عن فقدان السكّر باستعمال دبس العنب. وصاروا في الوقت ذاته يزرعون الحنطة بين العريش في كرومهم. وكانت أمّي سلوى من بين من عمل في هذه الزراعة. ثمّ حلّت كارثة الجراد (يأتي طائراً في أسراب على شكل سحاب، ثمّ يحطّ فيبيض، فيخرج من بيضه جراد زحّاف يأكل الأخضر واليابس)، فصار الشباب والصبايا في بطلّون – وأمّي من بينهم – يتعاونون على مكافحة الجراد الزحّاف بحفر خنادق في الحقول، يضعون فيها كلّ ما يمكن إشعاله، ثمّ يوقدون النار في هذه الخنادق حال نزول الزحّاف فيها. وكان من شباب بطلّون (وخصوصاً ابن عمّتي عارف الصليبي) من يجيد الغناء والعزف على العود، ممّا جعل من السهر على مكافحة الجراد متعة.

ثمّ جاء وقتٌ اشتدّت فيه المجاعة، ولم تعد فيه إعاشة الجيش متوفّرة للستّ سارة وعائلتها على ما يبدو، وهي تعيش في ذلك الوقت في بيت والدتها القسّيسيّة. وفي يوم من الأيّام طلبت القسّيسيّة من حفيدتها سلوى أن تأخذ الحمار، وتذهب إلى بحمدون برفقة أخيها كمال، فتشتري طحيناً من هناك بقيمة ليرتين عثمانيّتين من الذهب. وكان تاجر الطحين في بحمدون رجلاً فاضلاً اسمه نجيب حسّان، وقد نفد الطحين من دكّانه. لكنّ طلب القسّيسيّة لم يكن من النوع الذي يُرفض. فأخذ نجيب حسّان أمّي سلوى إلى بيته، وأعطاها رطلين من طحينه الخاصّ، كلّ رطل بليرة ذهبيّة. وهذا هو السعر الذي كان وصل إليه الطحين في ذلك الوقت.

بعد أيّام قليلة من ذلك انتهت الحرب، فعادت الستّ سارة إلى التعليم في سوق الغرب. كما عادت ابنتها سلوى إلى «مدرسة الأميركان» للبنات في بيروت لتكمل الدراسة فيها بعد توقّف دام سنتين بسبب ظروف الحرب. وفي العام التالي تقدّم أبي طالباً يدها، فتمّ زواجهما في بطلّون في ١٥ تشرين الثاني عام ١٩١٩ على يد القسّ بشارة البارودي من سوق الغرب.

وأبي هو الدكتور سليمان بن خليل بن يوسف بن نهرا الصليبي، من بطلّون. ولد في قرية المختارة عندما كان جدّي المعلّم خليل يعلّم هناك في مدرسة البنين التابعة أصلاً لـ «مدارس لبنان»، وجدّتي المعلّمة وردة أبو كلام تعلّم في مدرسة البنات التابعة أصلاً للمؤسّسة ذاتها. وكلتا المدرستين، وكذلك مساكن الأساتذة المتزوّجين، في قصر آل جنبلاط بالمختارة. ولم يكن آل جنبلاط قد سكنوا هذا القصر، على ما سمعت، منذ قدوم القوّات الفرنسيّة إلى جبل لبنان عام ١٨٦٠، لأن سعيد بك جنبلاط (توفّي عام ١٨٦١) كان مديناً لكبار الصيارفة الموارنة في بيروت، فضغط هؤلاء على الفرنسيّين لكي يضمنوا لهم حجز قصر المختارة، وغيره من ممتلكات سعيد جنبلاط، حتى يتمّ التحصيل. لكن الإرساليّة السكوتلانديّة التي كانت تدعم «مدارس لبنان» تدخّلت في قضيّة الحجز على القصر بحجّة وجود مدرستين لها فيه. (والمعروف أنّ بريطانيا كانت نصيرة لآل جنبلاط وللدروز عامّة آنذاك.) وفي عام ١٨٧٣ جرت تصفية مشروع «مدارس لبنان» بضغط من المرسلين الأميركيّين في بيروت الذين كانوا يقاومون هذا المشروع منذ البداية، ويبغضون إلياس الصليبي الذي كان قيّماً عليه، فتحوّلت

إدارة المدرستين في قصر المختارة إلى «الإرساليّة البريطانيّة السوريّة» (British Syrian Mission، وهي الإرساليّة التي كانت لها «مدرسة الإنكليز» للبنات ببيروت). وصارتا تسمّيان معاً «المدرسة البريطانيّة السوريّة» (British Syrian School). (وجدت هذا الاسم مختوماً على الورقة التي بدأ المعلم خليل الصليبي يدوّن عليها تواريخ ولادة أبنائه وبناته عندما كان لا يزال في المختارة.)

ومهما تكن حقيقة الأمر بشأن ما حدث لقصر المختارة بعد حوادث ١٨٦٠، فلكلّ من المعلّم خليل الصليبي وزوجته وردة قصة تروى.

كان والد المعلّم خليل، وهو يوسف بن نهرا بن يعقوب بن حنّا الصليبي، من سكّان بطلّون حيث كان له ماعز، كما سبق وذكرت. تزوّج مريم هَيْدَمُوس من قرية عين دارة، بأعلى مقاطعة الجرد. وهي امرأة قديرة وذكيّة، ولها معرفة واسعة بفنّ التوليد وطبّ الأعشاب، لكنها عديمة الجمال، وضيّقة الخلق. وكانت تلقّب بالعنّيّة إما نسبةً إلى الجزء الأوّل من اسم عين دارة، أو نسبةً إلى عنينها العائد إلى ضيق خلقها. وممّا يذكر عن مآثرها في فنّ التوليد أنها استدعيت ذات يوم من بطلّون إلى بحمدون لتساعد امرأة من آل خيرالله تعسّرت ولادتها الأولى، وأصبحت في حالة ميئوس منها بسبب موت الجنين في رحمها، فطلبت مريم موسى حلاقة وضعتها بين أصابع يدها اليمنى، ثمّ أدخلت يدها إلى رحم المرأة، فقطّعت الجنين بالموسى وأخرجته إرباً، منقذة بذلك حياة الأم التي عاشت، ولا تزال لها ذرّيّة.

كان ليوسف ومريم عدّة أولاد، بنين وبنات. وبناتهما (وعلى رأسهنّ المسمّاة إفروسينة) من أبشع بنات عصرهنّ. لكنهنّ

تزوّجن جميعاً، على قبحهنّ (هذا ما كانت تقوله لي عمّتي وديعة). وأمّا البنون، فكانوا ثلاثة: إبراهيم وخليل وزيادة. وخليل، من بين الثلاثة، هو الوحيد الذي ورث الفطنة عن أمّه، وكان في الوقت ذاته وسيماً، على عكس إخوته وأخواته. وكانت ولادته عام ١٨٥٠.

وحدث عندما كان خليل طفلاً أنّ أمّه كانت تخبز ذات يوم على التنّور، وهو يلعب بجانبها، فسقط في التنّور واحترقت إحدى قدميه، فصار يعرج في مشيته. وتبيّن بعدما كبر أن قدرته على القيام بأعمال الرجال لم تكن كافية بسبب عرجه، فصار والداه يرسلانه إلى بلدة بتاتر، على مسافة قصيرة من بطلّون، للعمل في حلّ الحرير مع النساء والبنات في معمل «الخواجا فَرْتُونِي» (وهو الفرنسي فورتونيه بورتاليس Fortuné Portalis، رائد التحديث في صناعة الحرير بجبل لبنان). وكان في ذلك ما سبّب له مرارة في النفس.

كان خليل عائداً من بتاتر إلى بطلّون ذات يوم، والتقى بفتى يكبره بقليل، وفي زنّار الفتى محبرة وقلم. (هكذا كان يحمل المتعلّمون عدّة الكتابة في ذلك الوقت، إعلاناً عن مكانتهم المتفوّقة.) وسأل خليل الفتى أين ذهب ليتعلّم، فأجاب بأنّه تخرّج حديثاً في مدرسة المرسلين الأميركيّين في عَبَيه. وفي تلك اللحظة اتّخذ خليل القرار الذي غيّر مجرى حياته (ومجرى حياتنا)، فسرق حصاناً كان لأبيه، وراح يجري به نزولاً إلى نهر الغابون، ثمّ صعوداً إلى عبيه حيث نجح في الالتحاق بالمدرسة. وعند تخرّجه كان خليل تحوّل إلى المذهب البروتستانتي، فعمل

مدّةً مـع المرسلين الأميركيّين في بيروت مسـاعداً في مشروع ترجمة الكتاب المقدّس من العبرانيّة واليونانيّة إلى العربيّة. وبعد ذلك تحوّل إلى التعليم في المختارة، حيث التقى بالمعلّمة وردة التي صارت زوجته. كان ذلك عام ١٨٧٠ تقريباً، والمعلّم خليل آنذاك في العشرين من العمر.

أمّا المعلّمة الصبيّة وردة، فكانت في الأصل من أسرة ببلدة حاصبيا يعمل رجالها في الحدادة وفي تبييض الآنية النحاسيّة بالقصدير. قُتل والداها وإخوتها في مذبحة حاصبيا عام ١٨٦٠، وبقيت يتيمة، فكانت من بين اليتامى الذين انتشلهم المرسل الألماني السابق الذكر، يوهان شنلّر، ليتربّوا في الميتم الذي أنشأه في مدينة القدس بفلسطين في تلك السنة (وهذا الميتم بالبداية في بيته). وهناك تربّت وردة على المذهب البروتستانتي اللوثري، وأتقنت اللغة الألمانيّة إضافةً إلى العربيّة.

وما إن تخرّجت وردة من ميتم شنلّر بالقدس حتى بدأت تُعلّم في مدرسة البنات في المختارة. وهناك التقت بالمعلّم خليل الصليبي الذي تزوّجها. فولد لهما في المختارة ابنهما البكر إسكندر (١٨٧١) الذي توفّي وهو في الشهر الرابع من العمر، ثمّ ابنتهما الكبرى ميليا (١٨٧٣) ومن بعدها مريم (١٨٧٥) وسليمان (١٨٧٨). فصارت المعلّمة وردة تعرف بأمّ سليمان. ولعلّ «المدرسة البريطانيّة السوريّة» في قصر المختارة أقفلت بعد عودة القصر إلى أصحابه قرابة ذلك الوقت، فعاد الزوجان مع عائلتهما إلى بطلّون حيث وُلد لهما المزيد من البنين والبنات، وهم مرتا (١٨٨٠)، وسليم (١٨٨٢)، ووديع (١٨٨٦)، ووديعة (١٨٩٠)، وسليمة (١٨٩٣).

اهتمّ المعلّم خليل بتعليم أولاده في أفضل المدارس. وربّما ترك مهنة التعليم لهذا السبب، وحاول العمل في التجارة. كانت تجارته ببزر القزّ، أي ببويضات دود الحرير التي كانت تخزّن في أماكن باردة – وغالباً ما يكون ذلك في سقوف الكنائس والأديرة – حتى يأتي الوقت لبيعها عندما يحين الموسم لتربية الدود في بداية الربيع. وفي أوّل عام قام المعلّم خليل بهذا الضرب من التجارة، كانت الأرباح هائلة بسبب حريق شبّ في دير كان فيه مخزون كبير من بزر القزّ، فارتفعت أسعار هذه السلعة على الأثر ارتفاعاً قياسيّاً. فتشجّع المعلّم خليل على المضيّ في تجارته، وتوظيف كلّ ما كان لديه من مال في شراء بزر القزّ للعام التالي. بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فرهن جميع أملاكه في بطلّون – بما فيها البيت الذي كان يسكنه مع زوجته وأولاده – ليوظّف المزيد من المال في التجارة ذاتها. لكنّ الحظ لم يحالفه هذه المرّة، خصوصاً أنّ الكثيرين غيره كانوا فعلوا ما فعل. فكسدت سلعة بزر القزّ، وهبطت أسعارها إلى أدنى المستويات. وسرعان ما وجد المعلّم خليل نفسه في حالة إفلاس.

كان تبقّى في جيبه بضع ليرات ذهبيّة فرنسيّة، فنزل إلى بيروت يبحث عن توظيف مربح لها يعوّضه قدراً، ولو صغيراً، من خسارته الفادحة. وهناك مرّ برجل يلعب لعبة «الكشاتبين»، وهي نوع من ألعاب الحظّ كان كثير الرواج آنذاك. صاحب اللعبة يأخذ ثلاثة كشاتبين، ويضع تحت واحد منها خرزة، ثمّ يحرّك الكشاتبين بسرعة فائقة، وعلى من يدخل اللعبة مراهناً أن يعرف تحت أي منها استقرّت الخرزة. ولصاحب اللعبة من خفّة اليد ما يوهم

المراهن بأن الخرزة قد انتهت بالأكيد تحت كشتبان معيّن، بينما هي انتهت تحت كشتبان آخر. وكان لأصحاب هذه اللعبة حيلة لاستدراج البسطاء من الناس لطلب الحظ عن طريقها: يلعبون اللعبة مع شركاء لهم يربحون المرّة تلو الأخرى على مرأى من المتفرّجين حتى يأتي اللاّعب الساذج الطالب لحظّه، متشجّعاً بما رأى، فيتمكنون منه ويسلبونه ماله. وهذا ما حصل للمعلّم خليل: سقط في شرك لعبة الكشاتبين وأخذ يراهن ليراته الذهبيّة عليها، الواحدة بعد الأخرى، حتى خسر آخر ليرة معه.

عاد إلى بطلّون مساء ذلك اليوم، وكان خبر إفلاسه انتشر، فجاء أقرباؤه إليه ينصحونه بتحويل بيته وأملاكه مباشرة من اسمه إلى أسماء زوجته وأولاده حتى لا يطالها الدائنون. وكان ابنه سليمان – أي أبي – ما زال صغيراً في ذلك الوقت، وقد وضعته أمّه لينام في زاوية من غرفة الجلوس. فسمع والده يرفض نصح أقربائه بشدّة، مكرّراً أنّه يفضّل أن يخسر بيته، وأن ينام مع عائلته تحت شجر التوت في الفلاة، على أن يأكل أموال الناس. وطالما أخبرني أبي أنّه سمع هذا الكلام، وأخذ يتصوّر نفسه نائماً في الفلاة مع أهله وأخوته الليلة تلو الأخرى، فأخذ يجهش في البكاء. وقرّر، في تلك الليلة التي لم يغمض له خلالها جفن، أن لا يكون فقيراً في حياته.

ويبدو أن المعلّم خليل نجح في استمهال دائنيه، ثمّ بدأ يسعى إلى عمل يمكّنه من تسديد ديونه. وكان الثري البيروتي موسى فريج بحاجة إلى رجل متعلّم يأتمنه على مشروع زراعيّ كان بدأه في حوش السنيد، من بلاد بعلبك، حيث اليوم مزرعة الجامعة

الأميركيّة، فوقع اختياره على المعلّم خليل، وعيّنه بهذا العمل لقاء مرتّب معقول. وفي أواخر القرن اكتمل بناء سكّة الحديد بين بيروت ودمشق، مروراً بمحطّة بحمدون وريّاق، بين البقاع وبلاد بعلبك، فأصبح بالإمكان نقل الحنطة من هاتين المنطقتين إلى بحمدون وجوارها بالقطار. وصار المعلّم خليل، من ثمّ، يتاجر بالحنطة مع شريك له في محطّة بحمدون، مع الإبقاء على وظيفته مدبّراً لمشروع حوش السنيد. وهكذا تمكّن من إرسال جميع أولاده – ذكوراً وإناثاً – إلى المدارس. وكان سليمان أكبر البنين، فأرسله إلى مدرسة سوق الغرب، ثمّ إلى الكلّية السوريّة البروتستانتيّة ببيروت. لكنّ سليمان آثر أن لا يكمل دراسته، فترك الكلّية قبل أن ينال شهادة البكالوريوس، وأخذ يعمل مع والده في تجارة القمح. وكان حتى ذلك الوقت يلبس القمباز العربي، مثل والده.

وعاجل الموت المعلّم خليل، فتوفّي عام ١٩٠٠ بداء التيفوس، على ما أعلم، وهو يقوم بزيارة إلى بيروت، وابنه سليمان بجانبه. وقبل أن يسلم الروح، أعطى المعلّم خليل ابنه سليمان مبلغاً من المال كان لموسى فريج في ذمّته، وأوصاه بأن يعيد هذا المال إلى صاحبه. وبعد أن تمت مراسم الدفن في بطلّون، عاد سليمان إلى بيروت قاصداً قصر موسى فريج ليرجع إليه الأمانة. وهو يظنّ أن المذكور سوف يصعق عند سماعه بخبر وفاة المعلّم خليل، وأنّه سوف يتمنّى على ابنه أن يُبقي الأمانة تعويضاً للعائلة عن وفاة معيلها. لكنّ ظنّ سليمان الحسن خاب: وصل إلى قصر فريج، فبقي في المدخل دون أن يدعوه أحد إلى قاعة

الاستقبال كما كان ينتظر. وجاءه هناك خادم بفنجان قهوة فيه ذبابة، فوضع الفنجان جانباً ولم يشربه. وأخيراً جاء موسى فريج، فلم يصعق بخبر وفاة المعلّم خليل، بل جلّ ما فعل هو تقديم التعازي بالطريقة التقليديّة. وفوجىء عندما رُدّت إليه الأمانة، إذ لم يكن له علم بوجود مال له في ذمّة المعلّم خليل. لكنّ المفاجأة بوجود هذا المال أسرّته، فأخذه دون تردّد.

كان سليمان آنذاك في سنّ الثالثة والعشرين. ولم يكن أيّ من أخويه الصغيرين قد أكمل علمه. الأكبر منهما، المسمّى سليم، كان المعلّم خليل أرسله إلى الكلّية السوريّة البروتستانتيّة ببيروت ليدرس الصيدلة، فقضى أيّام الدراسة في إتقان «الدنص» (dance)، وهو الاسم الذي كان يطلق آنذاك على الرقص الإفرنجي. أمّا الأصغر، وهو المسمّى وديع، فكان من النوع غير القابل للتعلّم، فلم يكمل المدرسة الابتدائيّة. وسرعان ما لحق بركب الهجرة إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة بعد وفاة والده. ونظراً لإخفاق أخويه الاثنين في حقل العلم، لم يجد سليمان بدّاً من العودة إلى الكلّية السوريّة البروتستانتيّة ببيروت، حتى يكون بين أبناء المعلّم خليل ولد واحد، في الأقلّ، قد أكمل علمه. وكان قراره أن يدرس الطبّ.

كان في بحمدون امرأة قضت سنوات من حياتها تخدم في منازل الأثرياء ببيروت، وقد جمعت ثلاثين ليرة عثمانيّة ذهباً تطلب تشغيلها. فاستدان سليمان منها هذا المبلغ بكفالة اثنين من وجهاء بحمدون كانا يعرفانه ويعرفان والده. وحرص سليمان على وجود طريقة تضمن عودة الدين إلى صاحبته في حال وفاته. كانت شركة كنديّة لتأمين الحياة اسمها Sun Life of Canada فتحت

فرعاً لها في بيروت منذ فترة دون أن يكون لها بعدُ زبائن، إذ لم يكن التأمين على الحياة شاع آنذاك في بلادنا. وكان طبيب الشركة، الدكتور غراهام الأميركي، أستاذ سليمان في الكلّية، فأشار عليه بأن يأخذ بوليصة تأمين من هذه الشركة لكي يطمئنّ باله. ويبدو أن تحوّل سليمان من اللباس العربي إلى الإفرنجي حدث في الوقت ذاته، أو بعده بقليل. لكنّه أبقى على الطربوش.

في بداية صيف ١٩٠٥ تخرّج الدكتور سليمان من الكلّية السوريّة البروتستانتيّة طبيباً، فسار أهالي بحمدون وجوارها إلى مشارف عاليْه لملاقاته، وعادوا به إلى والدته في بطلّون محمولاً على الأكتاف. وحدث أن وجيهاً من مصر يدعى محمدَ أفلاطون كان مصطافاً في بحمدون آنذاك، وله ولد في مطلع الشباب اشتدّ به المرض حتى كاد يموت، فطلب من الدكتور سليمان معالجته. وما لبث الشاب أن بدأ يتعافى، وكان سرور والده بذلك عظيماً. فاقترح على الطبيب الشاب أن يأتيه إلى مصر في أقرب فرصة، واعداً إيّاه بالمساعدة في إيجاد عمل مربح له هناك. وعندما غادر محمد أفلاطون بحمدون بعد شفاء ابنه من المرض، لحقه الدكتور سليمان إلى مصر في مطلع الخريف. ولم يطل الوقت حتى تمّ تعيينه ضابطاً طبيباً في الجيش المصري براتب لم يكن يحلم به، ثمّ أُرسل إلى السودان الذي كان آنذاك مستعمراً من بريطانيا بالاشتراك مع مصر.

واستقرّ الدكتور سليمان في السودان، يقوم بزيارة لبطلّون مرّة في السنة ليقضي عطلة الصيف مع والدته. كانت تحثّه على الزواج، وتعرض عليه العروس بعد العروس، وهو يظلّ يراوغ إلى

أن يحين موعد العودة إلى السودان، فيعود وحده. ثمّ اندلعت الحرب العظمى عام ١٩١٤، فلم يعد باستطاعته زيارة بطلّون بسبب دخول الدولة العثمانيّة الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، في حين كانت مصر محتلّة من بريطانيا وخاضعة لإرادتها. وكانت مصر حتى ذلك الوقت تعتبر جزءاً من الدولة العثمانيّة يتمتّع باستقلال ذاتي، وعلى رأسه خديويٌ من سلالة محمد علي باشا. فما كادت الدولة العثمانيّة تدخل الحرب حتى أعلنت بريطانيا فصل مصر عن الحكم العثماني، جاعلة منها محميّة بريطانيّة. وكان الدكتور سليمان حتى ذلك الوقت مواطناً عثمانيّاً، فتحوّل إلى مصريّ.

ثمّ انتهت الحرب في خريف عام ١٩١٨. وفي الصيف التالي عاد الدكتور سليمان إلى بطلّون ليتفقّد والدته وأهله. وهذه المرّة لم يتمكّن من المراوغة. فكلا أخويه، سليم ووديع، كان هاجر إلى الولايات المتّحدة منذ سنوات وتزوّج هناك، فأنجب بنتاً واحدة، ثمّ توقّف عن الإنجاب. وهذا يعني أن نسل المعلّم خليل الصليبي عن طريق الذكور مهدّد بالانقطاع، إلاّ إذا تزوّج بكره وأنقذ الموقف. هذا ما قالته أمّ سليمان التي كان سبق لها أن اختارت لابنها العروس. وما كان للدكتور سليمان إلاّ أنّ يوافق. وفي ذلك الخريف رجع إلى عمله في السودان مع عروسه سلوى بنت الدكتور إبراهيم الصليبي. وفي العام التالي ولد لهما بكرهما سامي في مَرَوِي (١٩٢٠)، ومن بعده بهيج في أُم دُرمان (١٩٢٢)، ثمّ خليل في بحمدون (١٩٢٤)، ومن بعدهم كمال (الذي هو أنا) في بيروت (١٩٢٩)، ثمّ منير (بحمدون ١٩٣١)، وأخيراً بنت سمّياها سنيّة (بحمدون ١٩٣٥).

٢

بحمدون

في خريف ١٩٢٥ اغتيل في القاهرة السير لي ستاك Sir Lee Stack، سردار القوات البريطانيّة – المصريّة في السودان، وحمّلت بريطانيا مصر مسؤوليّة اغتياله، ففرضت عليها سحب قوّاتها من السودان. وفي تلك الظروف طلب بعض الضبّاط «السوريّين» (أي الشوام) في الجيش المصري إحالتهم على التقاعد، فاستجيب طلبهم. وكان أبي في جملتهم. فغادر مصر واستقرّ مع عائلته في بيروت، أولاً في بيت «الستّ فريدة» (وأظنّها فريدة كسّاب) في محلّة السيوفي بالأشرفيّة، ثمّ في بيت بمحلّة كركول العبد، على طريق الشام. وهناك ولدت له عام ١٩٢٧ بنت أطلق عليها اسم جدّتها وردة. لكنّ وردة ماتت بعد أسبوعين من ولادتها، فتشاءمت أمّي من ذلك البيت، وانتقلت الأسرة على الأثر إلى بيت آخر في محلّة كركول الدروز، بطرف المصيطبة، كان يسمّى «بيت عرمان» (نسبة إلى صاحبته روز عرمان)، فولدت أنا في ذلك البيت في

ربيع ١٩٢٩. وكان خالي كمال توفّي بالحمّى القرمزيّة سنة ١٩٢٣ عن سبعة عشر عاماً، فأصرّ والدي أن أحمل اسمه إكراماً لجدّي الدكتور إبراهيم وجدّتي سارة. وتمّ تسجيلي بهذا الاسم في القنصليّة المصريّة ببيروت.

كان أبي في البداية ينوي فتح عيادة له في بيروت، مع مختبر وصيدليّة قام بطلب المعدّات والأدوية لهما من شركة بوروز ولكام Borroughs Wellcome في بريطانيا. ثمّ بدأ يتخلّى عن هذه الفكرة شيئاً فشيئاً حتّى عدل عنها تماماً في العام الذي ولدت فيه. ولعلّ ما شجّعه على العدول عنها هو بداية الكساد الكبير في العالم ذلك العام، بحيث أصبح هو وأمثاله من أصحاب المدّخرات والرواتب بالجنيه المصري – وهو المساوي آنذاك للّيرة الإنكليزيّة الذهبيّة – في حال يحسدون عليها.

بعد ولادتي بشهر أو شهرين انتقلت الأسرة للاصطياف في بحمدون، حيث كان أبي اشترى عند زواجه بيتاً كبيراً. والبيت مسقوف بالقرميد، يشرف من علوّ على كامل القرية، تحيط به أشجار باسقة من العوسج، وحوله مساحات واسعة من كروم العنب والأرض البور. ولم يوجد سبب يستوجب عودتنا إلى بيروت، فاستقرّ الرأي على بقائنا في بحمدون صيفاً وشتاءً. فكانت بحمدون هي العالم الصغير الذي استفقت عليه – أوّلاً بشكل متقطّع، ثمّ بشكل أكثر تواصلاً ووضوحاً – ابتداءً من خريف عام ١٩٣١.

بدأ هذا العالم البحمدوني الصغير يتكوّن في أواسط القرن السادس عشر، مع بداية نزوح النصارى الموارنة والملكيّة من

شمال لبنان إلى المناطق الدرزيّة، ومنها ناحية الجرد الواقعة إلى الجنوب من طريق الشام مباشرة، وقاعدتها قرية بتاتر. وبين طريق الشام وبتاتر سلسلة من القمم الجبليّة أوسطها جبل الرُصَيِّف. ولعلّ قرية باسم بحمدون كانت تقوم على السفح الشمالي – الغربي لهذا الجبل من قبل، لكنْ لا يوجد تاريخ يذكر مثل هذه القرية. والأرجح أنّ بحمدون في موقعها الحالي لم تكن إلاّ مدرّجات زراعيّة تابعة لبتاتر عندما بدأ النصارى القادمون من الشمال يستقرّون فيها. وأوّل هؤلاء آل ثابت الموارنة، وأصلهم من العاقورة ببلاد جبيل، ومن بعدهم آل خيراللّه الملكيّة، وأصلهم من قرية المجدل بجوار العاقورة. وما لبث أن أصبح لكلّ من آل ثابت وآل خيراللّه لفيف من الوافدين ينتسب إليهم.

وبعد ذلك أخذت أسر أخرى من النصارى تستقرّ في بحمدون، وجميع هذه الأسر من الملكيّة. منها من قدم من شمال جبل لبنان (مثل آل نعمة، ومنهم آل أبي خالد، وهم في الأصل من منطقة القرنة ببلاد جبيل)، ومنها من قدم من حوران (مثل آل متّى) ابتداءً من أواسط القرن السابع عشر حين بدأ سكّان القرى هناك يتعرّضون لمضايقات متزايدة من بدو الجوار نتيجة للضعف الذي طرأ آنذاك على قدرة الدولة العثمانيّة في التحكّم بالبادية.

ويقال إنّ موقع بحمدون كان في الأصل إلى الأدنى من الطريق التي تعبر سفح جبل الرصيّف باتّجاه بتاتر. ولا يزال هناك نبع ماء يسمّى «عين الضيعة»، وآثار لكنيسة تسمّى «كنيسة الملّول» نسبة إلى شجر الملّول الذي يقع إلى جوارها. ثمّ انتقلت القرية من

هناك صعوداً إلى موقعها الحالي على طريق بتاتر، ربّما ابتداءً من القرن الثامن عشر. لكنّ نساء بحمدون بقينَ يزرنَ أطلال «كنيسة الملّول» حيث كانت القرية من قبل. وعندما حصل الانشقاق في جماعة النصارى الملكيّة بين الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك بعد عام ١٦٨٣، بقي جميع الملكيّين في بحمدون على المذهب الأرثوذكسي. وصار لكلّ من الروم الأرثوذكس والموارنة في القرية كنيسة تحمل اسم القديس جيورجيوس المسمّى في كلام العامّة مار جريس. وفي كنيسة الروم أيقونة عجائبيّة للسيّدة العذراء.

ويحكى أن سيّدة من أثرياء آل كتّانة كانت تصطاف في بحمدون في وقت ما قبل الحرب العظمى، ولها ولد مريض نذرته لأيقونة السيّدة في كنيسة الروم فشفي، فقدّمت للكنيسة ما يلزم من القمح ولحم الضان لصنع هريسة يوم عيد السيّدة (وهو عيد انتقال السيّدة العذراء في ١٥ آب) اشترك الأهالي في طبخها، ووُزّعت على كلّ بيت في القرية للتبرّك. ومنذ ذلك الوقت أصبح عيد السيّدة عيداً خاصّاً في بحمدون، تطبخ فيه الهريسة طوال الليل على صوت قرع الأجراس في كنيسة الروم – وكذلك في كنيسة الموارنة – حتى تكون جاهزة لتُوزّع على البيوت صباح العيد.

وارتفع شأن بحمدون بعد انتقالها من جوار الملّول إلى جانب طريق بتاتر، بحيث أصبح هذا الطريق سوقاً للقرية يخدم ما حولها من قرى ومزارع في مقاطعة الجرد، وفي الأجزاء المجاورة من مقاطعة المتن، على الجانب الشمالي من طريق الشام. هناك، في مزرعة «القُرَيّة»، على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات من

بحمدون (أي على مسافة أربعين دقيقة مشياً على الأقدام)، تمّ تأسيس أوّل معمل فرنسي لحلّ شرانق الحرير في المنطقة عام ١٨١٠ أو بعده بقليل. وكان لنجاح هذا المعمل ما شجّع الإخوة بورتاليس (ومنهم المدعو «الخواجا فرتونه» Fortuné Portalis المذكور آنفاً) على تأسيس معمل فرنسي ثانٍ للحرير في قرية بتاتر عام ١٨٣٨، فدخلت بحمدون، إثر ذلك، في خضمّ عالم الحرير. كلّ بيت فيها – وبجانبه جلّ أو جلاّن من شجر التوت – يقوم بتربية دود القزّ في موسمه. والمتموّلون من الأهالي يتولّون النواحي الماليّة والتجاريّة المتعلّقة بهذا الموسم، فيجنون من ذلك حظهم من الأرباح. (وممّا سمعت عن والدي أن أجور العمّال في معمل الحرير ببتاتر كانت تدفع على شكل صكوك تحمل ختم بورتاليس، وتُدفع قيمتها نقداً عند الطلب، فيتعامل أهالي الجوار بهذه الصكوك وكأنّها نقود.)

(يتربّى دود القزّ تقليديّاً على أطباق مصنوعة من القصب، ويُعطى الدود ورق التوت للأكل مفروماً عندما يكون صغيراً، ثمّ كاملاً عندما يكبر. وقطف ورق التوت يسمّى «المَشْق». وصوت قضم الدود الكبير لورق التوت يسمع من بعيد. وللدود رائحة مميّزة تعمّ القرية في موسم تربيته الذي هو الربيع. والدود «يصوم» – أيّ يمتنع عن الأكل – بين الدرجة والتالية من نموّه، فلا يعطى ورق التوت عندما يكون «صائماً». وعندما يحين الوقت للدود أن «يُشَيِّح»، أي أن يبدأ بنسج شرانقه، يعطى أغصاناً من الوزّال لينسج الشرانق عليها. وتكون هذه الشرانق حاضرة للقطاف في موسم المشمش، فتتعاون النساء من أهل القرية على القطاف: يجتمعنَ كلّ

يوم في بيت، وعلى ربّة ذلك البيت أن تُقدّم لهنّ المشمش والحلاوة. وعمليّة تربية القزّ تسمّى «الشَيْل»، فيقولون: فلان «شال» كذا علبة بزر قزّ. ويذكر أنّ المتأخّر من ورق التوت، ويسمّى «التشارين»، تسمّن به الخراف «المعلوفة» في موسم الخريف.)

ومع ارتفاع شأن بحمدون في ذلك الوقت ارتفع شأن سكّانها بحيث أصبح لهم موقع الصدارة بين نصارى الجرد وما يحاذيه من المتن. لكنّ الحياة في القرية، رغم تأثّرها آنذاك بتجارة الحرير، بقيت تقوم أساساً على الزراعة، وخصوصاً على الكرمة، إذ إنّ المدرّجات الزراعيّة لخراج بحمدون، من أعلى جبل الرصيّف نزولاً إلى وادي نهر الغابون، كادت تكون جميعها كروم عنب. ومن عنبها المفتخر «الزّيني» و«القاصُوفي» و«العاصمي» و«البيّاضي» و«المعبوري» و«خدود الست»، وغيرها من الأصناف التي كانت تؤكل في موسمها، وتصدّر إلى بيروت لهذه الغاية. ومنه «المِقْساسي» الصغير الحبّ والشديد الحلاوة الذي كان يصنع منه الزبيب والدبس: الزبيب للنقل والضيافة، والدبس للتحلية بدلاً من السكّر المستورد والغالي الثمن. (كان السكّر حتى العقد الثاني من القرن العشرين يباع موضّباً في قوالب كبيرة مغلّفة بالورق الأزرق، على شكل القمع، فيقطع من القالب قدر الحاجة ويطحن في هاون للاستعمال. وأذكر أن أمّي كانت تحتفظ بقالب سكّر من هذا النوع للذكرى.)

وكان بين أهالي بحمدون من أثرى خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر. ومن هؤلاء خالد ثابت الذي كان مدبّراً لمعمل بورتاليس في بتاتر، على ما سمعت، ممّا سهّل له العمل، ولا شكّ،

في تجارة الحرير. وما إن أصبح المذكور صاحب ثروة حتى بنى لنفسه داراً جميلة في متّسع من الأرض عند مدخل بحمدون، في المحلّة المعروفة بالبيادر، جاعلاً لهذه الدار واجهة زجاجيّة كانت الأولى من نوعها في القرية. ومن أوائل أثرياء بحمدون أيضا إلياس صبرا، ولعلّه، هو أيضاً، جمع ثروته عن طريق تجارة الحرير أو تمويل إنتاجه. لكن يبدو أن الخوري عيسى متّى هو أوّل من اغتنى من أهالي بحمدون. وكان مصدر ثروته، على ما يروى، خدمة خاصة قدّمها للأمير بشير الشهابي الثاني (١٧٨٨–١٨٤٠) فأحسن الأمير مكافأته عليها.

كان الأمير بشير يتسلّم الولاية على المناطق الجنوبيّة من جبل لبنان، سنة بسنة، من والي صيدا العثماني، وهو المقيم منذ عام ١٧٧٥ في عكّا. وكان للأمير، حتى عام ١٨١١، أقرباء ينافسونه على تسلّم صكّ الولاية من عكّا، فيعكّرون بذلك صفو عيشه. وحدث ذات مرّة أن منافساً للأمير كاد يسبقه في الحصول على هذا الصكّ، فتوجّه الخوري عيسى متّى بأقصى سرعة إلى عكّا، على ما يقال، وفي جبّته الكهنوتيّة ما يبعد عنه الشبهات. وما لبث أن عاد من هناك والصكّ المطلوب مخفيّ في نعل حذائه. وكان في تحرّك الكاهن ما أثار الشكوك بأمره لدى الفريق المعادي لبشير. وجاء من حاول التصدّي له عند معبر نهر الزهراني، قرب بلدة الغازيّة، لانتزاع صكّ الولاية منه، فاضطرّ الخوري عيسى إلى الاختباء ليلة كاملة بين الغزّار إلى جانب النهر، حتى تمكّن من الاستمرار في رحلة العودة في اليوم التالي، وتسليم الوثيقة الغالية إلى صاحبها.

ومهما كان قرب هذه القصة إلى الحقيقة التاريخيّة، فالواقع أنّ الأمير بشير أطلق لقب «الشيخ» على الخوري عيسى متّى في وقت من الأوقات، اعترافاً له بجميل، ووهبه في الوقت ذاته مزرعة تسمّى «عين الجديدة»، على مرتفع من الأرض مواجه لبحمدون. وبقي لقب «الشيخ» يطلق بعد ذلك على فرع بيت عيسى من عشيرة بيت متّى. ومع الوقت انتقل بعض أهالي بحمدون إلى عين الجديدة ليستقرّوا فيها، ويتولّوا زراعة أرضها شراكة مع أصحابها من مشايخ بيت عيسى. وبعضهم تملّك هناك، فأصبحت عين الجديدة امتداداً لبحمدون.

هذه القصّة هي أقدم ما يروى عن تاريخ بحمدون. يأتي بعدها ذكر لتوقّف إبراهيم باشا المصري في «خان بو دخّان»، أعلى عين الجديدة، وهو في طريقه من بيروت إلى دمشق في بداية احتلاله لبلاد الشام (١٨٣٢–١٨٤٠). ولعلّ الخان المذكور كان في الأصل محطّة لاستبدال الخيل على طريق البريد بين بيروت ودمشق. ويروى أن وجهاء بحمدون ذهبوا للقائه في ذلك المكان، فأحسن استقبالهم. وعادوا يصفونه بأنّه أشقر اللون، أزرق العينين، يبدو وكأنّه من جنس الإفرنج، لولا عمامته وهندامه.

(في ذلك الزمن بدأ المرسلون الأميركيّون البروتستانت يتردّدون على بحمدون للتبشير، فوجدوا سكّانها في حال أفضل ممّا كان عليه أهالي جبل لبنان في أماكن أخرى، ونسبوا ذلك إلى ما كانت تنعم به القرية من البحبوحة. وممّا لاحظه هؤلاء المرسلون أن رجال بحمدون كانوا على وجه العموم رياضيّي البنية، أقوياء الأجسام، وأن القرية تعجّ بأولاد تنضح وجوههم صحّة وعافية، ولا ينقصهم غذاء أو ملبس.)

لم أسمع بدور اضطلعت به بحمدون في الأحداث التي ألمّت بجبل لبنان بعد عام ١٨٤٠، وانتهت بمجازر عام ١٨٦٠. (جلّ ما سمعت في هذا الشأن يتعلّق بواقعة قرنايل عام ١٨٤٥، إذ اشترك بعض أبناء المزارع المحيطة ببحمدون مع نصارى المتن في قتال الدروز هناك.) وفي عام ١٨٦٠ وفّر آل عبد الملك، مشايخ بتاتر الدروز، حماية كاملة لنصارى بحمدون وسائر مقاطعة الجرد، فلم يصب أحد منهم بأذى. (هذا ما حدث أيضاً في مقاطعة الغرب، حيث قام مشايخ آل تلحوق في عاليْه وعَيْتات بحماية النصارى حيثما وجدوا في مقاطعتهم.)

ويقال إن الشيخ خطّار العماد، كبير مشايخ الباروك، وصل برجاله ذات يوم إلى مشارف بحمدون، وفي نيّته اقتحام القرية ثأراً لابنٍ وحيد له قتل في واقعة سابقة مع النصارى. وكان في بحمدون آنذاك مرسل أميركي اسمه وليم بنتن (William Benton)، فخرج لملاقاة الشيخ خطّار. وعندما تلاقى الاثنان، أشار بنتن إلى نسخة من الكتاب المقدّس كانت بيده قائلاً: «هنا يقول لا تقتل.» فوقف الشيخ خطّار هنيهة يتأمل في المرسل الأميركي بصمت، ثمّ انصرف.

(قدم وليم بنتن إلى بحمدون مبشّراً بالمذهب البروتستانتي عام ١٨٥٧، فبقي مستقرّاً في القرية مع زوجته لوانزا حتى عودتهما إلى الولايات المتّحدة مع أولادهما عام ١٨٦٩. وكان للوانزا بنتن إلمام بالطبّ، فجعلت من بيتها عيادة يتردّد عليها المرضى من أهالي القرية وجوارها. ومن البحمدونيّين الذين تأثّروا بتبشير وليم بنتن، وزوجته لوانزا، إلياس صبرا وخالد ثابت: قدّم

الأوّل قطعة أرض في محلّة البيادر لبناء كنيسة بروتستانتيّة في القرية، وتبرّع الثاني بتكاليف البناء الذي تمّ تشييده عام ١٨٦٦. وكان النقض الذي قام عليه سقف الكنيسة يتكوّن من جذوع باسقة من شجر الصنوبر تطوّع فريق من شباب بحمدون لجلبها من غابات أرصون بالمتن حملاً على الأكتاف بالمناوبة. هذا ما سمعته من أبي نقلاً عن جدّي. وفي عام ١٩٢٠ تبرّع أولاد وليم بنتن – وجميعهم من مواليد بحمدون – بما يلزم لإنشاء مدرسة تحمل اسمه في القرية، إحياءً لذكره. وبقيت هذه المدرسة قائمة حتى عام ١٩٤٨.)

وما إن انتهت أحداث عام ١٨٦٠، وقام نظام المتصرّفيّة في جبل لبنان، حتى تأسّست شركة فرنسيّة للديليجانس (diligence)، تنقل الركّاب بعربات الخيل في رحلات منتظمة بين بيروت ودمشق، وتتوقّف في محطّات معيّنة على الطريق، ومنها محطّة بحمدون، على بعد كيلومترين من القرية. وبقي السفر المنتظم بين بيروت ودمشق محصوراً بالديليجانس حتى أواخر القرن التاسع عشر حينما اكتمل إنشاء السكّة الحديديّة بين المدينتين. عندئذٍ أصبح السفر بينهما ممكناً بالقطار، ومن محطّاته – كما من محطّات الديليجانس – محطة بحمدون.

كان غليوم الثاني، إمبراطور ألمانيا، من أوائل الذين سافروا بالقطار من بيروت إلى دمشق خلال الزيارة التي قام بها إلى بلاد الشام عام ١٨٩٨ تلبيةً لدعوة وجّهها إليه السلطان عبد الحميد الثاني، فاستغلّ زيارته للدعاية السياسيّة، ولإظهار نفسه وكأنّه الصديق الأكبر للدولة العثمانيّة – بل ولعموم العالم الإسلامي – في أوروبّا.

وكـان بـرنـامـج سفـر غـليوم إلى دمشق يفترض توقّفه في بـحمدون، فتـوجّه أعيـان القريـة لاستقبـال الضيف الكبير في المحطّة، وفوجئوا هناك بوفد كبير من نصارى المتن ينتظرون وصوله، هم أيضاً، ومع هذا الوفد عريضة تطالب الإمبراطور بمزيد من الاهتمام بشأن نصارى جبل لبنان. فلم تُعجب العريضة البحمدونيّين، إذ وجدوها مذلّة. ومما زاد في استيائهم جواب الإمبراطور غليوم عليها حين قُدّمت إليه فور وصوله. كان بين حاشيته من ترجم له مضمون العريضة، فقطّب حاجبيه وسأل عن عدد النصارى في البلاد. وحين أخبروه بأنّهم لا يقلّون عن ثلاثمائة ألف نسمة، أجاب بكلام فهم منه أن هؤلاء النصارى يعيشون في جزء من العالم يقطنه ثلاثمائة مليون مسلم، فإذا كان لا يعجبهم وضعهم فيه، فما عليهم إلاّ أن يتحوّلوا إلى الإسلام. وممّا سمعت أنّ البحمدونيّين رجعوا أدراجهم في ذلك اليوم وهم يقولون: «لا طلعت حلوة منهم ولا منّه.»

كان الإمبراطور غليوم بدأ رحلته الشاميّة من فلسطين، وهناك قام بزيارة للقدس حيث نظّم له معهد شنلّر (وهو المعهد الألماني للبنات) استقبالاً حافلاً شاركت فيه طالبات من بحمدون (رنّمن له من نبوءات زكريّا: «ابتهجي يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هُوَذا مَلِكُكِ يأتي إليكِ»). ومن أولئك صبيّة اسمها نسطاس حدادّ، التحقت بعد تخرّجها بالرهبنة البروتستانتيّة اللوثريّة التي كانت تتولّى إدارة معهد شنلّر، فصارت تعرف بالأخت نسطاس Schwester Nastas، وعادت إلى بحمدون بزيّ الراهبات اللوثريّات (ثوب أزرق يصل إلى الأرض، وقبّعة بيضاء منشّاة). ودرجت تسميتها في القرية «الراهبة».

ونظرا لوجود أعداد كبيرة من الألمان في مختلف مناطق الشام آنذاك بسبب العلاقات المتميّزة بين الدولة العثمانيّة وألمانيا، قامت الراهبة نسطاس بتشييد خمسة أبنية على مرتفع من بحمدون يطلّ على القرية، جاعلة منها نُزُلاً يدار على الطريقة الألمانيّة، ويستقبل النزلاء الألمان وغيرهم من الأجانب. وسمّت هذا النزل «بنسيون الأخت نسطاس» (Penzion Schwester Nastas، وفي المصطلح البحمدوني «بنسيون الراهبة»). ولم تغفل الراهبة أهمّية الدعاية لمشروعها، فعملت بطاقات بريد، رأيتها بنفسي، تحمل صورة فوتوغرافيّة للبنسيون، والراهبة وأعوانها في الحقل المجاور يغرسون نصباً من الكرمة.

وخلال الحرب العالميّة الأولى، جعل القائد الألماني ليمان باشا Liman von Sanders مقرّه الصيفي في بنسيون الراهبة. وكذلك فعل الحاكم العسكري للولايات السوريّة جمال باشا. وصودر بيت بجوار البنسيون، وجعل مركزاً للنقاهة (بالتركيّة «نقاهت خانه») للضبّاط الألمان والعثمانيّين. وعندما قضت ظروف الحرب أن يجتمع البطريرك الماروني إلياس الحوّيك بجمال باشا لترتيب أمور كرسيّه مع الدولة العثمانيّة، اضطرّ البطريرك للمجيء إلى بحمدون. وتمّ اللقاء بينه وبين جمال باشا في دار إلياس ثابت الماروني الأصل والبروتستانتي المذهب، لكونه ابن خالد ثابت الذي مرّ ذكره.

كان إلياس ثابت متزوّجاً من هَدا بنت أسعد عبدالله الصليبي من بطلّون، وهي خالة جدّتي سارة. فنظّمت جدّتي (مع ولديها، أمّي وخالي كمال) جوقة من بنات وأبناء الطائفة البروتستانتيّة في بحمدون وجوارها لاستقبال الحاكم العثماني والبطريرك

الماروني بثلاثة أناشيد: الأوّل، السلام السلطاني الرسمي (بالتركيّة: «بادِشاهِم جوق يَشا»). والثاني، Turquie Aimée، أي «تركيّا الحبيبة»، وهو نشيد باللغة الفرنسيّة كان لحّنه حديثاً شاب بروتستانتي يدعى وديع صبرا، بحمدوني الأصل، من مزرعة عين الجديدة، ومن خرّيجي المعهد الوطني للموسيقى في باريس. والثالث، نشيد بالعربيّة مطلعه:

إنّ أمّي علّمتني حبّ سلطان الجلالْ
وبيدي سلّمتني علماً يدعى الهلالْ

في ذلك الوقت كانت بحمدون اتّخذت الشكل الذي حافظت عليه، بجديده وقديمه، حتى أوّل عهدي بها في بداية الثلاثينيات. الجديد يتمثّل بالبيوت القائمة منذ أواخر القرن التاسع عشر عند مداخل القرية وعلى مشارفها، ومنها تلك المسقوفة بالقرميد الأحمر. والقديم يتمثّل بالمباني القائمة على جانبي الطريق العام الذي هو «السوق»، وتلك التي إلى أسفل السوق في ما يسمّى «كعب الضيعة».

هذه المباني القديمة في بحمدون معظمها مستطيل الشكل (ما يسمّى «الصايِح» في بعض قُرى المتن): المبنى الواحد يشتمل على مسكنين أو ثلاثة أو أكثر، كلّ مسكن يشترك في جدار مع الذي يليه. وبيوت الخلاء خارج المساكن، وعموماً على بعد منها، يُحمل الماء إليها من البيوت حملاً. والسطوح جميعها من تراب، تُحدل بالمحادل الحجريّة كلّما جاء المطر لكي يبقى ترابها متماسكاً. فإذا لم تُحدل كفاية نبت عليها العشب، وزهر الأقحوان

والبابونج في الربيع. وعلى سطح كلّ بيت من المبنى محدلة لا تفارقه، فيُعرف عدد المساكن في المبنى من عدد المحادل التي على سطحه.

«كعب الضيعة» في بحمدون يتألّف من حيّين: حيّ إلى الشرق للموارنة، وحيّ إلى الغرب للروم الأرثوذكس يقوم حول الفسحة المسمّاة «ساحة الضيعة». ويفصل حيّ الروم عن حيّ الموارنة زقاق ترابي ينفذ إلى السوق تجاه حوض يسمّى «العين»، جُرّت إليه مياه نبع صغير خارج القرية يسمّى عين المرج. ونساء «كعب الضيعة» – حيث لا مياه جارية – يأتين إلى ذلك الحوض، والجرار على أكتافهنّ أو رؤوسهنّ، فيملأنها هناك، ويعدنَ بها إلى بيوتهنّ، ومن هذه بيوت قديمة ينبت بين أحجار جدرانها زهر المنثور البنّي والأصفر و«تمّ السمكة» المتعدّد الألوان.

معاملات الحسبة في القرية تجري عند العين، التي تمثّل وسط السوق. وعلى مقربة من هناك فسحة من الأرض يأتي إليها أهالي القرى والمزارع المجاورة مشياً على الأقدام، أو ركوباً على الحمير، لبيع محاصيلهم من الخضار والفاكهة صيفاً، والحليب والبيض على مدار السنة. وفي الساحة نفسها، في أشهر الخريف، تحطّ قوافل الجمال الآتية من البقاع وحوران وبلاد حمص وحماة وغيرها من المناطق الزراعيّة والرعويّة في الداخل الشامي، فيتجمّع الناس حولها للتموّن من حمولاتها. ومن ذلك السمن الحموي الذي كان آنذاك من ضروريّات الحياة. يأتي به رجل اسمه علي، من البدو الحديديّة ببادية حماة، فيحلّ ضيفاً علينا: أنا وأخي منير نأنس لقدومه، وأمّي تتأفّف من كثرة طلباته. (كان السمن بعد شرائه

«يفقّس»، أي يعاد غليه قليلاً على النار لتنقيته، ثمّ يخزّن في أوعية من الخزف تسمّى «البراني»، والمفرد «بُرنيّة».)

ومن الذين كانوا يأتون القرية أيضاً، من الحين للآخر، «الحكيم المُغْرَبي»: يأتيها راكباً على بغل ومرتدياً «البُرْنُس» المَغربي، وعلى رأسه العمامة، ويطوف بأحيائها وهو ينادي بصوت عميق: «طبيب طبيب، دَوا دَوا.»

بحمدون ما زالت إلى حدّ كبير عالماً قائماً بذاته، خصوصاً في فصل الشتاء. في الصيف يأتيها المصطافون من بيروت، ويستأجرون بيوتاً من أهاليها، فينتقل أصحاب هذه البيوت للسكن في أقبيتها، أو في خيم من أغصان الشجر ينصبونها على السطوح أو في الحقول، إلى أن يعودوا إلى بيوتهم عند حلول الخريف. ويأتي القرية في الصيف، أيضاً، أناس من بلدان أخرى، وخصوصاً من مدن الداخل الشامي ومصر والعراق، فينزل هؤلاء – وكذلك بعض المصطافين البيروتيّين – في فنادق بدأت تنشأ في بحمدون ومحيطها بعد الحرب العالميّة الأولى، ولا تستقبل النزلاء إلاّ في الصيف: منها فندق «نبع الشقيف» على بعد كيلومترين إلى الغرب من القرية، وفندق «المنظر الجميل» المطلّ على مدخلها الشرقي، و«بنسيون مصر»، و«بنسيون سوريّا» على طريق محطّة بحمدون التي هي نواة «بحمدون البلدة» (وفي عرفنا «بحمدون المحطّة»، تمييزاً لها عن «بحمدون القرية» التي نسمّيها نحن «بحمدون الضيعة»، والتي هي بحمدون الأساسيّة التي أتكلّم عنها).

خلال الصيف، تظهر عربات الخيل في سوق بحمدون لخدمة المصطافين، إضافة إلى سيّارتين أو ثلاث. لكنّ وسائل النقل هذه تكاد تختفي بعد مغادرة آخر المصطافين للقرية، فيعود التنقّل

فيها مشياً على الأقدام، سواء داخل القرية، أو بينها وبين القرى والمزارع التي حولها. لا يستأجر سيّارة إلاّ القليل من الذين لهم شغل في بيروت، أو في أماكن أخرى بعيدة.

تقتصر نافذة بحمدون إلى الخارج على البريد. والجرائد الصادرة في بيروت تصل إلى القرية – وإلى القلّة الضئيلة من المشتركين فقط – بالبريد، فلا تُقرأ إلاّ بعد يومين أو ثلاثة من تاريخ صدورها. وكثيراً ما كان وصولها يتأخّر أكثر، فيستلم المشتركون في الجريدة أعداداً متتالية منها في اليوم الواحد.

تضاء منازل بحمدون ليلاً، ومنذ ستّينيات القرن التاسع عشر، بقناديل الكاز. (هذه حلّت آنذاك مكان السُرج الزيتيّة التي هي من عمر التاريخ، ومشاعل «اللِقش» التي هي قطع من حطب الصنوبر، تشتعل تدريجاً من الرأس إلى الأسفل، مثل الشموع.) التدفئة والطبخ في فصل الشتاء يعتمدان على مواقد الحطب: الممتاز من هذه المواقد مستورد من أوروبّا أو من أميركا ويسمّى «شغل البلاد»، بالإشارة إلى بلاد الغرب الصناعيّة، والعادي (وهو الأكثر شيوعاً) يصنعه الحدّادون في سوق القرية. وعندما يتوقّف استعمال المواقد للتدفئة في الربيع، يستعاض عنها للطبخ بما يسمّى «الطبّاخ»، وهو من صنع البيوت: تصنعه ربّة البيت من طين «الحوّارة» الأزرق الممزوج ببراز الحمير المسمّى «الفِشْك»، ويوقد فيه الفحم الحطبي (وأفضله فحم السنديان). ويكون الطبخ على «الطبّاخ» عموماً على شرفة المنزل أو خارجه.

أهالي بحمدون على وجه العموم مقتصدون في عيشهم وكذلك في كلامهم، يجيدون المجاملة في تعاطيهم مع الناس دون الإفراط

في استعمالها. ولا يتدخّل الواحد منهم في شؤون غيره، بل يكتم سرّه ويحترم أسرار الآخرين، فلا يبدو منه فضول. وللقرية حرمة معترف بها في الجوار يتشدّد الأهالي في المحافظة عليها، فيتحاشون في تصرّفاتهم كلّ ما يمكن أن ينال من هذه الحرمة. فهم، مثلاً، يتحاشون التمادي في المزاح وغيره من ضروب «تقليل الهيبة»، حسب تعبيرهم. وإذا ذهبوا إلى مأتم خارج القرية حملوا معهم زادهم لئلاّ يقال إنهم فرضوا أنفسهم ضيوفاً على أحد.

لبحمدون لهجة خاصّة تُعرف بها. وللنساء في القرية لهجة تختلف بعض الشيء عن لهجة الرجال. معظم البحمدونيّين ما زال يعقد القاف في كلامه، مثله مثل سائر سكّان المنطقة. لكنْ هناك ما يشير إلى أن هذا اللفظ الفصيح للقاف في طريقه إلى الزوال، شأنه شأن ما تبقّى من اللباس العربي التقليدي في القرية. فالقليلون جدّاً من الرجال ما زالوا يرتدون القمباز و«المداس» و«اللبّادة». لكنّ الرجال – دون الشبّان – ما زالوا يعتمرون الطربوش. والنساء – دون الصبايا – ما زلنَ يرتدينَ الأثواب الطويلة، ويغطّين رؤوسهنّ بمناديل تتدلّى من أطرافها «الأُويا» من المخرّمات، أو الخرز، أو الأصداف، أو القطع النقديّة الذهبيّة الصغيرة المسمّاة «البراغيث».

وللبحمدونيّين تقاليد موروثة يتمسّكون بها. يقال، مثلاً، إنّهم يقرّون لآل ثابت الموارنة بأقدميّتهم في القرية، رغم أنّهم يشكّلون أقليّة فيها، فيعطونهم حقّ الأولويّة في استخدام أقدم معاصر القرية في موسم الدبس. وموقع هذه المعصرة في متّسع من الأرض الصخريّة يشرف على المدخل الشرقي لبحمدون.

(كان موسم الدبس، وبدايته في أواخر أيلول، من أهمّ المواسم في بحمدون. يستفيق الناس قبل الفجر لقطاف العنب «المِقْساسي» الشديد الحلاوة من الكروم، ثمّ يُحمل القطاف إلى المعاصر على الطرف أو الآخر من القرية. يوضع أوّلاً في الأرصفة الحجريّة بأعلى المعصرة مع دقيق من طين «الحوّارة» الجاف الضروري لتصفية عصيره، ويقوم الرجال هناك بدوسه بالأقدام الحافية. ومن الرجال من كان يتفنّن في «الدَوس». ويسيل عصير العنب من الأرصفة إلى أجران حجريّة، يُنقل منها بالدلو – أو يسيل نزولاً – إلى «الخلاقين»، أي القدور النحاسيّة الكبيرة، حيث يسلق أولاً لتصفيته من الرواسب، ثمّ يطبخ: يوقد تحت الخلاقين شوك «البلاّن» الذي يشتعل بسرعة، وتُطفأ ناره بسرعة، بحيث لا يُطبخ العصير أكثر من القدر المطلوب. والمسؤول عن عمليّة الطبخ وحراسة المعصرة يسمّى «البرّاك». ثمّ يؤخذ الدبس إلى البيوت، وهو بعدُ سائل، ولونه بنّي قاتم، فيوضع في براميل خشبيّة، ويضرب الليلة بعد الليلة بعصي خشبيّة إلى أن يشتدّ ويصبح لونه ذهبيّاً: يتناوب شبّان وصبايا العائلة على ضربه في السهرات، فتكون تلك مناسبات للسمر. وكان آخر عهد بحمدون بصناعة الدبس، على ما أذكر، في بداية الخمسينيّات.)

الموارنة وحدهم لهم مقبرة حديثة العهد، على الطرف الشرقي من القرية. أمّا سائر الأهالي فيدفنون موتاهم عموماً في الحقول، دون أن ينصبوا على القبور شواهد. (كان الميت في السابق يُحمل إلى قبره على محمل من الخشب، ويُدفن في كفنه. ثمّ حلّ التابوت محلّ المحمل أوّلاً، ثمّ محلّ المحمل والكفن عندما درجت العادة أن يدفن الميت في أفضل ثيابه، كما في الغرب.) ومن المسنّين في

بحمدون من كان يحمل كفنه معه وهو على سفر تحسّباً لوفاة مفاجئة، وهو بعيد عن أهله.

هذا، على ما أذكر، هو العالم البحمدوني الصغير الذي استفقت على وجوده في أوائل الثلاثينيات من القرن: عالم هادئ وأمين، يخرج الناس من منازلهم تاركين أبوابها مفتوحة، والمفاتيح فيها، فلا يدخل أحد منزلاً في غياب أصحابه. والأولاد يسرحون في محيط القرية، وفي الحقول البعيدة عنها، ولا يتعرّض لهم أحد بأذيّة.

ثمّ بدأ هذا العالم الصغير يتغيّر. أوّل ما أذكر من ذلك هو وصول الكهرباء إلى بحمدون عام ١٩٣٦. (فرحت حينئذٍ بالكهرباء، وحزنت في الوقت ذاته على فراق قنديل الكاز.) وبعد الكهرباء جاء التلفون، ثمّ الراديو: التلفون في مركز البريد، وفي دكّان حبيب الهبر لبيع الأقمشة، عند مدخل السوق، والراديو في بنسيون الراهبة، وفي بيت إسكندر نمر خيرالله صاحب شركة الكهرباء. وكانت معرفتي بالراديو في صيف ١٩٣٧. كنت برفقة أبي، وهو يقوم بزيارة صديق له من بيروت يصطاف في بحمدون ببيت أمين سعد جبرايل، من آل أبو خالد، وقد جلب معه من بيروت راديو بحجم الخزانة تقريباً، فأدار الآلة ليسمعنا خدمة صلاة من كاتدرائيّة وستمنستر Westminster Abbey بلندن. ولو لم يؤكّد لي أبي أن الأصوات التي نسمعها تأتي فعلاً من لندن عن طريق الأثير لما صدّقت.

كان التصوير الفوتوغرافي – وهو القديم العهد في بلادنا – مألوفاً لديّ: المصوّر الأرمني جورج يقوم بزيارة بحمدون عدّة

مـرّات في السنـة، حـامـلاً آلتـه، فتطلب مـنـه أمّـي تصـويرنـا. وكـان «الفانوس السحري»، أيضاً، معروفاً في القرية: توضع داخله صور فوتوغرافيّة أو من رسم اليد على قطع من زجاج، ووراءها قنديل، فـتـعـرض عـلـى شـاشـة، أو عـلـى حـائـط أبـيض. وكـان في بـيـتـنـا فونوغراف فخم من صناعة شركة ألمانيّة اسمها Vox. ومع هذا الفونوغراف بضع إسطوانات من الموسيقى الغربيّة تحمل شعار الشركة ذاتها، وإسطوانات أخرى مصريّة من «إسطوانات بَيْضافُون»: واحدة تحمل عنوان «رقص الهوانم»، وثانية لأم كلثوم تغنّي «ذكرى سعد» (في رثاء سعد زغلول)، وثالثة للسلام الملكي المصري، ورابعة لـ «نشيد مدرسة البوليس» بمصر، بالإضافة إلى بضعة إسطوانات لعازف الكمان سامي الشوّا.

لكنّي دهشت عندما أخبرت بأن هناك شيئاً يسمّى السينما، يُظهر الصور الفوتوغرافيّة متحرّكة على شاشة شبيهة بتلك التي للفانوس السحري. وقد تطوّرت آلات التصوير السينمائيّة منذ اختراعها حتى صارت تسجّل الصوت مع الصورة المتحرّكة في آن معاً، وكأنّها آلة تصوير وتسجيل فونوغرافي في وقت واحد. وفي صيف ١٩٣٨ تعرّفت على السينما، أخيراً، عندما أخذتنا أمّي إلى «كازينو عبدالله» ببحمدون المحطّة لمشاهدة أوّل فيلمين سينمائيّين يعرضان هناك: فيلم مصري ربّما لليلى مراد، وهي تغنّي «يا حبيبي تعال الحقني»، وفيلم أميركي من تمثيل النجمة الطفلة شيرلي تمبل (Shirley Temple).

(أخبرني أبي بعد أن شاهدت الراديو لأوّل مرّة أنّ «الفرنج القرود» ينوون اختراع آلة تسمّى التلفزيون، تنقل الصور المتحرّكة مع الصوت عبر الأثير، غير أنّ هذا الاختراع ما زال قيد التجربة.)

في ذلك الوقت بدأ فندق «المنظر الجميل» يجذب الزبائن من أبناء وبنات الطبقة المتفرنجة في بيروت، فيلعب هؤلاء التنس على الملعب التابع للفندق في النهار ويصيحون بالفرنسيّة « أُو لا لا» إذا لم يصيبوا الطابة، ويرقصون في المساء في القاعة الكبرى من الفندق على أنغام «التانغو» و«الفوكس تروت» و«الرومبا» و«الفالس». والأنغام هذه تصدر من الراديو الجديد الموجود في الفندق، أو من الفونوغراف الكهربائي التابع لهذا الراديو، فتُسمع من بعيد. ومثل هذه الأنغام لم يكن بعد مألوفاً في القرية.

وفي الوقت ذاته بدأ بعض أهالي بيروت من الذين اعتادوا الاصطياف في بحمدون (وأوّلهم من آل الفاخوري وآل اللبّان) يتملّكون أراضيَ في أطرافها، ويشيّدون مبانيَ من طبقتين أو ثلاث عليها. فأخذت هذه المباني الحديثة الطراز تغيّر شيئاً فشيئاً في طابع القرية. لكنْ، رغم ذلك، بقيت بحمدون، إلى حين، محافظة على أصالتها. ينتهي الصيف، فيغادرها المصطافون ولا يبقى فيها إلاّ أهاليها، ناهجين في حياتهم نمطاً لا يختلف كثيراً عن نمط آبائهم وأجدادهم.

٣

بداية بروتستانتيّة

في صيف ١٩٣٠ التأم المَجمع الإنجيلي الوطني لسوريّا ولبنان، الممثّل للكنائس البروتستانتيّة بالبلدين، في كنيسة بحمدون، ودعا أبي أعضاء المَجمع – وهم كبار قساوسة الطائفة – لتناول طعام الغداء في بيتنا. وكانت الأرض الواسعة حول البيت مجهزّة بملعب للتنس، وآخر للكروكيه، وبالأراجيح على أنواعها، بالإضافة إلى الدرّاجات التي لم تكن مألوفة كثيراً في البلاد بعد، فطاب ذلك لقساوسة المَجمع، وأخذوا يلهون بعد الأكل – هذا يتأرجح، وذاك يحاول ركوب الدرّاجة، وآخرون يلعبون الكروكيه – حتى حان الوقت للشاي. وعند ذلك اقترح أحدهم بأن تُستغلّ المناسبة لمعموديّتي، فتمّت هذه المعموديّة ببركة المَجمع الإنجيلي الوطني بكامل أعضائه.

وفي العام التالي التأم المَجمع مجدّداً في كنيسة بحمدون ليقوم قساوسته بالمراسم اللازمة لتثبيت أبي شيخاً (أي قيّماً

علمانيّاً) عليها. (علماً بأن كنيستنا كانت تأسّست أصلاً على النمط المسمّى الجمهوري Congregationalist، حيث كلّ كنيسة تبقى مستقلّة عن الأخرى، لا تخضع لأيّ سلطة عليا، إلى أن تأسّس المَجمع الإنجيلي للكنائس المشيخيّة Presbyterian في سوريّا ولبنان، فالتحقت به، وصار شيوخها المنتخبون محلّياً يثبّتون في منصبهم من قبل قساوسة المَجمع عن طريق السيامة، أي وضع الأيدي على الرأس في احتفال خاص. وقد بطل هذا التقليد منذ ذلك الوقت، فبقيت السيامة فقط للقساوسة عند رسامتهم.)

كان أبي آنذاك على خصام مع أكبر البروتستانتيين سنّاً في القرية، وهو رجل ثريّ، صعب العريكة، تجمعه بأعضاء المَجمع رابطة الأخوّة الماسونية. (كان أبي يرى في سرّية الماسونيّة ما يتناقض مع علنيّة الإنجيل.) فما إن بدأ الاحتفال في الكنيسة حتى أعلن رئيس المَجمع من على المنبر أن على أبي أن يذهب إلى بيت خصمه ويقوم بمصالحته، ثمّ يعود إلى الكنيسة بمعيّته حتى يتمّ تثبيته. ولم يكن أعضاء المَجمع قد فاتحوا أبي بمثل هذا الموضوع من قبل. فاعتلى المنبر، وأنزل رئيس المَجمع عنه واصفاً إيّاه بالمنافق، ثمّ قام بطرد جميع القساوسة من الكنيسة مردّداً وراءهم كلام السيّد المسيح حينما أخرج الباعة والصيارفة من الهيكل قائلاً لهم: «هذا بيت أبي وقد جعلتموه مغارة لصوص».

وهكذا استفقت على الوجود والعلاقات مقطوعة – أو في الأقلّ شبه مقطوعة – بين كنيستنا وسائر الكنائس البروتستانتيّة في البلاد.

كان ذلك في خريف عام ١٩٣١، والاستعدادات قائمة في البيت لاستقبال مولود جديد. أمّي تجهّز له ما يلزم من الألبسة، وأبي يحضّر له السرير الهزّاز، والجميع يبحثون عن أسماء ذكور وإناث مناسبة للطفل المنتظر. وكنّا انتقلنا قبل ذلك الوقت بقليل من بيتنا المنفرد والمعرّض للعواصف بأعلى القرية لنقضي فصل الشتاء في بيت عمّتي وديعة الدافىء والقريب من السوق. وفي صباح ذات يوم خرجت عمّتي من الغرفة حيث كانت أمّي تلد، وهي تعلن بصوت جهوريّ: «الصبيّ ابني لأنّه ولد في بيتي، وسأسمّيه منير لأنّه أنار بيتي.»

كانت عمّتي وديعة اقترنت بالدكتور سليمان صالح الصليبي عام ١٩١٤. ثمّ اندلعت الحرب العظمى، والتحق زوجها بالجيش العثماني، وقُتل في حلب قبل نهاية الحرب بأيّام، فترمّلت وهي بعد في السابعة والعشرين من عمرها، ولها ثلاث بنات –وداد وسلوى وألِس. وعندما قامت الجمهورية التركيّة على أنقاض الدولة العثمانيّة بعد الحرب، خُصّص لها مرتّب تعويض تقبضه شهريّاً من القنصليّة التركيّة في بيروت. لكنّ هذا المرتّب لم يكن كافياً لها ولبناتها، فاضطرّت – وهي خرّيجة «مدرسة الإنكليز» British Syrian Training College ببيروت – إلى العمل في التعليم مع حماتها راحيل حدّاد المعروفة بالستّ أمّ سليمان.

كانت أمّ سليمان امرأة قديرة، تحوّلت في صباها إلى المذهب البروتستانتي بتأثير من المرسل الأميركي وليم بنتن وزوجته لوانزا، وتخرّجت من «مدرسة الإنكليز» بتفوّق، فحصلت على منحة للتخصّص بإنكلترا في تعليم صفوف الروضة Kindergarten Methods، ثمّ رجعت

إلى بحمدون لتمارس التعليم. وبقيت علاقة الصداقة قائمة بينها وبين آل بنتن بعد عودة هؤلاء إلى الولايات المتّحدة، هي تكاتبهم وهم يكاتبونها، حتى اندلعت الحرب العظمى، وانقطعت سبل المراسلة بينها وبينهم. وعندما انتهت الحرب عادت أمّ سليمان تكاتب صديقتيها ماري وهاتي، ابنتي وليم بنتن، مقترحة عليهما تمويل مدرسة بروتستانتيّة ابتدائيّة في القرية، مختلطة للبنين والبنات، تخلّد ذكرى والديهما. وهكذا جرى عام ١٩٢٠ تأسيس مدرسة بنتن الأميركيّة American Benton School في بحمدون بإدارة أمّ سليمان. وصارت عمّتي وديعة تعلّم معها في هذه المدرسة. وعندما شاخت أمّ سليمان تسلّمت عمّتي إدارة المدرسة مكانها.

لم يكن لهذه المدرسة مبنى خاص ولا موقع ثابت، بل كانت تنتقل من مكان إلى آخر حسب الظروف حتى خلال العام الدراسي الواحد. تقام أحياناً في الكنيسة، فإذا شغر بيت القسّيس انتقلت إليه. أو هي تقام في الأقبية من بيت عمّتي، ثمّ تنتقل إلى البيت نفسه عندما ننتقل، نحن وإيّاها وبناتها الثلاث، لقضاء فصل الصيف في بيتنا. وكانت الظروف تقضي أحياناً بأن يُستأجر مكان تقام فيه المدرسة، فتُستأجر الغرف الشرقية من بيت قريبتنا روزا ضاهر متّى – وهو غير بعيد عن بيت عمّتي – لهذه الغاية.

ولم تكن المدرسة تحتاج، في العادة، إلى أكثر من غرفتين، غرفة للصغار (من الصفّ الأوّل إلى الثالث)، وغرفة للكبار (من الصفّ الرابع إلى السادس). ويقتصر الأثاث في كلّ غرفة على لوح أسود ومقاعد خشبية يجلس عليها التلامذة جنباً إلى جنب،

مرتّبين حسب الصفّ، يضاف إلى ذلك، في فصل الشتاء، موقد تُشعل فيه الأحطاب التي يأتي بها التلامذة من بيوتهم، فلا يسمح للتلميذ أن يدخل الصفّ دون أن تكون في يده قطعة من الحطب، أو حفنةٍ من «الكنافش» (أي كروز الصنوبر الجافّة)، أو رزمة من «الجرَزون» (قضبان الكرمة الجافّة التي تستعمل عند بداية إشعال النار) وكانت كلّ غرفة مجهّزة بخريطة للعالم وبعض اللوحات اللازمة للتعليم: لوحة لأحرف الأبجديّة العربيّة، مثلاً، وأخرى لوصايا اللّه العشرة في غرفة الصغار، ولوحة تصوّر أجناس البشر الأربعة (الأبيض والأسود والأحمر والأصفر) في غرفة الكبار.

لم يكن الصغار بحاجة إلى ما يستندون إليه للكتابة، ولذلك لم تكن لمقاعدهم دروج عليها محابر، كما للكبار، إذ كانت أدوات الكتابة لديهم تقتصر على لوح الحجر الأسود وقلم الحجر الذي يكتب على هذا اللوح بالأبيض، وإسفنجة مبلولة لمحو ما يكتب. أمّا الكبار فكانوا يكتبون على الدفاتر بقلم الرصاص، أو ريش الحبر: ريشتان، عريضة ومتوسّطة، للكتابة بالعربيّة، وريشة واحدة دقيقة للكتابة بالفرنسيّة أو الإنكليزيّة.

كان الأسبوع المدرسي يبتدىء صباح الاثنين، وينتهي مساء الجمعة، إذ على البنات في المدرسة أن يساعدنَ أمهاتهنّ في ترتيب المنزل يوم السبت استعداداً ليوم الأحد الذي هو يوم الربّ. واليوم المدرسي يمتدّ من الثامنة صباحاً حتى الرابعة مساءً، تتخلّله ثلاث فرص للاستراحة أطولها فرصة الظهر، بين الثانية عشرة والواحدة.

يبدأ اليوم المدرسي بما يسمّى «التسميع»، الموضوع تلو الموضوع، والصفّ تلو الصفّ. «يُسمِّع» كلّ تلميذ بدوره ما كان حفظه من درس اليوم السابق، فيُشكر على «تسميعه» إذا كان جيّداً، ويؤنّب عليه إذا كان سيّئاً. يلي ذلك تعليم المواد الجديدة لليوم، الواحدة تلو الأخرى، إلى أن تنتهي ساعات الصباح. أمّا ساعات بعد الظهر، فتخصّص لدرس الحساب، ثمّ لمسابقات الإملاء، فالإنشاء، لصفوف الكبار. وتصحّح هذه المسابقات في الصفّ علناً حتى يستفيد كلّ تلميذ من أخطائه وأخطاء غيره. علماً بأن المدرسة لم تكن تعتمد الامتحانات الفصليّة أو السنويّة لتقييم أداء الطلاب بالعلامات والمعدّلات والدرجات، بل كانت المنافسة بين التلميذ والآخر تقتصر على التسابق في «التسميع» اليومي. ومن ذلك «الاستظهار»، حيث يتبارى التلامذة في «تسميع» ما حفظوه من شعر، مثل الأبيات المنسوبة إلى عنترة بن شدّاد التي مطلعها:

أنا في الحربِ العوانِ غَيرُ مجهولِ المكانِ
أينما نادى المنادي في دُجى النقعِ يراني

وكان اليوم الدراسي ينتهي مساءً بالكتاب المقدّس، ثمّ الترنيم، فالصلاة. الصغار يتعلّمون وصايا اللّه العشرة، أو يردّدون وراء عمّتي وديعة مزامير مناسبة لهم، كالمزمور الثامن: «أيّها الربّ سيّدنا ما أمجد اسمك في كلّ الأرض، حيث جعلت جلالك فوق السموات...»، ثمّ يرنّمون من الترانيم الخاصّة بالأحداث ما كانوا حفظوه من قبل، ومنها:

رنّـــمـــوا رنّــمـــوا   ومـــديـــحــاً قــدّمـوا
رنّــمـــوا فــنُــقــيــمْ   شـــكـــراً لـــلـــرحــيــمْ

أو:

جـمـيـع أطـيـار السـمـا   تـحـيـا بـفـضـل الـلّـه
وهـو الـذي مـن حـبّـه   يـمـنـحـنـي الـحـيـاة

أمّا الكبار، فيتعلّمون مقاطع من موعظة المسيح على الجبل، مثلاً، «لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأن بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم،» أو من كلام بولس الرسول عن طبيعة المحبّة، مثلاً، «المحبّة تتأنّى وترفق، المحبّة لا تتفاخر ولا تنتفخ، ولا تطلب ما لنفسها، ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق.» ثمّ يردّدون وراء المعلم يوسف سلّوم مزامير أعمق ضمناً من تلك التي يردّدها الأحداث، ومنها المزمور الأوّل: «طوبى للرجل الذي لا يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لا يقف، وفي مجلس المستهزئين لا يجلس، لكن في ناموس الربّ مسرّته، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً....» وبعد ذلك يرنّمون عن ظهر قلب:

مـا أعظم الحبّ السني   مـن خـالـقٍ لم ينسني
صـار الشريف كـالـدني   مـفـتـقـراً وهـو الـغـنـي

أو:

بـركـاتُ الـربِّ عـدّد شـاكـراً   واعترف بـالجودِ حتى في العنا
كـلَّ صـبـحٍ ومســاءٍ ذاكراً   جـوده الـسـامـي بـحـمدٍ وثـنـا

وأخيرا تأتي تلاوة الصلاة الربّانيّة، وبدايتها «أبانا الذي في السموات، ليتقدّس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك»، ثمّ الانصراف.

كان المعلّم يوسف سلّوم – وهو المساعد لعمّتي في المدرسة – قَدِم أصلاً من بلدته القرعون، بالبقاع الغربي، بطلب من أبي، ليتولّى مهمّة الوعظ في كنيستنا قبل انفصالها عن المَجمع الإنجيلي الوطني، فاستقرّ – هو وعروسه الستّ فيلومينا – في البيت المخصّص للقسّيس، حيث ولد له أربع بنات: سامية ورينيه وهيام ونهى. ولم يكن المعلّم يوسف قسّيساً مرسوماً، ولذلك لم يكن مؤهّلاً للقيام بخدمة الاشتراك التي يتناول فيها الجمهور الخبز والخمر عملاً بوصيّة السيّد المسيح لتلاميذه في عشائه الأخير معهم: «اصنعوا هذا لذكري.» وكذلك لم يكن للمعلّم يوسف حقّ القيام بخدمات المعمودية والزواج. بل جلّ ما كان يقوم به هو ترؤّس الخدمات العاديّة. يصعد إلى منبر الكنيسة كلّ أحد، مرتدياً بدلة عاديّة، فيقرأ من سفر المزامير: «سبّحوا الربّ يا كلّ الأمم، حمّدوه يا كلّ الشعوب، لأنّ رحمته قد قويت علينا، وأمانة الربّ إلى الدهر.» ثمّ يعلن رقم الترنيمة الأولى، فيبدأ الأرغن بالعزف (والعازفة عليه الستّ كاملة شحاده، من خرّيجات معهد شنلّر بالقدس)، ويقف الجمهور ويرنّم، مثلاً:

سبحان تلك العزّة   المبدعة الكلِّ
كم بالحري أحمدُ من   قد مات من أجلي

أو:

يا نفسي قومي بالعجل   ها قد بدت شمسُ الصباحْ
خلّي التواني والكسلْ   واسعَي إلى ربِّ الفلاحْ

وبعد الترنيمة الأولى يقرأ المعلّم يوسف مقطعاً من العهد القديم، أو يُعلن رقم مزمور يُقرأ بالتبادل بينه وبين الجمهور، تلي ذلك ترنيمة ثانية. ثمّ يقرأ مقطعاً من العهد الجديد، تلي ذلك ترنيمة ثالثة، ثمّ عظة الأسبوع. ومن بعد العظة الصلاة الرعويّة، فالصلاة الربّانية التي يشترك فيها الجمهور، فجمع العطايا. وبعد ذلك تأتي ترنيمة رابعة وأخيرة، يرفع المعلّم يوسف يديه بعدها ليُنهي الخدمة بالبركة: «يباركم الربّ ويحفظكم، يضيء الربّ بوجهه عليكم ويرحمكم، يرفع الربّ وجهه عليكم ويمنحكم سلاماً.»

وعند نهاية الخدمة يخرج المعلّم يوسف من الكنيسة، ويتبعه الجمهور، فيصافحه الجميع عند الباب، فرداً فرداً، شاكرين له العظة.

ومن ميزات كنيستنا أن جدرانها كانت خالية تماماً من أيّ شيء يزيّنها، بما في ذلك الصليب الذي يعلّق في معظم الكنائس البروتستانتيّة على الجدار الذي خلف المنبر. إذ إنّ الصليب كان يعتبر في كنيستنا «تمثالاً منحوتاً». والوصيّة الثانية من الوصايا العشرة تقول بكامل الوضوح: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما.» وجلّ ما كان يميّز الجدار الذي خلف المنبر في كنيستنا عن بقيّة جدرانها هو لوحة معلّقة مكان الصليب كُتب عليها اقتباس من سفر المزامير بالخطّ الديواني المزخرف: «ببيتك تليق القداسة يا ربّ إلى طول الأيّام».

وكان القسّيس مفيد عبد الكريم – وهو الراعي لكنيسة بيروت – صديقاً حميماً لأبي منذ عهد التلمذة. يدعوه أبي مرّة أو مرّتين

في السنة للقيام بخدمة الاشتراك في كنيستنا، فيلبّي الطلب. وكانت أمّي، للمناسبة، تحضّر غداءً خاصّاً للقسّيس مفيد، وتطلب منه أن يبارك الطعام بالصلاة قبل الأكل، استثناءً من عادتنا في البيت. إذ كانت أمّي تعتبر الصلاة قبل الأكل نفاقاً، لأن الجائع لا يكون قلبه في صلاته بل في بطنه. وكان القسّيس مفيد، في كلّ مرّة، يلتفت إلى أمّي، بعد الأكل، شاكراً لها ضيافتها، ومردّداً كلام الملك سليمان عن المرأة الفاضلة: «امرأة فاضلة من يجدها، لأن ثمنها يفوق اللآلىء.» فيحمرّ وجه أمّي خجلاً.

وكانت أمّي مثال المرأة البروتستانتيّة في بساطة ملبسها وتصرّفاتها. وهي التي لم تتبرّج مرّة واحدة في حياتها، ولم تتزيّن بشيء يلفت النظر. وعمّتي وديعة، هي أيضاً، لم تكن من المتبرّجات، لكنّها كانت تستعمل «البودرة» أحياناً، وتبرّر ذلك بقولها: «اللّه لم يعطني ما أعطى امرأة أخي من جمال طبيعي، فعليّ أن أساعده في ذلك قليلاً.»

وفي عام ١٩٣٣ أُرسل إخوتي الثلاثة الكبار إلى مدرسة برمّانا العالية حيث سُجّلوا في القسم الداخلي، فلم نعد نراهم إلاّ في العُطَل. وبعد ذلك جهّز أبي بيتنا بأعلى القرية بالمواقد الكافية للتدفئة، فصرنا – نحن وعمّتي – نعيش فيه على مدار السنة. وفي بيتنا هذا، في شتاء عام ١٩٣٥، ولدت أمّي البنت التي طالما أرادتها، فأسمتها سنيّة، على اسم صديقتها الستّ سنيّة عبد الملك، من بتاتر. وابتهج الجميع بولادتها. وكان الشتاء في ذلك العام قاسياً. نجلس على «الطراريح» حول الموقد في هدوء الليل فنسمع أصداء دويّ بعيد هو دويّ نقّارات عكّا النذيرة

بالثلج، ثمّ تسقط الثلوج وتسدّ مداخل بيتنا، فنبقى قابعين فيه أيّاماً، نعيش على المؤن. وأمي تستغلّ المناسبة لتعلّمني القراءة والكتابة بالإنكليزيّة، والرسم، والعزف على الأرغن.

(اعتادت أمّي، منذ أن كانت هي وأبي في السودان، أن تبعث بطلبيّة سنويّة إلى شركة «أوكسنديل» Oxyndale في مانشستر، بإنكلترا، وهي من الشركات التي كانت مختصّة بتزويد البريطانيين في المستعمرات بما كانوا يحتاجون إليه من ألبسة وأدوات منزليّة وكتب وألعاب للأولاد وغير ذلك من الحاجات. وكان أبهج يوم في صغرنا هو اليوم الذي تصلنا فيه البالات من شركة «أوكسنديل» بالبريد، فنُفاجأ بما فيها من الأشياء الجديدة والجميلة. ومن هذه كتب الأدب الإنكليزي للأطفال nursery rhymes المزيّنة بالصور الكاريكاتوريّة الجذّابة، وهي التي تعلّمت منها الإنكليزيّة حتى أتقنتها.)

أمّي هي التي اهتمّت بتنشئتنا الدينيّة في البيت: تشرح لنا تعاليم المسيح، وتحفّظنا إيّاها، وتعلّمنا كيف نصلّي قبل النوم. تحفّظنا ما نقوله في بداية الصلاة (والصلاة عندنا مجرّد دعاء)، وتترك لنا الحريّة الكاملة بعد ذلك لنخاطب اللّه كما نريد، دون أيّ تدخّل أو فضول منها. نسألها عن الأشياء الواردة في الكتاب المقدّس التي لا يقبلها العقل، لكونها مخالفة لقوانين الطبيعة، فتجيب بأنّ هناك حقائق تتعلّق بالحياة يصعب التعبير عنها بالكلام العادي، فيُعبّر عنها مجازاً برموز تصوّرها تصويراً. وكثيراً ما تكون البلاغة في المجاز. فهي ترى في العجائب المنسوبة للمسيح في الأناجيل، مثلاً، صورة لقدرة الأمل أن يحلّ

محلّ اليأس في الحياة، إذا كان هذا الأمل مقروناً بشجاعة الروح التي نسمّيها الإيمان. وقيامة المسيح من الموت هي حقيقة بقدر ما هي صورة لتفوّق الأمل على اليأس. وما جهنّم إلاّ اليأس، وما ملكوت السموات أو الفردوس إلاّ الاطمئنان الداخلي والسعادة اللذان يأتيان عن طريق الأمل.

وإذا سألنا عن حقيقة وجود اللّه، أجابت أمّي بأن «اللّه محبّة» كما يقول الرسول يوحنّا، والمحبّة شيء غير ملموس، لكنّها حقيقة وواقع بقدر ما أنّ الأشياء الملموسة هي واقع. وما سيرة المسيح التي ترويها الأناجيل إلاّ سيرة المحبّة المطلقة التي تجسدّت فيه. والمحبّة هي القدرة الخلاّقة في الكون. واللّه هو خالق الكون لكونه محبّة. وانعدام المحبّة، بالمقابل، هو الشيطان. وكان أبي عند سماعه لهذا الشرح يسنده ببيتين من الزجل اللبناني القديم:

لولا الهوى ما كان حدا بيعرف حدا

لولا المحبّة كانت الدنيا خراب

(كان يتعسّر عليّ أحياناً فهم الأشياء التي تشرحها لي أمّي، فتقول لي «استعمل مخيّلتك» Use your imagination.)

وهكذا نشأنا في البيت دون أن تكون لدينا عقدة بالنسبة إلى التعامل مع الكتاب المقدّس وتعاليمه. نقرأه ونحكّم عقولنا في ما نقرأ (وهذا هو أساس البروتستانتيّة) دون أن يخالجنا أيّ شعور بالذنب. ولا نشعر أننا مجبرون أن نقول جهراً ما لا نعتقده في قرارة نفوسنا.

كانت كنيسة الروم الأرثوذكس في القرية، بما فيها من الأيقونات والثريّات الفخمة، تمثّل بالنسبة إلينا عالماً آخر يثير

فضولنا، فنذهب مع رفاقنا من الروم أحياناً – ومنهم عَدلا وموري وعفيف وعبدالله، أولاد العمّ حبيب الصليبي، وأقرب أقربائنا – لحضور القداديس فيها، ولا سيّما القداديس الاحتفالية التي تبتدىء بأحد الشعانين، وتنتهي ثاني يوم عيد الفصح. في أحد الشعانين (وهو ذكرى دخول المسيح إلى أورشليم) يمشي الأولاد في «زيّاح» (أي مسيرة) داخل الكنيسة وهم يحملون الشموع الطويلة الملوّنة والمزيّنة بالشرائط وأزهار الربيع، يبكّرون لقطافها من الحقول لهذه المناسبة. (كنّا نذهب أنا وأخي منير مع عفيف وعبدالله لقطف أزهار الأقحوان وشقائق النعمان و«دُوَيك الجبل» و«المُكَيْحِلَة» و«دبّوس الراعي» و«العقيق» – وهو «التوليب» tulip البرّي – لأحد الشعانين من حقول العمّ حبيب بالمَنْطَرَة، أسفل بحمدون، في ما يسمّى «الزَيْزَفُون» و«عين الغنم».) وفي أحد الفصح يتجمّع الناس أمام الكنيسة في الليل، قبل الفجر، وأمامهم الكاهن، للقيام بما يسمّى «الهجمة»، إذ تكون أبواب الكنيسة مقفلة، ويطلب الكاهن أن تفتح، ويكرّر طلبه ثلاث مرّات قائلاً: «ارفعوا أيّها الرؤساء أبوابكم وارتفعي أيّتها الأبواب الدهريّة ليدخل ملك المجد» (مزمور ٢٤)، ثمّ تُفتح الأبواب فجأةً، ويدخل الكاهن إلى الكنيسة هاتفاً: «المسيح قام من بين الأموات...»، فيتبعه الجمهور ويبدأ الاحتفال بقيامة المسيح. وعند الخروج من الكنيسة يبدأ الناس بتبادل تحيّة العيد (الخطاب فيها «المسيح قام»، والجواب «حقاً قام»)، وتبدأ «المفاقسة» بين الأولاد بالبيض المسلوق الملوّن. ويقام ثاني يوم الفصح «الزيّاح» بالشموع بعد الظهر حول الكنيسة أوّلاً، ثمّ في السوق، ذهاباً وإياباً.

وعيد الفصح عند الطوائف الشرقيّة هو العيد «الكبير». أمّا نحن، فكان عيد الميلاد، الذي لم يكن الروم والموارنة يعيرونه الكثير من الاهتمام سابقاً حتى كادوا يهملونه، هو العيد الأهمّ عندنا. وربّما كانت أمّي أوّل من أدخل التقاليد الغربيّة للاحتفال بالميلاد إلى بحمدون، من سحر شجرة العيد المزّينة والمضاءة بالشموع الصغيرة، إلى سحر المسيرة ليلاً بأناشيد الميلاد من بيت إلى بيت للبشارة بمولد الصبيّ، إلى سرّ «سانتا كلوز» الذي يدخل البيت خلسة ونحن نائمون، ويضع الألعاب والملابس والحلوى داخل أحذيتنا وحولها، فنفاجأ ونبتهج بها عندما نستفيق في الصباح. وعندما بدأنا نشكّ بأمر «سانتا كلوز» مع الوقت، أُفهمنا بأنه يمثّل النعمة التي يلذّ لها العطاء، فتعطي وتعطي دون مقابل. ومسكين بل يائس هو الإنسان الذي يفقد الإيمان بوجود ما يرمز إليه «سانتا كلوز».

بقي المعلّم يوسف يقوم بمهمّة الوعظ في كنيستنا حتى غادر بحمدون عام ١٩٣٨ ليستقرّ مع زوجته وبناته الأربع في بيروت. وبقيت الكنيسة من دون واعظ، فصار تلامذة كليّة اللاهوت التابعة للإرساليّة الأميركيّة في بيروت يتناوبون على الخدمة فيها. وجميع هؤلاء من الشبّان الطالبين للزواج: يقيمون الخدمة في الكنيسة صباحاً، ويقضون باقي النهار في زيارات للمنازل للتعرّف على صبايا القرية.

ثمّ اندلعت الحرب العالميّة الثانية في صيف ١٩٣٩. وفي الصيف التالي قدم إلى بحمدون رجل من مصر اسمه برنابا نوس مصطافاً، ومعه زوجته وأولاده. وبرنابا هذا رجل ربّما في أوائل الأربعينات من

عمره، ممتلئ الوجه، شديد السمار، يلبس النظّارات الثخينة، ويعمل في التبشير الإنجيلي الأصولي الداعي إلى ما يسمّى «التجديد»، بمعنى تجديد الروح. ويركّز المذهب الذي ينتمي إليه القسّ برنابا على الكلام الذي وجّهه يسوع مرّةً إلى رئيس لليهود يسمّى نيقوديموس قائلاً له: «الحقّ الحقّ أقول لك إن كان أحدٌ لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت اللّه،» ثمّ موضحاً: «إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت اللّه.» وكانت كنيستنا شاغرة في ذلك الصيف، فطلب برنابا نوس استخدامها للتبشير بالتجديد، واستجيب لطلبه. وبدأ أناسٌ من بحمدون – رجالاً ونساءً – يتجدّدون على يده.

وخلت الكنيسة للقسّ برنابا طوال ذلك الصيف، يقوم فيها بقبول الواحد من المتجدّدين بعد الآخر، وهو يهتف لكل واحد منهم بعد إعلان تجدّده مبتهجاً: «هللّويا.» والغريب في الأمر أن الذين قبلوا التجديد على يد برنابا كانوا جميعاً من طائفة الروم، في حين كنّا نحن نعتبر الدعوة إلى التجديد ضرباً من الهوس.

وكانت صبيّة في القرية تعاني ألماً مزمناً في الظهر، فلم تعد تتمكّن من الحركة وأصبحت طريحة الفراش. وقد دعي أشهر الأطبّاء في البلاد لمعالجتها، فأخفقوا في إيجاد العلاج المناسب لها. وكان أبي يؤكّد أن الصبيّة تعاني من أزمة نفسيّة، وليس من أيّ خلل في عمودها الفقري، فلا يؤخذ برأيه. وعلم برنابا نوس بأمر الصبيّة، فذهب لزيارتها. وبعد أن اطمأنّت إلى حديثه عن ضرورة «الولادة من فوق»، حدّق إلى عينيها ثمّ صاح بها: «أيّتها الصبيّة، أقول لك باسم يسوع الناصري قومي وامشي.» فقامت الصبيّة ومشت، وصارت على الفور من أتباعه.

وانتشر خبر شفاء الصبيّة، فأصبح حديث الناس. وتكاثر طالبو التجديد على يد برنابا نوس على الأثر: يأتون إليه لإعلان توبتهم من خطاياهم وقبولهم بالمسيح مخلّصاً لهم، وهو يهتف «هللويا،» حتى تأزّمت العلاقات بين كنيستنا وكنيسة الروم في القرية، وهي التي اعتبرتنا المسؤولين عمّا يحدث. وتحاشياً للمزيد من التأزم في العلاقات بين الكنيستين، اضطرّ أبي إلى منع برنابا نوس من استخدام كنيستنا للدعوة إلى مذهبه الذي ليس هو مذهبنا في البروتستانتيّة أصلاً.

أنهيت دراستي الابتدائيّة في مدرسة عمّتي وديعة في آخر ربيع ١٩٤١. وزحفت القوّات البريطانيّة المرابطة في فلسطين على سوريّا ولبنان في أشهر الصيف، بالاتّفاق مع حكومة «فرنسا الحرّة» (La France Combattante)، ومركزها في لندن، لتُخرج القوّات الفرنسيّة التابعة لحكومة «فيشي» (Vichy) المتعاونة مع الألمان من البلدين. فتجمّع عسكرٌ من القوّات الفرنسيّة المهزومة في بحمدون، مع خيولهم وآليّاتهم، بانتظار ترتيب إخراجهم من البلاد. خيّموا على أرض كنيستنا لأسابيع اتّخذ فيها قائدهم الكابيتان بران (Capitaine Brun) من بيت القسّيس مقرّاً له ولأعوانه، وتحوّل مبنى الكنيسة (ومنه أيضاً قاعة مدرسة الأحد) إلى مستشفى للجرحى من العسكر، ومنهم من كانت إصاباته خطيرة. ومن العسكر المخيّمين على أرض الكنيسة جنود سنغاليّون، وآخرون من «الفيلق الأجنبي» (Légion Etrangère): مرتزقة من جنسيّات مختلفة، كلّ واحد منهم يتكلّم الفرنسيّة بلكنة غير لكنة الآخر، وله تاريخ حافل

بالمغامرات. تصاحبنا، أنا ورفاقي، مع جندي من هذا الفيلق، إيطالي الأصل، اتّخذ لنفسه اسم جرمان (Germain)، كان مسؤولاً عن المطبخ في أقبية بيت القسّيس. نذهب إليه كلّ يوم، فيحدّثنا عن مغامراته قبل التحاقه بالجيش الفرنسي. ومن الجنود الذين كنّا نتردّد عليهم أيضاً شاب سنغالي اسمه جان باتيست (Jean-Baptiste) يعاني من جروح ملتهبة في بطنه وساقيه، يجلس طوال النهار في ظلّ شجرة مشمش عند مدخل بيت القسّيس، ويتحمل آلامه بابتسامة حزينة: نذهب إليه هناك، فيحدّثنا عن خطيبته الصبيّة التي تنتظره في السنغال.

في ذلك الصيف تقرّر إرسالي إلى مدرسة برمّانا العالية، حيث سُجلت في القسم الداخلي. وفي اليوم الذي غادرت فيه بحمدون برفقة أمّي وأبي، مرّت بنا السيّارة أمام كنيستنا، فعادت بي الذكرى إلى أيّام المعلّم يوسف سلّوم: تخيّلته واقفاً أمام الباب يصافح المصلّين الخارجين من الكنيسة، كما كان يفعل في العادة، وهم يحيّونه ويشكرونه على عظته.

٤

التعرّف إلى بيروت

لم أزر بيروت في صغري أكثر من أربع أو خمس مرّات، الأولى منها عندما كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري، رأيت فيها البحر لأوّل مرّة: كان هادئاً لا موج فيه، فظننته صحيفة كبيرة من الزجاج، على ما أذكر. وفيما عدا تلك الزيارات المتفرّقة، كانت بيروت بالنسبة إليّ موقعاً نراه بين التلال من بيتنا في بحمدون، ويبدو أزرق اللون في بُعده، مثله مثل سفوح صنّين ومرتفعات المتن وكسروان وما يليها من لبنان.

كانت معرفتي الأولى بهذه المدينة، حيث مسقط رأسي، عندما قضينا فيها شتاء عام ١٩٣٨-١٩٣٩. عشنا ذلك الشتاء في الطابق الرابع من «بيت الصيداني» في شارع «بلِسّ» (مبنى مطعم «سقراط» اليوم)، وهو في ذلك الوقت، بطوابقه الخمسة، أعلى بيوت رأس بيروت وأحدثها، وشرفاته الأماميّة تطلّ على حدائق الجامعة الأميركية ومبانيها. تسجّلت في ذلك العام، مع أخي

الأصغر منير، في المدرسة الابتدائيّة التابعة للجامعة. وأخواي سامي ويهيج آنذاك في الجامعة نفسها، وأخي الثالث خليل في القسم الفرنسي (Section Secondaire) من المدرسة الاستعداديّة. وكانت رأس بيروت في ذلك الوقت ما زالت منطقة يغلب عليها الطابع الريفي، وهي بعيدة عن المدينة، يربطها بها خطّ «الترامواي» الواصل بين «المنارة» و«فرن الشبّاك». وموقع المنارة التي منها اسم المحطّة إلى أقصى الغرب من شارع بلِسّ.

في مساء أوّل يوم لي في رأس بيروت، جاء من يأخذنا مع أمّي ليرشدنا إلى موقع مدرسة الأحد (حيث اليوم «بناية بيّوض» في شارع المقدسي، مقابل فندق «ماريل تاوَر»). فتجوّلنا في الأزقّة بين البيوت وبساتين الخضار المحاطة بالقصب وشجيرات الصبّار (وهي الطاغية على المنطقة) إلى أن وصلنا إلى ذلك المكان. كانت رأس بيروت في ذلك الوقت تكاد تنتهي عند شارع الحمراء، والنصف الغربي من هذا الشارع ما زال ترابياً غير معبّد. ومن بيوت المنطقة، على الشوارع الرئيسة، ما كان يتألّف من طابقين أو ربّما ثلاثة. والبيوت هذه ترتفع كلّما اقتربت من الجامعة. أمّا البيوت في الأزقّة وداخل البساتين، فكانت تتألّف في العادة من طابق واحد، أو من «قبو» ومن فوقه «عليّة» يعلوها القرميد. وأشار دليلنا إلى أن سكّان هذه البيوت معظمهم من المسلمين، يرتزقون من زراعة الخسّ والهندباء و«السِّلق» و«الخبّيزة» وغير ذلك من الخضار، ومن حليب الأبقار التي يقتنيها بعضهم: يطعمونها الورق من شجر التوت الكثير الانتشار في بساتينهم. وكان أمام كلّ من هذه البيوت بركة تجتمع حولها الأسرة في الأمسيات، وتحيط بالبركة غُرَس من

الرياحين، مثل الياسمين و«العطر» و«الفتنة» و«الحبق» و«زهر الحنّة»، عدا عن صفائح من التنك فيها القرنفل وغيره من الورود. فاقترن الإسلام في ذهني بشذى القرنفل «والحبق» و«زهر الحنّة» الذي شممته تلك الليلة.

وكان في رأس بيروت أن سمعت الآذان لأوّل مرّة من مئذنة «جامع الداعوق» القريب من بيتنا. وصرت أستفيق من النوم عن قصد لأسمع التسابيح الجميلة التي كانت تسبق آذان الفجر وتبدأ بالقول: «لا إله إلاّ اللّه، وحده لا شريك له، هو يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير، سبحان اللّه....» وبعد شهرين من وجودنا في رأس بيروت جاء شهر رمضان. ولم أكن أعرف شيئاً بعد عن ميزة هذا الشهر بالنسبة إلى المسلمين، لكنّي بدأت أسمع، ابتداءً من أوّل ليلة، صوت رجل يمشي ويغنّي في الشارع في ظلمة الليل، ومعه طبلة يقرعها بدقّات إيقاعيّة بين الأبيات الأربعة من نشيده، ويلفظ «الشين» في «الشمس» وكأنّها حرف قمري، فيقول:

أل شمسُ تطلعِ من خبايا مجهولة
تطلع وتصلّي عليك يا محمّد
يا أبو العين المكحولة
يلّي شفاعتك عند اللّه مكفولة

يبدأ هذا الرجل غناءه بعيداً ثمّ يقترب إلى أن يتوقّف عند بيتنا فيصيح بأعلى صوته: «أبو أحمد وَحِدّ ربّك» (وأبو أحمد هو جارنا في الطابق الخامس). ثمّ يعود إلى قرع الطبلة والغناء وصوته يبتعد ويخفت شيئاً فشيئاً إلى أن لا يعود مسموعاً. قفزت ذات ليلة من فراشي عند أوّل سماعي لصوت «المسحّر» (الذي هو ذلك الرجل، كما

فهمت)، وخرجت إلى الشرفة لأشاهده. ولم تكن شوارع رأس بيروت تضاء بعد. فرأيت شخصاً أصلعَ شديد السمار يحمل الطبلة ويغنّي، يرافقه ولدٌ يحمل قنديل «لوكس» يضاء على الكاز. والواضح من هيئة الرجل أنّه ليس من أهالي رأس بيروت. (حكيت هذه القصّة مؤخراً لأحد تلاميذي السابقين من رأس بيروت، وسألته عن هويّة هذا المسحّر، فعاد إليّ يقول بأنّه كان مصريّاً مقيماً في المنطقة، يُذكر عنه أنّه كان يُلقّب «أبو خيارة».)

قيل لي لاحقاً أنّ بين المسلمين والروم الأرثوذكس من قدامى أهالي رأس بيروت صداقات عائليّة قديمة قوامها أخوّة في الرضاعة تربط بين أسرة وأخرى. ولذلك، كثيراً ما يقف أبناء هذه الأسر في المآتم لقبول التعازي معاً، سواء أكان الفقيد مسلماً أو مسيحيّاً. علماً بكونهم «أبناء خالة» بالرضاعة، الواحد للآخر، أو «ابن عمّة» و«ابن خال»، يستشيرون بعضهم بعضاً، أيضاً، في أمور الزواج، رفعاً للعتب.

ومن ميزات رأس بيروت وجود جالية كبيرة من البروتستانت فيها، بسبب وجود الجامعة الأميركيّة هناك. وهي التي كانت في الأصل «الكلّية السوريّة البروتستانتيّة». كبار أساتذة الجامعة العرب آنذاك من البروتستانت، وكذلك معظم الأطباء في المستشفى التابع لها. وجميعهم يعيش في محيطها، وكذلك أقاربهم وأسر بروتستانتيّة أخرى لا علاقة لها بالجامعة. هذا الوجود الكثيف للبروتستانت في رأس بيروت كان يضفي عليها جزءاً مهمّاً من طابعها المميّز، وهم الذين كانوا في ذلك الوقت متفوّقين على غيرهم في شتّى حقول المعارف. والمشهور عنهم

نومهم المبكّر، وعدم ميلهم إلى السهر. فلا تأتي الساعة التاسعة ليلا (كما كان يقال) إلاّ وهم جميعاً متّجهون إلى النوم.

تطوّعت أمّي تلك السنة لمساعدة «مِسّ أمينة» في إدارة مدرسة الأحد الصباحيّة. ومِسّ أمينة أخت الأديب جرجس الخوري المقدسي وأخيه أنيس، أستاذ اللغة العربيّة وآدابها في الجامعة الأميركيّة. تدير مدرسة ابتدائيّة اعتياديّة في الطابق الأسفل من بيتها أيّام الأسبوع، فتُعقد مدرسة الأحد في قاعات هذه المدرسة، وصفوفها الأربعة – «زنابق الحقل» ثمّ «طيور السماء» للبنات، و«تلاميذ المسيح» ثمّ «جنود المسيح» للبنين – تُعلَّم فيها مبادىء المسيحيّة حسب المذهب البروتستانتي. وتبرّع أخي سامي لتعليم قراءة الموسيقى في هذه الصفوف، إضافة إلى برنامجها العادي. وكان أخي بهيج آنذاك يتخصّص في العلوم والفلسفة بالجامعة، فاقترح أن يدرّس النظريّة الداروينيّة والمبادىء الفلسفيّة لأبناء صفّ «جنود المسيح» لتوسيع آفاقهم الذهنيّة. ولم تجد أمّي، ولا مِسّ أمينة، مانعاً من ذلك. فصارت مدرسة الأحد، بالتالي، ببرنامجها الموسّع، تجذب المزيد من الحضور، وطلاّبها مزيج من أبناء وبنات الأسر البروتستانتيّة وغير البروتستانتيّة، وفي جملتهم عدد من أولاد وجهاء المسلمين، يشجّعهم أهلهم على حضورها.

كنّا أنا وأخي منير، بطبيعة الحال، من روّاد مدرسة الأحد. غير أنّ أبي كان يصطحبنا، من وقت إلى آخر، لحضور خدمة الأحد في الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة، في حيّ «زقاق البلاط»، بجوار ما كان تبقّى من سور بيروت، وبداخله مقهى كشّاشي الحمام، وكذلك

الباب الوحيد المتبقّي حتى ذلك الوقت من أبواب المدينة، وهو «بوّابة يعقوب» حيث سوق النحّاسين. وفي الساحة الكبيرة داخل السور (التي هي اليوم «ساحة رياض الصلح») مبنى «الهال» (Les Halles) الذي هو سوق السمك. كنّا نستقلّ «الترامواي» في تلك المناسبات حتى موقف «باب إدريس»، ونمشي من هناك إلى كنيستنا عبر حدائق السراي الكبير، مركز الحكومة، فنتوقّف أحياناً قبل صعود درج السراي لنشاهد مراسم الدخول إلى «القدّاس القنصلي» (messe consulaire) في كنيسة الآباء الكبّوشيّين، وهو تقليد أدخله الانتداب الفرنسي على البلاد وزال بزواله: يصل قناصل الدول بلباسهم الرسمي المزركش، كلّ واحد منهم في عربة فخمة تجرّها الخيل، يرافقه «قوّاصه» (أي مرافقه)، فيصعد الواحد منهم بعد الآخر الدرج إلى مدخل الكنيسة ويقف هناك في المكان المعيّن له. وبعد ذلك يصل المفوّض السامي الفرنسي في سيّارة سوداء، ترافقه كوكبة من الفرسان المغاربة (ومنهم «الطوارق» الملثّمون بالأزرق)، فيصعد الدرج ويدخل الكنيسة مباشرة، ويدخل القناصل وراءه. وكان المفوّض السامي في ذلك الوقت الكونت دو مارتيل (Damien de Martel)، يصل بعده أحياناً رئيس الجمهوريّة اللبناني إميل إدّه للاشتراك في القدّاس، فيكاد دو مارتيل يهمل قدومه. (عندما تولّى إميل إدّه رئاسة الجمهوريّة، وضع رسمه على طوابع البريد اللبنانيّة، فصارت الناس تقول: «طبّش وجهه على ورق البُول».)

أعجبتني الحياة في رأس بيروت على وجه العموم. أعجبت، مثلاً، بخبزها من «الكماج» الذي كنّا ننهض في الصباح الباكر

لنساعد في عجنه ورقّه، ثمّ يأتي من يأخذه إلى الفرن، فيعود به إلينا ساخناً، منفوخاً، جاهزاً للأكل. (أعجبني أكثر من خبز «الصاج» المرقوق الذي كنّا نأكله في بحمدون، فأتأفّف من «حروفه»، أي حوافّه السميكة). وسرعان ما اعتدت على الماء الذي كان يصلنا إلى البيت، وهو الذي وجدته في البداية يميل إلى الملوحة (كما كان في الواقع آنذاك) بالنسبة إلى مياه الينابيع العذبة في الجبل. وأحببت منظر البحر من شرفة بيتنا، والقوارب الشراعيّة تروح فيه وتغتدي، وكذلك السفن البخاريّة، ومداخنها تصفِر عند اقترابها من المرفأ، فتنطلق منها الكتلة بعد الكتلة من البخار الناصع البياض. لكنّي بقيت مرتبكاً، إلى وقت، بسبب انتقالي من مدرستي القديمة العائليّة الطابع في بحمدون، حيث التواصل بين الأهل والتلامذة والمعلّمات مباشر، فتتكيّف القوانين بموجبه، إلى مدرسة جديدة في بيروت خاضعة لنظم ثابتة، لا دور للأهل فيها، ولا علاقة بين الأستاذ والتلميذ إلاّ في الصفّ. وهي بالإضافة إلى ذلك مدرسة صبيان، وليست مختلطة كمدرستنا في بحمدون. والأساتذة فيها معلّمون، عدا ثلاث معلّمات لصفوف الصغار، واحدة منهنّ تعلّمنا الأشغال اليدويّة.

الذي أربكني أيضاً في البداية هو صعوبة التحوّل من حياة القرية إلى حياة المدينة، وفيها من الأنماط والمتطلّبات ما لم أكن معتاداً عليه. اتّضح لي ذلك منذ صباح اليوم الأوّل في المدرسة. كنت مصطفّاً في الساحة مع زملاء لا أعرف واحداً منهم، ننتظر أستاذاً يتفقّد لياقتنا قبل بداية الدروس، والواقف إلى جانبي تلميذ أرستقراطي المظهر يلبس بنطلون «غولف» لم أرَ مثله من قبل.

عرّفني عن نفسه بأنّه يوسف إيبش من دمشق، ثمّ دار ليتحدّث مع رفيق إلى الجانب الآخر اسمه حسن حسني، وهو أيضاً من دمشق. سأله حسن: «من أين لك هذا البنطلون الحلو؟» أجاب يوسف: «اشتراه أبي من لندن، واحد لي وواحد لأخي زياد.» ثمّ أمسك بأطراف ذلك البنطلون، وأضاف وهو رافع إيّاها ليبيّن فخامة النسيج: «هيك بيلبسوا الإنكليز.» نظرت خفية إلى بنطلوني «الكاكي» القصير مقارناً إيّاه ببنطلونه، ووددت لو تنشقّ الأرض وتبلعني. فأين ملابسي من ملابس الإنكليز؟ كيف ذلك، وأنا الأجدر بأن ألبس ملابسهم نظراً لكوني من ملّتهم، وجورج السادس، ملك إنكلترا، بمثابة الأب الروحي لجميع البروتستانت في العالم؟

بعد ذلك جاء الأسوأ عندما وصل دوري للتفتيش، فوقف أستاذ صفّنا أمامي (وهو شاب أنيق اسمه جوفر حدّاد) يهزّ رأسه وكأنّ منظري لم يعجبه. تفقّد الأظفار من يديّ، فوجدها «مقرقطة»، وعليّ أن أعيد الاعتناء بها. وأشار إلى زرّ في قميصي يكاد يفلت من مكانه قائلاً: «روح قول لأمّك تقطب لك هالزِرّ.» وهو يعقد حرف القاف في «مقرقطة» و«قول» و«تقطب لك» وكأنّه يستهزىء بلهجة الجبل (التي يلفظ فيها حرف القاف فصيحاً)، معتبراً إيّاها لهجتي. انتقل بعد ذلك إلى معاينة شعري، فوضع يده على رأسي قائلاً: «مين قاصص لك هالقصّة عالقرميد؟» لم أفهم تماماً ماذا يعني «القصّ على القرميد»، بل جلّ ما فهمت هو أنّي ابن قرية محاط لأوّل مرّة بأبناء مدينة: لهم كامل الحق بأن يهزأوا من تصرّفاتي وهندامي، وعليّ أن أتكيّف مع واقعي الجديد.

انتهت عمليّة تفتيشي، فتنفّست الصعداء. ثمّ دار يوسف إيبش ليحدّثني من جديد، وهو لا يمعن النظر لا إلى أظفاري، ولا إلى شعري، ولا إلى ملابسي، فارتحت لكياسته. وأصبح يوسف صديقي منذ تلك اللحظة (وما زال)، وهو الذي جعلني أشعر في تلك المناسبة الحرجة أن في الشخص ما هو أهمّ من المظهر. ذهبت في ذلك اليوم، على كلّ حال، إلى «صالون بخعازي» لإصلاح قصّة شعري قدر الإمكان. ولم تكن إلاّ أيّام حتى أخذني أبي إلى «محلاّت عَبَجيان» في «سوق سرسق» حيث انتقيت أجواخاً لتفصيل «طقوم» تليق بوضعي الجديد. وارتاح بالي عندما حضرت هذه الطقوم، وإن لم أجدها تماماً من النوع الذي «يلبسه الإنكليز».

بعد أسابيع قليلة من بداية السنة الدراسيّة وصلت إلى المدرسة ذات صباح، فوجدت شبّاناً من القسم الاستعدادي والجامعة يجتمعون مع فريق بعد آخر من تلامذة الصفوف الابتدائيّة العليا، وكأنهم يصدرون لهم الأوامر والتعليمات. وبعد ذلك عمد هؤلاء التلامذة إلى إغلاق الصفوف، وكأنّهم يستعدّون للقيام بعصيان. سألت عن السبب، فقيل لي أن ما يحدث هو «إضراب» (كلمة لم أسمعها من قبل) لمناسبة «وعد بلفور»، وهو وزير خارجيّة إنكلترا الذي وعد اليهود أن يكون لهم «وطن قومي» في فلسطين، مع أن الحقّ بفلسطين للعرب. وكنت أسمع منذ سنوات عن ثورة لعرب فلسطين موجّهة ضدّ اليهود والإنكليز. وبسبب ظروف هذه الثورة نزحت أعداد من الأسر الفلسطينيّة إلى بيروت، وبخاصّة إلى رأس بيروت، والعديد من تلامذة مدرستنا من أبناء هذه الأُسر.

بقي التلامذة خارج مبنى المدرسة طوال ذلك اليوم وبعضهم، كباراً وصغاراً، يشتركون في حلقات للكلام في السياسة المتعلّقة بموضوع الإضراب. اقتربت من إحدى هذه الحلقات لأسمع ما يدور فيها من حديث، فوجدت التلامذة المشتركين فيها يحاولون تحديد من هو «معنا» من الدول الكبرى ومن هو «ضدّنا». وبعد استعراض هذه الدول، الواحدة بعد الأخرى، صاح صبيّ من فلسطين اسمه هنري حلبي: «يا شباب، مصر معنا» (وكان يلثغ بسبب كسر في ثناياه، فقال «مَثْر معنا»). وكأنّ مصر، وهي الخاضعة بعدُ لمشيئة الإنكليز (كما كنت أعرف)، دولة عظمى قادرة على «ردّ القوم». فضحكت في قلبي من الحديث الساذج في السياسة بين أولاد في مثل عمري.

كانت لدينا أوقات معيّنة للمطالعة في مكتبة المدرسة، نقرأ فيها قصص كامل الكيلاني وغيرها، وبعض المجلّات. كنت انكبّ هناك على قراءة مسلسل يصدره عمر أبو النصر في بيروت بعنوان «عشرون سنة بعد الحرب»، يتحدّث فيه بإسهاب عن سيرة «الغازي» مصطفى كمال، وهو البطل التركي الذي حرّر بلاده بعد هزيمتها في الحرب العظمى من احتلال الحلفاء (ومنهم «آخر الناس» من اليونان والطليان) لأراضيها. ولم ألتق بشخص في بيروت لم يكن معجباً بمصطفى كمال أشدّ الإعجاب إلاّ الخيّاط عبجيان الذي قام بتفصيل ملابسي. عندما زرته لأوّل مرة، وعلم باسمي، هزّ برأسه وقلب شفتيه، ثمّ أشار إليّ بأصبعه قائلاً بالإنكليزيّة المكسّرة: «Mustapha Kemal, no good». وكان بين

زملائي في الصفّ صبيّ تركي من سلالة بني عثمان، وآخر لبناني تركي الأصل. دخلت الصفّ ذات يوم فوجدتهما يبكيان، وعندما سألتهما عن السبب أجابا: «مات مصطفى كمال». وخيّم الحزن على صفّنا في ذلك اليوم.

بدا لي من حديث الناس في تلك السنة أنّهم يتوقّعون قيام حرب عالميّة ثانية بين «دول الحلفاء» و«دول المحور». بعضهم معجب بأدولف هتلر، ويتوقّع انتصار ألمانيا في حال وقوع الحرب، وبعضهم على رأي آخر. وكنّا محتفظين حتى ذلك الوقت بالجنسيّة المصريّة، وأبي يتخوّف ممّا قد يحصل لنا في حال قيام حرب واحتلال ألمانيا أو حليفتها إيطاليا للبنان، لكوننا مصريّين، ومصر تابعة لإنكلترا. وفي يوم من ربيع تلك السنة عاد أبي إلى البيت وقت الغداء ومعه رزمة من أوراق الهويّة أعطاها لأمي قائلاً: «هذه هي هويّتك اللبنانيّة وهويّات الأولاد، احتفظي بها». وهكذا كنّا مصريّين، فأصبحنا لبنانيّين بين يوم وغده.

كان المفوّض السامي في بيروت تغيّر في تلك الأثناء: ذهب الكونت دو مارتيل وجاء مكانه غبريال بيو (Gabriel Puaux)، وهو من بروتستانت فرنسا. وكان بيو، مثل سلفه الكاثوليكي دو مارتيل، يواظب على حضور «القدّاس القنصلي» في كنيسة الآباء الكبّوشيّين بباب إدريس. لكنّه قرّر مرّة أن يحضر الخدمة في كنيستنا. دخل الكنيسة وكأنّه سيّد البلاد، وجميع بروتستانت المدينة مجتمعون هناك لرؤيته. وألقى راعي الكنيسة القسّيس مفيد عبد الكريم موعظة في تلك المناسبة حول المقطع من «رؤيا يوحنّا اللاهوتي» (٢:١٠) الذي يقول: «كن أميناً إلى الموت، فسأعطيك

إكليل الحياة.» ورافق غبريال بيو إلى الكنيسة جوقٌ من الجنود السنغاليّين قاموا بتقديم ترنيمتين لنا بالفرنسيّة. وقدّم القسّيس مفيد هؤلاء الجنود إلى الجمهور قائلاً: «صحيح أنّ وجوههم سوداء، لكنّ قلوبهم بيضاء كالثلج.»

مع اقتراب نهاية السنة الدراسيّة، جاءت إدارة المدرسة بسيدّة من رأس بيروت اسمها نلي قربان، ماهرة في الغناء، لتعلّمنا أغنية بالإنكليزيّة عن رحلة في القطار الحديدي نغنّيها في حفلة التخرّج. ومطلع الأغنيّة هو التالي:

Here comes the train choo choo choo choo:

Where do you think it's going to?

كان علينا أن نقوم بتقديم هذه الأغنية ونحن واقفون وكأنّنا في محطّة لسكّة الحديد، وأمام كلّ واحد منّا حقيبة سفر مكتوب عليها اسم الجهة التي ينوي السفر إليها: الواحد اختار باريس، والآخر لندن أو روما أو برلين، وهلمّ جرّا. واستشرت أُمّي في اسم بلد أو مدينة تكتبه لي على حقيبتي بخطّها الإنكليزي الجميل. وكانت أُمّي شديدة الحبّ للسودان حيث قضت زهرة عمرها، هي وأبي، وكثيراً ما تتحدّث عن محاسن تلك البلاد وأهلها. فقالت لي: «نكتب اسم السودان»، واستقرّ الرأي على ذلك. وجاء وقت الحفلة، ووقفت أغنّي مع رفاقي Here comes the train choo choo choo choo، والحقيبة التي أمامي مكتوب عليها بأحرف كبيرة SUDAN.

وهكذا انتهت تلك السنة الدراسيّة وانتقلنا إلى بحمدون لقضاء أشهر الصيف. واندلعت الحرب العالميّة الثانية في الشهر الأخير من

ذلك الصيف، فتقرّر أن نبقى أنا وأخي منير في بحمدون مع عمّتي وديعة، بينما يعود سائر أفراد العائلة إلى بيروت عند نهاية العطلة.

كثيراً ما كانت أمّي تحدّثنا عن ظروف الحياة في بلادنا خلال الحرب العالميّة الأولى، وعن حفلات السمر التي كانت تعقد في حقول بطلّون في الليالي بينما يقوم الشبّان والصبايا بالترتيبات اللازمة لمكافحة الجراد. وما إن قامت الحرب العالميّة الثانية حتى بدأت أنتظر وصول الجراد حتى تعود حفلات السمر إلى بطلّون لأشترك فيها. لكنّ الجراد لم يصل هذه المرّة. فعدت تلك السنة، والسنة التي بعدها، إلى مدرسة عمّتي في القرية لأكمل دراستي الابتدائيّة. ولم يحصل خلال هاتين السنتين ما يغيّر طريقة حياتنا.

٥

المدرسة الداخلية

كنت في عمر الثانية عشرة والنصف في بداية خريف عام ١٩٤١ عندما حُزمت أمتعتي (بما فيها الفراش ولوازمه، ومنها آنذاك «الناموسيّة») واصطحبني والداي في سيّارة أجرة من بحمدون إلى بيروت، حيث وضعاني في سيّارة أخرى لأكمل رحلتي بمفردي إلى المدرسة الداخليّة في برمّانا المعروفة باسم «مدرسة برمّانا العالية» (Brummana High School). والمدرسة هذه تديرها «جمعيّة الأصدقاء» (Society of Friends) البريطانيّة (من الطوائف الإنجيليّة التبشيريّة)، ورئيسها وأحد أساتذتها من البريطانيّين، والبقيّة من المحلّيّين. ومن هؤلاء أخي الأكبر سامي الذي كان يعلّم الموسيقى ويشرف على مبنى الطلبة الداخليّين «الصغار» (أي من هم دون الرابعة عشرة). ولم يشأ أخي أن أُقيم في هذا المبنى حتى لا يُتّهم بمحاباتي، فتقرّر أن يكون مسكني في مبنى «الكبار».

وصلت إلى برمّانا مساءً، ووجدت أخي سامي بانتظاري عند مدخل المدرسة، فرافقني إلى الغرفة المعيّنة لي، وهي غرفة فيها أربعة أسرّة. وعلّمني كيف أفرش سريري وأعلّق فوقه الناموسيّة، ثمّ دلّني على الحمّامات حيث الماء الساخن متوفّر للاستحمام مرّة في الأسبوع لا غير، بعد ظهر السبت، ومن ثمّ على غرفة الطعام حيث تناولت العشاء. وكان ظلام الليل بدأ يخيّم على برمّانا في تلك الأثناء. وفرضت ظروف الحرب العالميّة ابتداءً بذلك الوقت أن تعتّم البيوت والمباني ليلاً عن طريق طلاء زجاج شبابيكها باللون الكحلي، وكذلك القناديل الكهربائية داخل الغرف، تحسّباً للغارات الجويّة.

رجعت بعد العشاء إلى غرفتي ووجدتها مظلمة، فاستلقيت على فراشي محاولاً النوم. وما لبث أن دخل الغرفة طالبان استلقيا على السريرين المقابلين لسريري، وقاما بالتعرّف الواحد منهما على الآخر: عرّف الأوّل عن نفسه بأنّه جميل السروجي من الناصرة، والثاني بأنّه حسن جمال الحسيني من القدس. وافترض الاثنان أنّي غارق في النوم، فلم يحاولا التعرّف إليّ. ثمّ سأل جميل إذا كان بين حسن والمفتي الحاج أمين الحسيني قرابة، فأجاب حسن بأنّ المفتي هو ابن عمّ والده. وهمهم جميل، ففهمت من ذلك أنّه تشرّف بالتعرّف إلى حسن لكونه ينتمي إلى أسرة تنعم بوجاهة خاصّة في بيئته. وبدأ الحديث بين الاثنين حول الأوضاع السياسيّة في فلسطين والبلاد العربيّة واستمرار خضوع هذه البلاد لمشيئة الأجانب، إلى أن أخذ الكلام بينهما يختلط بالتثاؤب شيئاً فشيئاً. وفي النهاية قال

حسن: «واللّه يا أخي جميل البلاد العربيّة لازم تستقلّ.» فأجاب جميل: «نعم لازم تستقلّ.» ونام الاثنان. وبقيت صاحياً مدّة ساعة أو ساعتين أفكّر في هذا العالم الجديد الذي دخلته بعيداً عن كلّ ما هو مألوف لديّ، وأنا استمع إلى عواء بنات آوى في أَحراج برمّانا وصياح البوم على صنوبرها. وهي أصوات لم يكن لي عهد بها من قبل.

في صباحِ اليوم التالي تعرّفت على حسن وجميل: الأوّل يكبرني بسنة تقريباً، والثاني بسنتين أو ثلاث. سارع حسن إلى تزويدي بموجز عن حياته، وأخبرني أنّه الابن الوحيد لوالديه، وهو يقيم في القدس مع أمّه وأخواته حاليّاً، بعدما نفى الإنكليز أباه إلى جزر السيشيل، في المحيط الهندي، بسبب معارضته لهم. وهو يهوى كرة القدم، وله اهتمام خاص بالموسيقى، ولذلك ينوي متابعة تعلّم البيانو مع «مِسِز ترتل» (Mrs. Turtle)، زوجة رئيس المدرسة، لكونها خرّيجة المعهد الملكي للموسيقى بلندن. أمّا جميل، فكان منشغلاً بترتيب كتبه وحاجاته ولم يتكلّم كثيراً. لكنّي فهمت منه أنّ أخاه الأكبر بشارة، وابن عمّه إلياس، كانا من أصدقاء أخويّ سامي وبهيج عندما كان الأربعة معاً في برمّانا. ثمّ جاء موريس السروجي، أخو جميل الأصغر، ليتفقدّ أحوال أخيه، يرافقه ابنا عمّه، يوسف وأنيس، فتعرّفت إليهم.

وبعد قليل وصل محمّد بَيهُم، من بيروت، ليحتلّ السرير الرابع في غرفتنا. وكان معه أخوه الأصغر عصام، فحلّ في الغرفة المقابلة. وما إن تمّ التعارف بيننا حتى أخذ محمّد يتأفّف من وضع الغرفة وخلوّها من أبسط متطلّبات الراحة، بل حتى من

قطعة بساط أو حصير تغطّي أرضها. وبعد ذلك انكبّ على ترتيب فراشه، واضعاً فوقه الطبقة بعد الطبقة من الشراشف المطرّزة والحرامات، ومن فوقها غطاء من الحرير المقصّب الثمين تعلوه الوسائد. فجاءت النتيجة غاية في الفخامة. ثمّ أخذ يسأل جميل (وهو القديم منّا في برمّانا) عن الخدمات التي تقدّمها المدرسة إلى طلاّبها الداخليّين، فلم يعجبه أيّ جواب.

بعد ذلك بدأت حلقة معارفي الجدد تتوسّع. وسرعان ما أخذت طبيعة حياة المدرسة الداخليّة في برمّانا آنذاك تتبيّن لي: عالم قائم بذاته يتركّب من عناصر لا صلة بينها أصلاً، وهو على ذلك شبيه بالأسرة أو العشيرة من حيث تماسكه. أسر من مختلف الأقطار العربيّة، لا يربط بينها رابط، تبعث أبناءها في بداية شبابهم إلى مكان يعيشون فيه معاً، فيعانون مشاق السفر بسيّارات الأجرة أو الباصات، أحياناً عبر البوادي والقفار، لينقطعوا مدداً طويلة عن أهل لا سبيل للاتّصال بهم في معظم الحالات إلاّ عن طريق المراسلة. وهكذا تنشأ بينهم مع الوقت وحدة حال: كلّ واحد منهم يتآلف مع آخرين على شاكلته، فتقوم بينهم روابط أخوّة وعلاقات ودّ منها ما ينتهي مع التخرّج، ومنها ما يدوم مدى الحياة.

وسكّان المبنى الداخلي على أنواع، منهم العادي ومنهم من له صفة أو أخرى يتميّز بها. عمر الشيخ، مثلاً (وهو ألماني الأمّ، من بيروت)، يعتبر مثالاً في الجدّية، وهو لا يفترق عن صديقه هنري برودي (سكوتلاندي عراقي الأمّ، من بغداد). الاثنان معاً يشكّلان مرجعاً لضمان حسن السلوك وحلّ المشاكل بين زملائهما.

توماس لوري ساعاتي (من الموصل) يلبس النظّارات الثخينة ويتباهى بحفظه صفحة أو صفحتين من القاموس الإنكليزي يومياً عن ظهر قلب، وهو شغف بالجدل في الدين وله اهتمام خاص بنبوءات دانيال ورؤيا يوحنّا اللاهوتي من الكتاب المقدّس. خطّار عماد (من ضهور الشوير) له نظريّات في الفلسفة يتحدّث عنها للمهتمّ وغير المهتمّ. يعقوب بوزغلو (من القدس) دائم الشكوى من مقاطعة الآخرين له لكونه يهوديّاً، غير آبه بوجود كثيرين غيره من اليهود في المدرسة (ومعظمهم من العراق) لا يشكون من مثل هذه المقاطعة. بل إنّ هؤلاء اليهود، هم أيضاً، يتحاشون التعاطي معه بسبب قذارته وبعض عاداته الشخصيّة المقرفة، ومنها الطريقة التي يحكش بها أنفه. يوسف السروجي يهوى التمثيل ويقوم بدور البطل الرومانطيقي في المسرحيّات التي تنظمّها المدرسة، فيما يتخصّص زميله مصطفى سليمان (من الرملة) بدور الشيخ الحكيم الذي يلجأ إليه الناس في الملمّات لأخذ نصحه. سلامة هنيدي وجلال إيراني (من فلسطين) لا يفترقان عن عزرا خضراوي (من العراق): ثلاثتهم يرتدون القنابيز مساءً، ومن فوقها العباءات، ويفترشون الأرض خارج غرفتهم ليقيموا مجلساً عربيّاً يتبادلون فيه النكت والنوادر، والآراء حول من هو «ملطوش» من الأساتذة (أي غبّي قابل للتملّق)، ومن هو غير «ملطوش».

ولم يطل الوقت حتى تبيّن لي أن المدرسة لا تتعامل مع الطلاّب الداخليّين بالتساوي، وأنّ هؤلاء يتألّفون في الأقل من طبقتين: واحدة تنعم باهتمام خاصّ من الرئيس وكبار الأساتذة، وأخرى لا

تنعم بمثل هذا الاهتمام. وعبثاً حاولت اكتشاف قاعدة ثابتة لهذه التفرقة. فالمقرّبون لم يكونوا جميعاً نجوم رياضة أو مسرح، أو طلاّباً متفوّقين، أو ممّن يتميّز بجميل الأخلاق أو وافر الغنى. ومن غير المقرّبين من كانت له ميزات أفضل المقرّبين. لكنّ التفرقة، على ذلك، كانت موجودة. أضف أنّ أفراداً من المقرّبين، من الصفوف العليا، كانوا يعيّنون عرفاء (prefects)، تبعاً لتقاليد كُبريات المدارس الداخليّة في بريطانيا، فتُعطى لهم امتيازات ويُعترف لهم بسلطات تعطيهم سطوة على غيرهم، وبخاصّة على غير المقرّبين. ولم يكن أرباب المدرسة مستعدّين لسماع أيّ شكاوى من تصرّف عريف. أضف أن حظّ الصغار من الطلاب لم يكن كحظّ الكبار منهم، إذ كانت تُناط بالصغار، مثلاً، مهام التنظيف، من كناسة وشطف ومسح، وكذلك الخدمة في غرفة الطعام بالمداورة، وكلّ ذلك تحت إشراف العريف المناوب. وكان الأساتذة، كبارهم وصغارهم، يحابون العرفاء وغيرهم من الطلاب المقرّبين من الإدارة، فيتنزّهون معهم في ساحة المدرسة غارقين في الحديث في فترات الفراغ، ويسامرونهم في الأمسيات، دون اكتراث بالآخرين.

هذه المحاباة كانت تصل إلى غرفة الطعام، حيث للعرفاء طاولة خاصّة يترأّسها أستاذ مناوب ويقدّم عليها أفضل الموجود (أو هكذا كنت أتصوّر). والموجود سيّىء على كلّ حال، نوعاً وكمّية، نظراً لظروف الحرب ونظام التقنين الذي صار مفروضاً آنذاك على البلاد. الأرز شبه مفقود، يستعاض عنه بالبرغل أو بالبطاطا المسلوقة والمهروسة على الطريقة الإنكليزيّة. والخبز من الذرة والشعير بدلاً من القمح، كثيراً ما يأتي برتقالي اللون وخالياً من الليونة. والسكّر

غير مكرّر، ومن ذلك لزوجته ولونه البنّي القاتم، وكلّ ما يقدّم من الحلوى أو المربّيات يعكس نوع هذا السكّر لوناً وطعماً. واللحم غالي الثمن، فيكاد مطبخ المدرسة لا يقدّمه إلاّ مفروماً، وبكمّيات قليلة. والبيض لا يقدّم إلاّ مرّتين أو ثلاثاً في الأسبوع، بيضة واحدة لكلّ فرد مسلوقة للفطور أو مقليّة للعشاء. وأرخص ما يكون هو الملفوف، يقدّم مع البرغل على شكل يخنة قبيحة المنظر وكريهة الطعم كنّا نسمّيها «يخنة الشراطيط». كانت سعادتنا في اليوم الذي تقدّم فيه المعكرونة، وأكثر من ذلك يخنة الفاصوليا اليابسة، وليس الخضراء، نأكل منها حتى الشبع. وكان لحم البقر المعلّب (corned beef) الذي أدخله الجيش البريطاني إلى بلادنا إثر احتلالها، ربّما لأول مرّة، هو أيضاً من مآكلنا المفضّلة، يقدّم لنا للعشاء بين الفترة والأخرى مع الفاصوليا المعلّبة.

كان يومنا المدرسي يبتدئ في السادسة والنصف صباحاً: نستفيق على صوت الجرس فنغتسل ونلبس ويوضّب كلّ منّا سريره، ثمّ نتّجه إلى تناول الفطور، ومن بعده إلى قاعة الاجتماعات في مبنى التدريس المقابل لمبنى السكن. نقضي هناك نصف ساعة نستمع فيها إلى عظة من الرئيس «مستر ترتل» أو أحد أعوانه، ونرنّم بالإنكليزية ترانيم مختارة تتحدّث عن مجد الله وأفضاله، والأخوّة بين البشر، ومكارم الأخلاق، دون أن يكون فيها إشارة تذكر إلى عقيدة تختصّ بالدين المسيحي دون غيره. بعد ذلك نتفرّق إلى الصفوف، وهي مختلطة بين طلاّب داخليّين وخارجيّين من قرية برمّانا وجوارها، شبّاناً وبنات. وتتتالى الحصص، منها في الصباح، ومنها بعد الظهر عدا يومي الأربعاء والسبت. ومن هذه

الحصص واحدة للخطّ الإنكليزي يتولاّها الرئيس ترتل نفسه، وأخرى للكتاب المقدّس تتولاّها «مِسّ عقل» (وهي فريدة عقل التي تَعَلَّم الكولونيل لورانس الشهير العربيّة على يدها قبل اندلاع الحرب العالميّة الأولى، وكثيراً ما حدّثتنا عنه). وكانت المدرسة تخصّص للطلبة الداخليّين ساعتين إجباريّتين لتحضير الدروس بعد العشاء، كلّ يوم عدا السبت، إمّا في قاعة المكتبة أو في غيرها من القاعات الكبرى.

هذا النظام المدرسي القاسي نسبيّاً كان يخفّف منه بالنسبة إلينا جمال القرية ببيوتها الحجريّة القديمة التي يعلوها القرميد الأحمر، وبغابات الصنوبر المحيطة بها من كلّ جانب نزولاً باتّجاه البحر من جهة، وإلى أسفل الوادي الفاصل بين مرتفعات المتن من الجهة الأخرى. وموقع المدرسة إلى الجهة الشماليّة من الطريق العام: منحدر واسع من الأرض تربط الأدراج الحجريّة والطرق الترابيّة بين أطرافه، وينتهي إلى منبسط حرجيّ يسمّى «الفُلَيسة»، عند مشارف قرية رومِيَة. ويتبع هذه الأرض مرتفع إلى الجهة الأخرى من الطريق العام يسمّى «الرُوَيْسة». وفي كلّ من الرويسة والفليسة بيت كبير مهجور منفرد كان في السابق مسكناً لأسرة إنكليزية أو أخرى من «جمعيّة الأصدقاء»، فصار يعتبر بعد ذلك «مسكوناً» من الأشباح. أمّا مباني المدرسة، فكانت تقتصر آنذاك على سبعة: كنيسة «جمعيّة الأصدقاء» المسمّاة «بيت الاجتماع» (meeting house)، وإلى جانب هذه الكنيسة غرفة ملتصقة بها مخصّصة لخدمات نعيم، حلاّق المدرسة، يلي ذلك مبنى التدريس ومبنى الطلاّب الداخليّين «الكبار» ثمّ بيت

الرئيس (وأسفله المطبخ وغرفة الطعام). وجميع هذه الأبنية إلى جانب الطريق العام، وإلى الأسفل منها مبنى الطلاّب الداخليّين «الصغار» إلى جهة، ومبنيان إلى الجهة الأخرى لما كان حتى وقت قريب مستشفى تابعاً للمدرسة، ثمّ أُقفل.

ولم يمض الفصل الأوّل على وجودي في برمّانا حتى قدمت قوّات بريطانيّة وأوستراليّة إلى القرية، فاحتلّت مبنى التدريس ومبنى الداخليّين «الكبار» وبيت الرئيس من المدرسة، بالإضافة إلى المبنيين الخاليين للمستشفى. فانتقل الرئيس وعائلته إلى البيت المهجور بالفليسة، وتفرّقنا نحن بين مبنى الرويسة، ومبنى «الصغار» حيث أصبح مسكني. وكان علينا نحن أن نقوم بنقل الأثاث إلى هذه الجهة أو تلك. وصارت صفوف القسم الثانوي بعد ذلك تعقد في الرويسة، بينما بقيت الصفوف الابتدائيّة تعقد في مبنى «الصغار». وهكذا تضعضعت أحوالنا حتى بدايات العام الدراسي التالي.

ربّما كان بإمكان إدارة المدرسة أن تحول دون احتلال القوّات البريطانيّة والأوستراليّة لأربعة من أهمّ مبانيها، ودون استيلائها على ملاعب كرة القدم وكرة السلّة والكرة الطائرة هناك، التي حرم الطلاّب منها. لكنّها لم تفعل ذلك. والمعروف عن «جمعية الأصدقاء» أنّها لا تقرّ مبدأ الحرب ولا تجيز لأتباعها القتال، عملاً بتعاليم المسيح. لكنّ الواقع، على ما بدا لي، كان غير ذلك. قام أحد الطلاّب ذات يوم برسم الصليب المعقوف (شعار ألمانيا النازيّة) على مدخل مبنى الرويسة. وكان مقرّراً أن تلغى الدروس في ذلك اليوم لنقوم برحلة إلى قناطر الزبيدة، في وادي

نهر بيروت. فجمعنا الرئيس ترتل، طالباً من الذي قام برسم الصليب المعقوف أن يقرّ بما فعل لينال عقابه، على أساس أن ما قام به يضرّ بالمدرسة. وعندما لم يقرّ أحد بهذا الذنب، قرّر الرئيس أن يقتصّ من طلاّب المدرسة جماعيّاً، فألغى الرحلة التي كنّا متحمسيّن للقيام بها، وأعادنا إلى الصفوف.

عشت ما تبقّى من تلك السنة في مبنى «الصغار» الذي يديره أخي سامي. وفي الطابق الأعلى من هذا المبنى جزء مخصّص للداخليّين من البنات، ومنهنّ سيلفي بدّور وأختها عبلة من بيروت، وأفلين درويش وأختان لها من بغداد. والمشرفة على البنات «مِسّ بهجة» (بهجة الأشقر، من جوار برمّانا)، تساعدها سميرة سدراسي (والدها قسّيس بروتستانتي مصري متزوّج من قريبة لنا). و«مِسّ سدراسي» (كما كنّا نسمّيها) صبيّة جميلة، دائمة الابتسام، تجيد الغناء: تطلب منّي أحياناً أن أرافقها على البيانو وهي تغنّي، فتعجب من قدرتي على مماشاة أيّ نغم دون أن يكون أمامي كتاب موسيقى، وإن لم أكن ماهراً في العزف. (لا أزال حتى اليوم أسمع صدى صوتها وهي تغنّي The Last Rose of Summer و Home Sweet Home.)

عند انتقالنا إلى مبنى «الصغار»، أضاف أخي سامي سريرين إلى غرفته الخاصّة، واحد لي، والآخر لأنيس السروجي. وفي يوم من أيّام الآحاد استغلّ أخي العطلة ليذهب إلى بيروت، فاستضافتني «مِسّ سدراسي» إلى غداء شهيّ في غرفته على حسابها: قطعة كبيرة من لحم البقر «الفيليه» مقليّة مع البطاطا والبازلاء، مع خبز فرنسي ممتاز مطلي بالزبدة، ثمّ تين مطبوخ

بالسكّر (من مختزنات أخي سامي)، وبوظة مع الكريما مغطّاة بصلصة الشوكولاته. وجد أخي آثاراً لهذه الوجبة في غرفته عندما عاد مساءً من بيروت، وهو الذي كان يُشهد له بقدرات بوليسيّة عجيبة، فأنّبني تأنيباً شديداً على قبولي دعوة للغداء كلّفت مضيفتي جزءاً كبيراً من راتبها الشهري المحدود، وطردني من عنده ليحلّ مكاني رمزي الشيخ، أخو عمر. فصار مسكني بعد ذلك في «قاووش» المبنى، وهو غرفة كبيرة فيها ما لا يقلّ عن أربعة وعشرين سريراً، وليس فيها باب أو شبّاك واحد يُحكم إغلاقه. وهناك قاسيت مرارة ذلك الشتاء، وأيدي جميع الذين في تلك الغرفة تتورّم وتلتهب من شدّة البرد.

كان جاري ورفيقي في القاووش نقولا ينّي من بيروت، وأبوه ديمتري ينّي من التجّار البارزين في مانشستر، بإنكلترا. وحسن ينّي، أخو نقولا الأكبر، يسكن في مبنى الرويسة. وكلاهما يحمل الجنسيّة البريطانيّة. وكان لنقولا، وهو أصغر منّي بقليل، حدس ثاقب في أمور الدنيا، لا تخفى عليه خافية من مقاصد الناس وخبائثهم، فتعلّمت منه أشياء كثيرة كانت بعدُ غامضة بالنسبة إليّ، لاعتباري حتى ذلك الوقت بأنّ كلّ ما يقوله الناس صدقٌ. ومع بداية الربيع درجت العادة بيني وبينه أن نتمشّى معاً بين أشجار الصنوبر في أوقات الفراغ، مستأنفَين الحديث كلّ مرّة من حيث انقطع في المرّة السابقة: يلفتني عند الحاجة إلى أيّ سذاجة تظهر منّي دون أن يسخر منها، مبيّناً لي حقيقة الأمر المتعلّق بها بصراحة ووضوح.

وهكذا انتهى العام الأوّل من وجودي في برمّانا، وعدت لأقضي عطلة الصيف الطويلة في بحمدون. لكنّ جزءاً من برمّانا

انتقل معي إلى هناك. نقولا ينّي وأخوه حسن يأتيان إلى القرية لزيارتي كلّما سنحت الفرصة، ومعهما في معظم الأحيان سيلفي وعبلة بدّور وأمّهما. صلاح حفّار وأهله، من دمشق، يقضون الصيف في بحمدون المحطّة، ومعهم ابن عمّهم كمال وأبوه رفعت (وهو من التجّار السوريّين المرموقين بمانشستر، وزميل لديمتري ينّي، أبو حسن ونقولا). ومن طلاّب برمّانا «الشوام» من كان يأتي من دمشق لزيارة أولاد الحفّار في بحمدون المحطّة، فنلتقي بهم عندهم.

كانت القوات البريطانيّة والأوستراليّة بدأت تنسحب من برمّانا عندما عدنا إليها في بداية العام الدراسي التالي، وقد أخلت هذه القوات المبنيين من المدرسة اللذين كانا للمستشفى، فحللنا فيهما. وانتقلت صفوفنا، هي أيضاً، إلى هناك. ثمّ انسحب ما تبقّى من العسكر من بقيّة المباني المحتلّة، مخلّفاً وراءه ما لا يوصف من القذارة، فكادت أيدينا تهترىء من حفّ جدران هذه المباني بورق الزجاج لإزالة الأوساخ الدهنيّة العالقة عليها قبل أن يتمكّن عمّال المدرسة من إعادة تأهيلها، دهاناً وطرشاً. وكان علينا أن نتعاون مجدّداً في نقل الكتب والكراسي والطاولات والخزائن والأسرّة للعودة إلى هذه المباني بعد غياب أكثر من سنة عنها. وأصبح مسكني بالتالي في غرفة ذات ستّة أسرّة يشاركني فيها أنيس وموريس السروجي، وشفيق عبد الوهّاب (من طرابلس)، ورمزي الشيخ، وكمال حفّار.

موريس السروجي لا ينام قبل أن يكمل جميع واجباته اليوميّة، وهو في الوقت ذاته دائم السعي لإرضاء الآخرين. ابن

عمّه أنيس يتصرّف وكأنّ لديه خطّة مرسومة مفصّلة لحياته، لكلّ شيءٍ فيها وقتُه. رمزي الشيخ دائم الحركة، وكلامه لا ينقطع: يتباهى بكون أمّه ألمانيّة، ويعتبر الألمان خيرة البشر وأقواهم، وإن كانوا بدأوا يخسرون الحرب. (أبوه طبيب بيروتي احتجزه الإنكليز في معتقل الميّة وميّة، بجوار صيدا، منذ دخولهم البلاد، تحسّباً لميوله الألمانيّة، وأمّه تُعيله، هو وأخاه عمر، عن طريق عملها رئيسة للممرّضات في مستشفى المقاصد.) شفيق عبد الوهّاب هو مصدر التسلية في الغرفة، يحبّ النكتة والمرح، وكثيراً ما يتحدّث بكلمات من اختراعه: يدّعي المهارة، مثلاً، في لعبة «الكروكيزو»، وعبثاً نحاول أن نفهم منه طبيعة هذه اللعبة. ولم يكن على قلب شفيق همّ إلاّ تزويج معلمته «مِسّ شمعون» التي بلغت من العمر ما بلغت دون أن تجد لنفسها عريساً مناسباً. وكمال حفّار رياضي خلوق، جميل الصوت ويجيد النظم باللغة الإنكليزيّة. فرض عليه والده الاهتمام بصحّته لأنّه وحيده، وهو لذلك يتناول العقاقير والفيتامينات المعيّنة له بانتظام، مع أنّ صحّته ممتازة.

هؤلاء الخمسة كانوا جميعاً معي في مبنى «الصغار» سابقاً، أضف إليهم ثلاثة مقرّهم في الغرفة المواجهة لغرفتنا، وهم السويسري كريستيان ويزر (Christian Wieser) الخبير في أنواع الفطر، وما يؤكل منها وما لا يؤكل، والأخوان الدانيماركيّان أريك ومُونز جيليف (Erik & Mogens Geleff): والد كريستيان يدير المعهد السويسري للعميان في بلدة غزير بمنطقة كسروان، ووالد أريك ومونز قسّ يرأس الإرسالية البروتستانتيّة الدانيماركيّة في

بلدة النَبك بسوريّا. والأخوان، على عكس كريستيان، يتكلّمان العربية بطلاقة وبلهجة أهل النَبك شبه البدويّة. قامت معركة بينهما ذات مرّة وسألنا عن السبب، فتبيّن أن أريك قال لأخيه «بامية، بامية»، فأغضبه ذلك لأنّه يكره يخنة البامية.

التحق أخي سامي في تلك السنة بفرع الزراعة ومعهد الموسيقى بالجامعة الأميركيّة في بيروت، ولم يعد عليّ رقيب من أهلي في برمّانا، فشعرت بمزيد من الحرّية لهذا السبب، أعمل ما أشاء ضمن قوانين المدرسة، ولا يعاتبني أحد. وكانت النتائج التي حصلت عليها في السنة السابقة دون المستوى المطلوب، والرئيس ترتل يتخوّف من أن تأتي نتائج السنة الثانية من وجودي في المدرسة أسوأ من نتائج السنة الأولى. كلّ من حولي، من أساتذة وطلاب، يعتبر أن النتائج هي مقياس القدرة والتحصيل، وأنّ التنافس في الدرس للحصول على العلامات دليل على الطموح إلى المعرفة والتقدّم. وأنا أرى غير ذلك، إذ لم يكن التنافس من طبعي. لا يهمّني أن أعرف ما يحصل عليه غيري من تقدير، واعتبر التنافس على العلامات ضرباً من صغر العقل مرفوضاً منّي مبدئياً، وكذلك السعي إلى الجوائز والتسابق على الأوسمة. إذ كنت اعتبر طلبي للمعرفة أمراً خاصّاً جدّاً لا دخل للآخرين به.

جاء أخي سامي مرّةً في بداية السنة لزيارتي (ربّما بطلب من مستر ترتل أو استجابة لشكوى منه)، فحدّثني بهدوء لم أعهده منه سابقاً، راجياً إيّاي أن أُعير دروسي ولو قدراً معتدلاً من الاهتمام، حتى لا تضطرّ المدرسة إلى فصلي. كانت لديّ مشكلة، في الواقع، في

تعلّم الرياضيّات: لا قدرة لي على فهم المقصود في الجبر والمقابلات أصلاً، ناهيك عن حلّ المسائل. وكنت مستعداً للاعتراف بذلك. كنت أفهم مبادىء الفيزياء الأساسيّة على طريقتي، ويصعب عليّ التحكّم في تفاصيل الموضوع. أُحبّ البيولوجيا، وبخاصّة علم النبات: أتفحّص الطحالب والفطريّات والبقول في حقول برمّانا بمساعدة كريستيان ويزر، وأقرأ عنها الكثير في الموسوعة البريطانيّة وغيرها من المراجع، فأتعلّم غير المطلوب منّي في درس العلوم، ولا أتعلّم المطلوب. لا يعجبني ما يعيّن لي للقراءة في حقول الأدب العربي والإنكليزي والفرنسي، فأهمله وأقرأ مكانه ما يحلو لي في اللغات الثلاث، وأحفظ عيون القصائد من شعرها غيباً. يستهويني علم الموسيقى النظري حتى يصبح بإمكاني كتابة أيّ لحن يخطر في ذهني دون الرجوع إلى البيانو لأتحقّق من صحّته، وعبثاً تحاول مسز ترتل أن تجعلني أتقن العزف على أيّ آلة بسبب عدم التزامي بالتمارين الضروريّة. وهكذا بقيت معلوماتي وقدراتي تتوسّع وأنا أُهمل دروسي، فتأتي نتائجي المدرسيّة سيّئة في أحبّ المواضيع إليّ كما في أبغضها. وَعدت أخي سامي بأنّي سأحاول جهدي في السعي إلى النجاح المطلوب منّي، وأنا أعرف في قرارة نفسي بأنّي لن أتمكّن من الوفاء بهذا الوعد.

رجعت الحياة الطبيعيّة إلى المدرسة بعد عودتنا إلى المباني الأصيلة لها. ولم يعد المرور على أي طريق في برمّانا محظوراً علينا بعد خروج العسكر البريطاني والأوسترالي من القرية، فصار بإمكاننا أن نتجوّل فيها وفي جوارها حيث نريد. ولم يكن الشتاء في تلك السنة قاسياً إلى الحدّ الذي كان عليه في السنة التي

سبقتها، فوفّر لنا ذلك أشهراً من الجوّ الربيعي المناسب لرحلات على الأقدام إلى مختلف الجهات. وهكذا استطعنا أن نتعرّف، أخيراً، على المنطقة كاملها وما فيها من قرى وبُقاع ومتنزّهات، نزولاً في الوديان وصعوداً في الجبال. نأتي هنا أو هناك على مصنع خرب للحرير، أو آخر أعيد تأهيله للعمل خلال الحرب بسبب زيادة الطلب على الحرير الضروري (كما فهمنا) لصنع المظلّات للطيّارين، فيسبح القادرون منّا على السباحة في بركة المصنع المملوءة بماء المطر. توقّفنا مرّة للأكل والاستراحة عند نبع العرعار قرب قرية بعبدات، ثمّ تجوّلنا في الغابات حول هذا النبع، فرأينا السنجاب يقفز متنقّلاً بين أغصان الشجر. ولم أكن أعلم بوجود السنجاب في ديارنا قبل مشاهدتي له هناك.

في تلك الأثناء كنت أحاول أن أحسّن وضعي المدرسي ولا أنجح في ذلك، إذ بقيت منشغلاً عن الدروس المعيّنة لي بهواياتي الجانبيّة. ولعلّ العَروض الإنكليزي كان جلّ ما تعلّمته في تلك السنة حتى الإتقان، وذلك في صفّ كان يعلّمه مستر ترتل. شرح لنا الأشكال الأساسية للشعر الإنكليزي، المقفّى منه وغير المقفّى (blank verse)، وعلّمنا البحور لهذا الشعر وأنواع الإيقاع الممكنة فيها. ثمّ درّبنا على تقطيع الأبيات من كلّ بحر حتى صار بإمكاني أنا (في الأقّل) أن أقوم بمثل هذا التقطيع بمفردي، بل وأنظم الشعر بالإنكليزيّة. ثمّ جاء دور مسز ترتل لتعلّمنا الربط بين الشعر واللحن ليصبح أغنية.

قالت أن أساس اللحن السليم أن يقابل كلّ ارتفاع في النغم هبوط، وأن ينتهي اللحن بأكمله إلى حيث ابتدأ، شدّاً ينتهي

بالإرخاء. ثمّ طلبت من أربعة منّا أن نتبرّع بأسمائنا لنقوم بتجربة في هذا المجال، ففعلنا. فأخذت مسز ترتل هذه الأسماء ورتّبتها مكرَّرة بالتهجئة الإنكليزيّة كالتالي:

كمال صليبي	كمال صليبي
منير جبّور	منير جبّور
هُدى رزق	هُدى رزق
ميشال مجدلاني	ميشال مجدلاني

بعد ذلك طلبت منّا تقطيع هذه الأسماء كما رتّبتها بالطريقة التي علّمنا إيّاها زوجها، ومن بعده تحويل هذا التقطيع إلى إيقاعات صامتة، ثمّ إلى إيقاعات منغمة يرتفع النغم فيها ثمّ يهبط، ويشدّ ثمّ يُرخي. فقمنا بهذا العمل معاً. وجاءت النتيجة لحناً لا بأس به بعد أن تجرّد من الأسماء المكرّرة التي بُني عليها. فأخذت مسز ترتل هذا اللحن ونسّقته بحيث يمكن عزفه على آلات مختلفة، محوّلة إيّاه إلى قطعة موسيقية تلعبها أوركسترا المدرسة في حفلة التخرّج عند نهاية السنة. وأنا لاعب الكمان الكبير (cello) في هذه الأوركسترا.

وانتهى ذلك العام، وأُقيمت حفلة التخرّج. وتسلّم المستحقّون شهاداتهم، ووزّع الرئيس شارات المدرسة على العرفاء تقديراً لهم، وهم الذين كان لهم وحدهم الحقّ في إبراز هذه الشارات على جيب السترة طوال الحياة إذا أرادوا. ثمّ قمنا بعزف القطعة الموسيقيّة التي كان لي ضلع في تأليفها، ومن بعدها نشيد المدرسة. وكان ذلك آخر يوم لي فيها، وإن لم أكن أعرف هذا الواقع بعد.

في صيف ذلك العام جاء مستر ترتل إلى بحمدون ليقضي يومين في زيارتنا. وكان شديد الإعجاب بِأبي، يحترمه ويعتبره عقلانيّاً (rational). اختلى بأبي عند وصوله وأخبره أنّي رسبت في جميعِ المواضيع رسوباً مطلقاً، وأنّ أساتذة المدرسة توصّلوا إجماعاً إلى قرار بأنّي «غير قابل للتعليم» (unteachable). أضاف مستر ترتل بأنّه لاحظ، هو، اهتماماً لديّ بالحيوان والنبات، وأنّ لأبي مزرعة في بطلّون فيها كروم وأبقار، فلماذا لا يرسلني للاهتمام بهذه المزرعة بدلاً من الاستمرار في تحمّل نفقات تعليمي الذي لا جدوى منه؟ أجابه أبي (كما علمت لاحقاً) أنّه يعرف ابنه جيّداً، وهو واثق من قدرته على التعلّم. وأنّ ابنه له طبع «مستقلّ» (independent، وأبي يلفظها indebendent بالباء، على الطريقة العربيّة)، ومن النوع الذي يتطلّب مدرّسين يحترمون هذه الميزة فيه. والواضح أن أساتذة مدرسة برمّانا ليسوا من هذا النوع. وهو مستعدّ لتعيينهم مدبّرين للكروم ورعاة للأبقار في مزرعته ببطلّون في حال قرّرت المدرسة تغيير طاقمها من المعلّمين.

التقاني مستر ترتل على حدة قبل نهاية زيارته لنا، فأخبرني عن قرار المدرسة بشأني، عارضاً عليّ أن أعود إليها في السنة التالية فأتابع درس الموسيقى فيها، أو ربّما غير الموسيقى من الفنون، ويُترك لي الخيار للاهتمام بما شئت. فشكرته على عرضه، موضحاً له أنّي قابل بقرار المدرسة كما هو لكونه محقّاً، وسوف أحاول بالتالي أن ألتحق بمدرسة أخرى إذا أمكن.

٦

بداية من جديد

في خريف ١٩٤١، بعد التحاقي بمدرسة برمّانا بشهرين تقريباً، أعلن الجنرال كاترو (Georges Catroux) استقلال لبنان باسم حكومة «فرنسا الحرّة». وأخذ الناس يتهكّمون في حديثهم عن هذا الاستقلال، ويقولون بأنّه ليس أكثر من «ضحك على الذقون». وصدر آنذاك مقال لميخائيل نعيمة بعنوان «قالوا استقلّ لبنان»، وافترضتُ أن المقال لا بدّ أن يكون تهكّماً من النوع المألوف، نظراً لعنوانه، فلم أقرأه. وصرت أسمع بعد ذلك عن ألفرد نقّاش رئيساً للجمهوريّة، ومن بعده عن أيّوب ثابت وبترو طراد رئيسين للدولة بالتتالي، دون أن أعرف كيف وصل أيّ من هؤلاء إلى منصبه. وكان أيّوب ثابت، من بينهم، بروتستانتيّاً من بحمدون، تربطنا به صداقة وعلاقة نسب. يقضي الصيف في بحمدون، فلا يقيم في بيته بل في خيمة تنصب له على مرتفع عند مدخل القرية. وأبي يعتبره مهووساً متهوّراً، وإن كان يحبّه.

في بداية صيف ١٩٤٣ سمعت أبي يقول بأنّ «أخانا» أيّوب ناقص الإدراك، لأنّه لم يفهم بعد أن دور فرنسا كقوّة عظمى تملي إرادتها على بلادنا انتهى منذ سنتين ليصبح هذا الدور للإنكليز. ولذلك، فلا بدّ من أن يُخلع من رئاسة الدولة بتدبير من الإنكليز، فيستعاض عنه بمن هو أقلّ عناداً منه. وكان الجنرال كاترو يقضي ذلك الصيف في فندق «نبع الشقيف»، على بعد كيلومترين من بحمدون باتّجاه الغرب. ولنا أقارب يسكنون قرب ذلك الفندق أتردّد عليهم. سمعنا أصواتاً تتصاعد من حديقة الفندق ذات يوم: امرأة تتحدّث إلى أخرى بالفرنسيّة بصوت عالٍ خشن. فقيل لنا أن الليدي سبيرز (Lady Spears) تقوم بزيارة مدام كاترو. وفهمت بأنّ الليدي سبيرز هي زوجة الجنرال الإنكليزي السير إدوارد سبيرز (Sir Edward Spears) الذي بيده الحلّ والربط فيما يتعلّق بمصير بلادنا.

كانت البلاد تستعدّ للانتخابات النيابيّة في ذلك الصيف لتبدأ ممارسة استقلالها. والزعيمان الطامحان إلى رئاسة الجمهورية الشيخ بشارة الخوري، يرأس «الكتلة الدستوريّة» ويدعمه الإنكليز، والرئيس الأسبق إميل إدّه، يرأس «الكتلة الوطنيّة» ويدعمه الفرنسيّون. هذا ما كان يقال، إضافة إلى أنّ الكتلة الوطنيّة، في حال فوزها، تنوي الإبقاء على علاقات خاصّة مع فرنسا تحمي لبنان المستقلّ من جيرانه، في حين أنّ الكتلة الدستوريّة تنوي جعل استقلال لبنان مطلقاً غير مشروط، كما تريده إنكلترا. وخلال حملته الانتخابيّة جاء الشيخ بشارة الخوري إلى بحمدون يرافقه كميل شمعون، محامي أبي. وأثناء اجتماع وجهاء بحمدون بهما قال

الشيخ بشارة أن جماعة الكتلة الوطنيّة يتّهمونه بأنّه سوف يبيع البلاد للإنكليز، فأجابه أبي أنّه من الأفضل للبلاد أن تباع للإنكليز بيده على أن تُرهن للفرنسيّين بيد غيره.

كان أبي اشترى بيتاً لنا في رأس بيروت في تلك الأثناء، بشارع السادات، نظراً لوجود الثلاثة الكبار من إخوتي في الجامعة الأميركيّة. وتمّ قبولي، أنا وأخي الأصغر منير، في القسم الاستعدادي منها، شرط أن أعيد دراستي في الصفّ الذي لم أنجح به في برمّانا. وأخذني أبي قبل أيّام من بداية الدراسة إلى عيادة صديقه الدكتور نجيب سعد لفحص عينيّ. وبينما كنّا في غرفة الانتظار، دخل شخص ليعلمنا بأنّه تمّ انتخاب بشارة الخوري رئيساً للجمهوريّة في أوّل اجتماع للبرلمان الجديد.

كان الحديث يدور آنذاك عن اتّفاق تمّ بمباركة الإنكليز بين فريق يتزعّمه بشارة الخوري وآخر يتزعّمه رياض الصلح، يكون لبنان بموجبه شراكة بين المسيحيّين والمسلمين: يتخلّى المسيحيّون عن تحفظّاتهم بشأن عروبة لبنان، ويقبل المسلمون به وطناً لهم، ويكفّون عن المطالبة بضمّه إلى سوريّا، كما كانوا يفعلون في السابق (بداية ما صار يسمّى لاحقاً «الميثاق الوطني»). ومن المسيحيّين من بقي متحفّظاً تجاه هذا الاتّفاق، ومعقل هؤلاء في بيروت بمنطقة الأشرفيّة. ومنهم من تحمّس له أشدّ الحماس، ومعقل هؤلاء في رأس بيروت حيث المسيحيّون والمسلمون يعيشون جنباً إلى جنب، وبينهم علاقات ودّ: الأُسَر تشارك بعضها في الأفراح والأتراح، والأولاد يذهبون إلى المدارس ذاتها ويلعبون معاً في الشوارع والأزقّة.

عندما بدأت الدروس في «الاستعدادية»، ذهبت إلى دكّان في شارع بلِس لأشتري بعض لوازم الكتابة. وصاحب الدكّان رجل اسمه حسن، هادىء الطبع وقليل الكلام في العادة. شكرته بعد أن أكملت مشترياتي قائلاً له «مرسي» (merci)، كما كانت العادة سائدة في تلك الأيّام. فاعترض على شكري له بالفرنسيّة، لافتاً نظري إلى أن ذلك لا يليق بوضعنا الجديد كشعب نال استقلاله، وله لغة تغنيه عن استخدام اللغات الأجنبيّة في كلامه. ودار الحديث بيننا حول اختيار عبارة عربيّة مناسبة للشكر تحلّ مكان الفرنسيّة «مرسي». اقترحت «يسلموا إيدَيك»، فتحفّظ على هذه العبارة، معتبراً إياها جبليّة، وأكثر استعمالها من المسيحيّين. وأسوأ منها «يسلموا ديّاتك» التي هي من كلام النساء من مسيحيّي الجبل، واستعمالها لا يليق بالرجال. ثمّ اقترحت «يكثّر خيرك»، فاعترض على هذه العبارة أيضاً لكونها تختصّ أكثر ما يكون بالجبليّين الدروز. وبعد استعراض غير ذلك من العبارات المألوفة للشكر، ورفضها الواحدة بعد الأخرى، وقع اختياره على عبارة «شُكراً». فأشرت إليه أن هذه العبارة فصيحة وغير عاميّة، فأجاب بأن العبارة الفصيحة لا بدّ من أن تصبح عاميّة إذا تكرّر استعمالها في الكلام الدارج. تباحثنا بعد ذلك مطوّلاً بشأن تعريب عبارات فرنسيّة أخرى مثل تحيّتَي «بونجور» (bonjour) للصباح و« بونسوار» (bonsoir) للمساء، فاتفقنا على أن نستعيض عن هاتين التحيّتين بعبارتي «صباح الخير» و«مساء الخير» بدلاً من «نهارك سعيد» و«سعيدة»، أو «صبحك بالخير» و«سِيك (أي مسّيك) بالخير».

بعد أسابيع من بداية السنة الدراسيّة، أقدم الفرنسيّون ذات ليلة على اعتقال بشارة الخوري ومعظم أعضاء حكومته، بمن فيهم

رئيس الوزراء رياض الصلح، وإقصائهم جميعاً إلى قلعة راشيّا بسبب إصرارهم على تعديل الدستور بشكل يتلاءم مع وضع لبنان الجديد كدولة مستقلّة. ثمّ أعلن الفرنسيّون حلّ البرلمان وعيّنوا رئيس الجمهوريّة الأسبق إميل إدّه رئيساً للدولة ريثما تتمّ ترتيبات جديدة للبلاد، علماً بأن إدّه كان يسعى إلى استقلال لبناني مرتبط بمعاهدة مع فرنسا، على غرار ما فعلت بريطانيا عندما أعلنت استقلال العراق ومصر في سنوات ما قبل الحرب. فقام على الأثر إضراب عام محكم التنظيم في بيروت دام أسبوعين، أقفلت خلاله جميع المدارس. وسار المتظاهرون في جميع أنحاء المدينة يندّدون بالإجراءات التي قام بها الفرنسيّون، وبقبول إميل إدّه لها، وهم يهتفون: «بدّنا بشارة، بدّنا رياض.» وكان دور الإنكليز في ما يحدث واضحاً منذ البداية، إذ إنّ المظاهرات المنطلقة من رأس بيروت، وعلى رأس المشتركين فيها طلاّب الجامعة الأميركيّة، كانت تتّجه أوّل ما يكون إلى مقرّ الجنرال سبيرز، عند «محطّة الداعوق»، فيخرج الجنرال الإنكليزي إلى شرفة مقرّه (كما كان يقال) ليتقبّل الهتافات. وما لبث أن سمعنا عن قيام حكومة استقلال في قرية بشامون بالجبل يقودها الأمير مجيد أرسلان، وعن اجتماعات سرّية لنوّاب من البرلمان في هذا المكان أو ذاك تقرّر في أحدها تغيير العلم اللبناني إلى ما هو عليه اليوم. (علماً بأنّ العلم اللبناني كان في الأصل العلم الفرنسي ذا الألوان الثلاثة، يضاف إليه رسم لشجرة أرز في الوسط الأبيض.)

غابت عنّا الصُحف خلال ذلك الإضراب، فصارت تصدر مكانها نشرة يوميّة مروّسة بعلامات استفهام، توزّع على البيوت ليلاً. قرأت في عدد من هذه النشرة عنواناً عريضاً يقول: «علّموا

أولادكم أنّ إميل إدّه خائن،» وأريت هذا العنوان لأبي، فلم يوافق على اعتبار إميل إدّه خائناً. بل إنّ إدّه، في رأيه، على صواب في تخوّفه من مطامع عربيّة لن تسمح للبنان أن يتنعّم في استقلاله إلاّ إذا كان هذا الاستقلال مضموناً من دولة قادرة على حمايته. واستفاض أبي بعد ذلك في حديث سياسيّ فهمت منه ما يأتي.

فرنسا، في رأيه، لم تؤذِ لبنان خلال انتدابها عليه. بل لولا الانتداب الفرنسي لما كان لبنان موجوداً. غير أنّ فرنسا لم تعد الدولة القادرة على الاستمرار في حماية لبنان من نفسه ومن جيرانه، وهي التي لم تتمكّن من حماية نفسها من الألمان. يبقى نوع من الحماية للبنان ضروريّاً، في اعتقاده، لكون العرب طامعين فيه، أو في الأقلّ متحفّظين تجاهه، وذلك عن جهل. إذ من طبيعة العرب حبّ النكاية والنيل من بعضهم بعضاً. يؤثرون التمتّع بالنكاية على ملاحقة مصالحهم بأساليب مفيدة. ومعظمهم يُساق بالعواطف بدلاً من العقل، ولذلك لا يتقدّمون. والأمر نفسه ينطبق على لبنان، إذ لا شيء أحبّ على قلوب المسيحيّين في البلد من نكاية المسلمين، والعكس بالعكس. إذ إنّ المسلمين في لبنان، من جانبهم، يطالبون بوحدة لا يريدونها في الواقع، لا مع سوريّا ولا مع البلاد العربيّة مجتمعة. وما الدافع لمطالبتهم بالوحدة إلاّ نكاية المسيحيّين.

إميل إدّه على حقّ من ناحية المبدأ. وما القول «علّموا أولادكم أنّ إميل إدّه خائن»، في نظر أبي، إلاّ محاولة رخيصة يقوم بها خصومه السياسيّون لتحطيم سمعته. والسياسيّون حقيرون في كلّ مكان، دون استثناء، وخصوصاً في بلادنا. يبقى الواقع بأنّ

السياسة التي يتبّعها بشارة الخوري وجماعته من «الكتلة الدستورية» هي الأذكى والأفضل للبنان. فهي تسعى إلى إحلال الوئام بين المسيحيّين والمسلمين في البلد، علّ النكايات تتوقّف بينهم أو تنحصر إلى حدٍّ معقول. وربّما كان في مصانعة الدستوريّين وحلفائهم من المسلمين للإنكليز ما يوفّر لاستقلال لبنان قدراً من الحماية عند الضرورة.

عاد أخواي بهيج وخليل ذات يوم من مظاهرة لطلاّب الجامعة الأميركيّة جابت شوارع بيروت حتى الأشرفيّة، حيث التقت بمتظاهرين من الجامعة اليسوعيّة والمدارس المارونيّة والكاثوليكيّة. والفريقان، في تلك الظروف، على قلب واحد، في الأقلّ مظهراً. كنّا جالسين للعشاء عندما وصل أخواي البيت وبدءا يخبراننا بتفاصيل ما حدث في ذلك اليوم، وكلاهما يظهر شديد الحماس لوحدة الموقف التي تحقّقت أخيراً بين شطري البلدة. واستمرّ أبي في تناول طعامه وهو يستمع إليهما إلى أن سألاه عن رأيه في الموضوع. فقال لهما بالإنكليزية، ربّما للتشديد: «لا تُغرّا بالمظاهر، فلو كان بمقدرة هؤلاء الذين اجتمعتم معهم اليوم أن يهدموا رأس بيروت حجراً حجراً لفعلوا ذلك دون تردّد، إذ لا يمكنهم فهم نهجنا في الحياة (because they cannot understand our way of life).»

كنّا نتردّد في الأمسيات خلال أسبوعي الإضراب على بيت زبيدة خلّوف، صديقة أُمّي، ومن بروتستانت عين زحلتا أباً عن جدّ. وأولادها نديم ونبيه وسعاد وسلام من أصدقائنا. فنلتقي في بيتها بابن أخيها، نعيم مُغبغب، المقيم عندها آنذاك لاجئاً من ملاحقة الفرنسيّين له، وعلى المكتب في غرفة نومه نسخة من الكتاب

المقدّس وإلى جانبها نسخة من القرآن. ونعيم مغبغب آنذاك شاب في مطلع العمر، ما زال أثر «حَبّ الشباب» ظاهراً على وجهه، على ما أذكُر، وهو قويّ البنية، مربوع القامة. شارك كميل شمعون في الاتّصال مع الإنكليز عندما كانت جيوشهم تتقدّم عن طريق الساحل لاحتلال لبنان (كما أخبرنا)، واستمرّ نصيراً لشمعون، بل على رأس مناصريه، بعد ذلك. وكان نعيم هو الذي يصدر (أو يشارك في إصدار) النشرة ذات علامات الاستفهام ويهتمّ بتوزيعها، فيخبرنا عمّا يحصل، يوماً بعد يوم. وجاءنا ذات مرّة بصورة للعلم الجديد أرانا إيّاها، فكانت لنا آراء مختلفة في أمرها.

كنت أعاني آلاماً في أسناني في تلك الأثناء، وأذهب إلى قريبنا الدكتور جرجي الصليبي، طبيب للأسنان، للمعالجة يوماً بعد يوم. وكان موقع عيادته إلى الجانب الشرقي ممّا كان آنذاك ساحة الدبّاس، وشرفة العيادة تطلّ مباشرة على تلك الساحة. كان عليّ أن أذهب إلى ذلك المكان وأعود منه مشياً، مروراً بساحة «البرج» (أي ساحة الشهداء)، بسبب توقّف «الترامواي» عن العمل خلال الإضراب. وإلى الطرف الشمالي من ساحة البرج السراي الصغير، من مباني الحكومة الموروثة عن العهد العثماني.

كنت أنتظر دوري في عيادة «الدكتور جرجي» ذات صباح عندما سمعت ضجّة عظيمة في الخارج، تتخلّلها هتافات ابتهاج. خرجنا جميعاً إلى شرفة العيادة لنرى ما يجري، فشاهدنا رتلاً من السيّارات يدخل ساحة الدبّاس من «طريق الشام»، وسيّارة واحدة في الأقلّ – وهي التي تقود الرتل – مكشوفة، يجلس على المقعد الخلفي منها بشارة الخوري بصلعته، ورياض الصلح

بطربوشه المائل، جنباً إلى جنب (على ما أذكر)، وعلى وجهيهما بسمة النصر. جمع غفير من الناس يعجّ في الساحة، وسكّان المباني حولها من النساء على الشرفات يرششنَ العطور على الرتل ومَنْ حوله. بشارة ورياض يرفعان أيديهما لتحيّة مستقبليهما، وهؤلاء – وكذلك الناس على الشرفات – يردّون التحيّة بالهتافات والزغاريد.

تركت عيادة «الدكتور جرجي» لأعود ماشياً إلى البيت عن طريق البرج. فإذا بجميع العائدين من معتقل راشيّا واقفون على شرفة الطابق الأعلى من السراي الصغير يحيّون الجماهير المحتشدة في الساحة. وقفت أتفرّج على هذا المنظر لكي ينطبع في ذاكرتي، ثمّ تابعت سيري باتّجاه رأس بيروت، وأنا أشعر بنشوة اعتزاز لم أشعر بها من قبل. لم تكن لديّ بعد معلومات واسعة في الأمور السياسيّة، لكنّي أدركت في قرارة نفسي ذلك اليوم، وأنا آخذ طريقي خلف مبنى السراي، متأمّلاً جدرانه القديمة من حجر الرمل، أن ما حصل عليه لبنان من استقلال، وهو البلد الصغير، هو استقلال حقيقيّ لا زيف فيه، وأين منه الاستقلال الذي أعطاه الإنكليز للعراق أو لمصر من قبل، وما زال هذان البلدان الكبيران، أرضاً وشعباً، يعانيان من شروطه.

بدا لي عندما انتهى الإضراب، وعُدنا إلى الصفوف، أنّ قلّةً من رفاقي تقدّرُ قيمة ما حصل عليه البلد من استقلال بما يشبه الأعجوبة، وبحيث تغيّر مجرى تاريخه. معظمهم يتبادل النوادر والنكات بشأن الظروف الطريفة التي ألقى الفرنسيّون فيها القبض على فلان أو فلان من الوزراء، وتلك التي حالت دون

القبض على آخرين. والجميع تقريباً يتهكّم في الحديث عن حكومة بشامون وإنجازاتها، وكيف أنّ شاحنةً للجيش البريطاني تعطلّت عند منعطف من الطريق عند مدخل القرية، والواضح أنّ تعطيلها في ذلك المكان بالذات كان مقصوداً، فلم يتجرّأ جماعة بشامون (كما قيل) أن يبعثوا إليها من يأتي بالأسلحة المكدّسة فيها، والمخصّصة لهم، حتى اضطرّ الإنكليز أنفسهم إلى القيام بهذا العمل. كان الرأي السائد بين رفاقي، على ما أذكر، أنّ ما حصل من البداية إلى النهاية لم يكن أكثر من تمثيليّة من إخراج الإنكليز قام فيها بشارة الخوري ورياض الصلح وغيرهم بما عُيّن لهم من أدوار، آملين بالأجر. وأنا أقول في نفسي أنّهُ ربّما كان كلّ ما شهدته أو أخبرت به تمثيليّة، لكنْ أين ذلك من النتيجة، وأين من يقدّر هذه النتيجة؟ وما كانت إلاّ أيّام حتى صعقت لسماع أحد رفاقي – وهو شابّ من فرن الشبّاك – يردّد لآخرَ أبياتاً من الزجل السياسي لأحد الظرفاء تنسب ما تنسب من الأغراض الدنيئة إلى كلّ من كان له دور في التمثيليّة المفترضة للاستقلال من رجال الدولة، وتنتهي إلى القول:

والشيخ بشارة ورياض   عــا راس الحرامــيّــة

التقيت بيوسف إيبش في الصفّ في أوّل يوم من ذلك العام الدراسي، وهو لم يتغيّر منذ أن كنّا معاً في المدرسة الابتدائيّة قبل خمس سنوات، فعادت الصداقة بيننا فوراً. وهو ما زال فَكِه الحديث، مُسَلّياً. أخبرني كيف دخل جندي أوسترالي سكران قبل سنتين إلى بيت قريبات له عجائز في دمشق، وهو تائه في شوارع

دمشق، فألقى في قلوبهنّ الذعر. فاتّخذن من ذلك الحدث بداية لتقويم جديد خاصّ بهنّ، مستقلّ عن التقويمين الميلادي والهجري، وصرنَ يقلنَ: «حدث ذلك بعد كذا شهر وكذا يوم من مجيء الأوسترالي إلى بيتنا.» وأخبرني أيضاً كيف أنّ أباه حسين إيبش أخذ ضيفاً له من وجهاء دمشق ليريه النعامة التي أضافها مؤخّراً إلى مجموعة الحيوانات الحيّة التي كان يعود بها من «السفاري» في إفريقيا، وهو الذي كان من كبار هواة «السفاري»، ووقف الزائر يتأمّل في النعامة مبدياً إعجابه بها، فردّت النعامة على إعجابه باقتلاع إحدى عينيه بنقرة واحدة.

في اليوم ذاته، على ما أذكر، تعرّفت على زميل آخر في الصفّ هو عفيف تلحوق. وعفيف شاب خلوق لائق، يفكّر مليّاً في ما يريد قوله قبل أن يتكلّم. والده الدكتور جميل تلحوق كان آنذاك وزيراً للصحّة. واكتشفنا في أوّل حديث بيننا أنّه كان صديقاً لأبي في كلّية الطبّ في الجامعة الأميركيّة، وهما من المنطقة نفسها من الجبل. تخرّجا معاً من الجامعة عام ١٩٠٥، وحالت الظروف دون أن يلتقيا مرّة واحدة منذ ذلك الوقت. لكنْ عندما ترشّح الدكتور جميل في الانتخابات النيابيّة الأخيرة على لائحة إميل إدّه، أصرّ أبي أن يعطي صوته لصديقه القديم، وإن كان ينوي التصويت للائحة المنافسة. فشطب اسم أحد المرشّحين الدروز على لائحة بشارة الخوري واضعاً اسم الدكتور جميل مكانه، على اعتراض من اعترض. وذلك دون أن يأتي إليه الدكتور جميل لطلب صوته. سرّ أبي ذلك المساء عندما أخبرته عن التقائي بعفيف، ابن صديقه، قائلاً لي أن آل تلحوق من صفوة

الناس. كان أجدادهم من «المشايخ الكبار» حكّام منطقة الغرب الأعلى من الجبل، حموا النصارى فيها خلال أحداث عام ١٨٦٠، وشجّعوا إلياس الصليبي وأخاه سليمان على إنشاء المدارس في المنطقة بإرسال أبنائهم وبناتهم إليها. ونحن نعتزّ بالصداقة التاريخيّة التي تربطنا بهم.

بعد أيّام دخلت غرفة الاستراحة في الطابق الأعلى من «روكفلر هول» (Rockefeller Hall)، مبنى التدريس، فوجدت عفيف تلحوق هناك جالساً إلى طاولة مع شاب أعلن عن نفسه مرّة في الصفّ أنّه يوسف أحمد الشيراوي، من البحرين، وأفادنا بمعلومات عن الروائي الفرنسي ألكسندر دوماس (Alexandre Dumas)، وهو يلفظ الاسم «أَلِقْثَنْدَر دُومَث»: لم نفهم شيئاً من كلامه بسبب لهجته البحرينيّة غير المألوفة لدينا بعد، وميله إلى اللثغ في لفظ «السين»، وسرعة كلامه (وكأنّه يريد أن يقول أشياء كثيرة ومختلفة، وجميعها مهمّ، في آن واحد)، أضف إلى ذلك حركته الدائمة وهو يتكلّم. وجدت في لقائي به جالساً مع صديقي عفيف مناسبة لأسأله عن موقع البحرين. أجاب بدهشة: «كمال، ما تعرف وين البحرين؟» أخذ ورقة من دفتره ورسم عليها خطوط خريطة للعالم العربي بأكمله بقلم رصاص، وبسرعة فائقة، يشير إلى كلّ جزء منها باسمه وهو يرسمه، إلى أن وصل إلى «الخليج الفارسي» (كما كان يسمّى الخليج آنذاك). وضع قلمه على نقطة في وسط الخليج، إلى أقصى الجانب الغربي منه، قائلاً: «البحرين هْنِي». ثمّ وضع الورقة التي رسم الخريطة عليها جانباً، وأخذ

أخرى رسم عليها خريطة تفصيليّة لجزر البحرين بأسمائها، مشدّداً على موقع بلدة «المحرّق» قائلاً: «هْنِي بيت يَدّي (أي جدّي) علي العبيدلي.» بعد ذلك بدأ الشرح المفصّل. وما كانت إلاّ دقائق حتى صارت لنا معرفة دقيقة بكلّ ما يتعلّق بالبحرين، من «عنزة أمّ السكيك» التي تخرج إلى الأزقّة في حرّ الظُهر لتأكل ما تجد فيها من ورق الجرائد والأكياس الملقاة، إلى «عاوشو المينونة» (أي عائشة المجنونة) التي تجوب شوارع المحرّق وهي تهذي، فاشتقّ البحرينيّون من اسمها فعل «عَوًّش»، بمعنى «هذى».

فرغ يوسف أخيراً من الكلام، فقال لي عفيف: «عجيب أنّك ربّما تعرف الكثير عن جزيرة فورموزا (التي هي اليوم تايوان) ولا تعرف شيئاً عن البحرين التي هي من بلادنا العربيّة.» والواقع هو أنّي لم أكن سمعت بعد حتى عن اسم فورموزا، ناهيك عن موقعها وأوصافها. وفي جلسة واحدة مع يوسف الشيراوي، صار لي معرفة كاملة بالبحرين وفهم للهجة أهلها. لكنْ لم يخطر ببالي في ذلك اليوم أن يوسف سوف يصبح لي مع الوقت – وهو الآتي من «ذلك القطر النائي» (حسب قوله) – صديقاً للعمر.

كان يوسف طالباً جديداً في المدرسة، يسكن في مبنى «سيج هول» (Sage Hall) للطلاب الداخليّين. وهناك يسكن أيضاً أحمد الخطيب، من الكويت، وهو من قدامى طلاّب المدرسة، يشترك في تحرير نشرتها الأسبوعيّة المطبوعة على «الميميوغراف» (وهي وسيلة لنسخ ما يطبع على الآلة الكاتبة حلّ مكانها النسخ الفوتوغرافي لاحقاً). ويوسف وأحمد، الذي صار هو أيضاً صديقاً

لي، يتباريان في المفاضلة بين البحرين والكويت كلّما سنحت الفرصة. وكان لنخبة من الطلاّب الداخليّين بيت خاص يسكنونه إلى جانب ملعب كرة القدم. (وإلى الجانب المقابل من الملعب، على ما أذكر، خنادق للعسكر حفرها الإنكليز بعد دخولهم بيروت عام ١٩٤١، فأبقوا فيها بضعة مدافع مضادّة للطائرات، لا تستعمل). هذا البيت كان ملتصقاً بمسكن الأستاذ منير سعادة، وهو الذي يشرف عليه، ولذلك أُطلق على البيت اسم «سعادة هول». ومن سكّانه صديقان لا يفترقان: خالد القرملي من مكّة، وألبير بلتكيان من عمّان. وكثيراً ما كنت التقي بخالد القرملي، فيخبرني عن مكّة وأهلها وعن الحجاز عموماً.

كان الأستاذ منير سعادة يدرّسنا التاريخ (بالإنكليزية) بالإضافة إلى درس آخر يسمّى Human Conduct ينظر في طبيعة الجنس البشري وأنماط تصرفّه في مختلف المجالات. وله أسلوب مشوّق في التعليم جعل من صفوفه في كلي الدرسين متعة. واستمرّ هو يدرّسنا التاريخ في العام التالي، بالإضافة إلى درس في «التقدّم البشري» (Human Progress) مكمّلاً لدرس السنة السابقة. والأستاذ سعادة، على ما فهمت، بروتستانتي من دمشق يحمل شهادة بكالوريوس في اللاهوت، وسوف يحصل قريباً على شهادة «أستاذ» (أي ماجستير) في العلوم السياسيّة من الجامعة الأميركيّة. زوجته أرمنيّة مصريّة من أسرة أبراهاميان، ولهما ابن صغير. وكنت، مثل غيري، أعتبر الأستاذ سعادة مثلاً أعلى لنا. ولذلك ارتبكت بل حزنت كثيراً عندما صدف وسمعته قبل تخرجّي من المدرسة الاستعداديّة بأسبوع أو

أسبوعين يقول لزميل له ما معناه: هذه البلاد لا نوى منها ولا مستقبل لها، وشعبها لن يتقدّم (أذكر أنه استعمل عبارة «دقّ الميْ مَيْ»، أو أُخرى مماثلة)، ولذلك فالأفضل للإنسان أن يرحل منها قبل فوات الأوان. والواقع أن الأستاذ سعادة غادر لبنان إلى أميركا في العام التالي أو الذي بعده ولم يَعُد.

كان معنا في المدرسة، من الطلبة الداخليّين في «سيج هول»، عدد كبير من اليهود العرب، أكثرهم من العراق، كما كان الحال في مدرسة برمّانا، وعدد أقلّ من يهود فلسطين الأوروبيّي الأصل، يتكلّمون معنا بالإنكليزيّة أو العربيّة المكسّرة، ومع بعضهم بعضاً بلغة خاصّة بهم غير العبريّة. ومن هؤلاء اثنان في صفّنا، واحد اسمه أوري كاتس (Ori Katz) والآخر كيفكوفيتس (Kivkovitz)، لا أذكر اسمه الأوّل (والعادة بين الطلاّب آنذاك أن تستعمل الشهرة بدلاً من الاسم الأوّل في المخاطبة، إلاّ بين الأصدقاء الحميمين.) كنت في ذلك الوقت أدرس اللغة الألمانيّة في أشهر الصيف لشغفي باللغات، فبدا لي أنّ اللغة التي يتكلّمها كاتس وكيفكوفيتس فيما بينهما تكاد تكون الألمانيّة، سوى أنّي لا أفهم منها إلاّ القليل. سألتهما عن الأمر، فأجابا بأنّ اللغة التي يتكلّمانها تسمّى بالإنكليزيّة Yiddish، وهي لغة يهود أوروبّا من ألمانيا شرقاً: لهجة من الألمانيّة مطعّمة بكلمات وعبارات خاصّة باليهود، ولها أدبها المستقلّ. وممّا أذكره بالنسبة إلى كاتس وكيفكوفيتس أنّا كنّا نتلقّى درساً ذات مرّة عن الكهرباء في مختبر المدرسة، وجاء أستاذنا فايز أسعد بقضيب من مادّة ما، حفّه بقطعة من فرو الهرّ ليظهر كيف أنّ هذا القضيب يتكهرب إذا ما حُفّ بهذا الفرو، وهو

الذي يسمّى بالإنكليزيّة «كاتس فور» (cat's fur). فصرنا نحن نسمّي هذا الفرو «كيفكوفيتس فور» (Kivkovitz fur)، ورفيقنا كيفكوفيتس «يجنّ جنونه» من ذلك.

ولم يكن هناك ما يميّز يهود البلاد العربيّة - وبخاصّة يهود العراق - عن غيرهم من الطلبة العرب إلاّ الاسم أحيانا (مثل «مير جبّاي» أو «إفرايم مَنَشِّه»). وأكثر هؤلاء شعبيّة صديق حميم لعفيف تلحوق اسمه إبراهيم مراد، من بغداد، كان من نجوم كرة القدم (على ما أذكر)، وكثيراً ما كنت ألتقي به في بيت تلحوق، سواءً في بيروت أو عالَيْه، حيث كان يعتبر فرداً من العائلة. لم يفوّت إبراهيم مظاهرة وطنيّة للطلاّب إلاّ واشترك فيها بكامل الحماس. (آخر ما سمعت عنه من صديقه عفيف مؤخّراً أنّه انتقل بعد خروجه من العراق إلى إيران ومكث هناك، يعمل في التجارة، إلى أن هاجر إلى إنكلترا.)

كان تحصيلي في المدرسة الاستعداديّة ببيروت أفضل ممّا كان عليه ببرمّانا إلى حدّ ما. بقيت لديّ مشكلة مستعصية مع الرياضيّات، حاول أخي بهيج حلّها بترتيب دروس خصوصيّة لي في الموضوع. واستمرّيت في تعلّم الموسيقى في تلك الأثناء في المعهد الوطني للموسيقى الذي كان يديره وديع صبرا في «حاووز الساعاتيّة» (مقابل ما هي اليوم أطلال فندق «هوليداي إنْ»): أُجيد الناحية النظريّة من الموضوع كالعادة، وأخفق في إتقان عزف البيانو والتشيلو. والتحقت في الوقت ذاته بجوق من الطراز الأوّل يسمّى Sacred Music Singers، يقوده قسّ بروتستانتي أرمني يدرس الطبّ في الجامعة الأميركيّة اسمه ديكران كسّوني، والأكثريّة

الساحقة من أفراد هذا الجوق من الأرمن. والتحقت أُمّي هي أيضاً بهذا الجوق، ترافقني مرّتين في الأسبوع للتمارين إمّا في مدرسة الأرمن خلف «السراي الكبير»، أو في قاعة مدرسة الأحد خلف الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة. نذهب ونعود بين رأس بيروت وباب إدريس مستقلّين «الترامواي»، ونمشي بين باب إدريس ومكان التمرين، ذهاباً وإياباً. وكثيراً ما كان سقوط الأمطار يداهمنا في طريق العودة، يرافقه برق بيروت ورعدها المدوّي، فنصل راجعين إلى البيت وثيابنا تقطر ماءً.

كنت أنا وأُمّي وسائر أعضاء الجوق، في مساء من ربيع ١٩٤٥، ننتظر من يفتح لنا قاعة مدرسة الأحد لبداية التمرين، ونحن واقفون في حديقة الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة، عندما جاء من يخبرنا بأن ألمانيا استسلمت إلى الحلفاء دون قيد أو شرط، وأن الحرب في أوروبّا انتهت. وفي طريق عودتنا إلى البيت، شاهدنا ما شاهدنا من مظاهر الابتهاج بنهاية الحرب: شاحنات عسكريّة فرنسية تطوف الشوارع، وبنات من ملاهي بيروت يرافقن فيها العسكر ويلوّحن بالأعلام الفرنسيّة، وشاحنات أخرى مليئة بالشيوعيّين ومعهم، هم أيضاً، نساء يلوّحن بالأعلام الحمراء، وعليها شارة المطرقة والمنجل.

أذكر أنّي قمت برحلة إلى «فوّار أنطلياس» في ذلك الربيع برفقة حسن ونقولا ينّي وسيلفي بدّور وآخرين من أصدقائهم. (المناسبة كانت وداع حسن ونقولا قبل مغادرتهما لبنان نهائيّاً للاستقرار في إنكلترا.) أخذنا «الترامواي» من محلّة الرُّمَيل إلى

الدَورة، وهي آنذاك امتداد من البساتين والحقول، لا مباني فيها سوى مصنع للبيرة (على ما أذكر) وبضعة بيوت متفرّقة بين أشجار من النخيل. والطريق من الدَورة إلى أنطلياس في معظمها برّية، وعلى بُعد منها من ناحية الجبل قرى صغيرة جميلة تحيط بها بساتين البرتقال. «فوّار أنطلياس» نفسه واحة محاطة بالبرّية. (هناك التقطت لنا الصورة التذكاريّة التي منها صورتي على غلاف هذا الكتاب، وأنا في السادسة عشرة من العمر.) وأذكر أنّنا توقّفنا في طريق العودة لنتأمّل الهضبة الداخلة في البحر التي عليها بيروت، والشمس تغيب من ورائها: صورة جميلة لبيروت كما عرفتها آنذاك.

في نهاية ذلك العام الدراسي، وهو الثاني والأخير لي في الاستعداديّة، تقرّر إجلاء ما تبقّى في سوريّا ولبنان من قوّات فرنسيّة. وأخذت فرنسا تراوغ في سحب قوّاتها من البلدين، فتقلقل الوضع وقامت المظاهرات والصدامات الدامية في الشوارع، ممّا اضطرّ مدرستنا إلى إلغاء حفلة التخرّج. فتسلّم المتخرّجون شهاداتهم، وأنا بينهم، من «مِسْتَر جابر»، القيّم على مكتب الإدارة. بعد ذلك دعانا رئيس المدرسة ليسلي ليفيت (Leslie Leavitt) إلى حفلة تكريم في حديقة بيته بشارع عمر بن عبد العزيز (حيث محلّات «فونتانا» اليوم). وقام الرئيس خلال الحفلة بتقديم تنبّؤات حول ما يكون عليه وضع كلّ واحد من المتخرّجين بعد خمس وعشرين سنة، وذلك على شكل قصّة جلّ ما أذكر منها بدايتها، بما معناه:

في (كذا) حزيران ١٩٧٠ وصل رئيس
الجمهوريّة العراقية إبراهيم مراد إلى
مطار بيروت حيث قام باستقباله
الشيخ عفيف تلحوق، رئيس الجمهوريّة
اللبنانيّة....

قاطعنا هذه البداية بموجة من التصفيق. ويبدو أنّ أحداً منّا لم يفكّر باستحالة ما ورد فيها: وجود يهودي على رأس جمهوريّة عراقيّة كانت في ذلك الوقت مملكة، ووجود درزي على رأس الجمهوريّة اللبنانيّة. تلك، على كلّ حال، كانت براءة ذلك العصر، لم تتغيّر إلاّ في وقت لاحق. وجلّ ما تحقّق من بداية تنبّؤات مستر ليفيت في تلك الليلة هو تحوّل العراق، بين عامي ١٩٤٥ و١٩٧٠، من مملكة إلى جمهوريّة.

٧

أيام الجامعة

في بداية صيف ١٩٤٥ قصف الفرنسيّون دمشق وقرّر الإنكليز إخراجهم من سوريّا بالقوّة إذا لزم، فطلبوا متطوّعين من لبنان يعرفون الإنكليزيّة ليساعدونهم في هذا العمل. وكان أخي خليل في جملة من تطوّع. (ما زالت عندي صورة له باللباس العسكري كجاويش sergeant في الجيش البريطاني.)

كان أخي بهيج في تلك الأثناء كثير الاتّصال بأصدقاء له ناشطين في السياسة، يجتمع بهم أو يتكاتب معهم. ومن هؤلاء من لم يكن من طلاّب الجامعة الأميريكيّة أو من خرّيجيها. وبدا لي أن صاحب كلمة الفصل في شلّة أخي بهيج هو رامز شحاده. وكانت تربط بيننا وبين بيت شحاذه - وهم من بروتستانت زحلة - صداقة عائليّة يعود عهدها إلى أواسط القرن التاسع عشر، وكثيراً ما نتبادل معهم الزيارات، أضف إلى ذلك رابط الجيرة بيننا وبين أهل رامز عندما كنّا مقيمين في «بيت

الصيداني» بشارع بْلِسّ، نحن في الطابق الرابع وهم في الطابق الثاني من ذلك المبنى. هناك كان يلتقي أخي برفاقه السياسيّين، فيدور بينهم من الحديث ما لا أفهمه.

كان لرامز شحاده أخٌ أصغر منه (لكنْ أكبر منّي) يدرس الفلسفة والموسيقى بالجامعة ويتدرّب على الغناء في معهد الموسيقى فيها. وأنّا أتردّد على بيت شحاذة أحياناً لأرافقه على البيانو. كانت الاجتماعات بين أخي بهيج ورفاقه تعقد في «الديوان خانه» من البيت (وهي غرفة الزائرين من الرجال، ولها مدخل خاصّ). وسمعتهم ذات مرّة يتحدّثون عن مشروع لإنشاء «نادي ثقافي عربي» في رأس بيروت يكون نموذجاً لأندية من نوعه في غير بيروت من العواصم وكبريات المدن العربيّة، ابتداءً بيافا (حيث كان لأخي صديق يكاتبه في الموضوع هو يوسف الزعبلاوي). وفي مناسبة أخرى سمعت أخي بهيج ورفاقه يتجادلون في المفاضلة بين عرضين لتمويل مشروعهم، واحد عراقيّ والآخر سعوديّ. (قيل لي لاحقاً أنّهم رفضوا العرضين.)

(قضى أخي بهيج عام ١٩٤١–١٩٤٢ في التدريس ببغداد، حيث تصادق مع شاب يهودي اسمه إسحق إلياس، بقي يتراسل معه بعد عودته إلى لبنان لمدّة. عثرت مرّة على الرسائل التي كان إسحق إلياس يبعثها من بغداد إلى أخي في بحمدون، وذلك بعد فترة وجيزة من سفر أخي إلى أميركا عام ١٩٤٥، فوجدتها تركّز على الأمّة العربيّة وأمانيها بكلام حماسيّ بريء. تبيّن لي لاحقاً، وبالصدفة، أنّ إسحق إلياس اضطُرّ خلال الخمسينيّات إلى

مغادرة العراق بسبب الضغوط التي تعرّض لها اليهود هناك، فهاجر إلى إسرائيل، حيث أصبح المساعد لوزير الخارجيّة موشي شاريت لاحقاً.)

كان فضلو شحاده يتعافى في صيف ١٩٤٥ من مرض ألمّ به، فدعاه أهلي لقضاء أشهر العطلة معنا في بحمدون للنقاهة. وهناك تابعنا معاً درس اللغة الألمانيّة. ومدرّستنا في هذا الموضوع سيّدة من بحمدون اسمها وديعة خير اللّه، من خرّيجات معهد شنلّر بالقدس. صديقي سعيد خير اللّه من بحمدون يأتي إلينا بعد العشاء من كلّ يوم، فنمشي نحن الثلاثة معاً إلى «نبع الشقيف» وما بعده لمدّة ساعتين أو ثلاث نتبادل فيها الأحاديث في شتّى المواضيع.

(في تلك الأشهر عمّ استعمال «الدي دي تي» DDT كمبيد للحشرات، وانتهى عهدنا بآفة البراغيث. وظهرت في الأسواق جرابات النايلون النسائيّة، تباع بأسعار باهظة، وكأنّها جواهر. وسمعنا لأوّل مرّة عن البنسلين: أصيب أحد رفاقنا لاحقاً بذات الرئة، فبعث والده يطلب حقن البنسلين اللازمة لإنقاذه من بريطانيا، فدفع ثمن هذه الحقن أربعة آلاف ليرة لبنانيّة، أي ما يساوي راتب سنتين لأستاذ جامعي آنذاك.)

أخذني فضلو شحاده جانباً عند نهاية ذلك الصيف، وأنا أستعدّ للالتحاق بالجامعة، ليحذّرني من الضغوط السياسيّة التي تنتظرني هناك. الشيوعيّون (شرح لي مبدأهم) سوف يستغلّون

مثاليّتي ليقنعوني بالشيوعيّة التي تَبيّن من تطبيقها في روسيا أنّها تتنافى مع الحريّات والديمقراطيّة (شرح لي ما هي). وجماعة الكتائب اللبنانيّة والقريبون من تفكيرهم سوف يستغلّون وطنيّتي، وهي الساذجة بعد، لإقناعي بموقفهم الذي لن ينتج عنه، في حال تطبيقه، إلاّ عزل لبنان عن بيئته العربيّة. وهناك أحزاب وفئات سياسيّة أخرى ناشطة في الجامعة (عدّدها لي) سوف تحاول استمالتي إلى مبادئ عليها ما عليها من تحفّظات. يبقى القوميّون العرب: منهم من يصبو إلى وحدة عربيّة شاملة من نوع أو آخر (وشرح لي فضلو الأنواع)، ومنهم من يدعو إلى مزيد من التعاون ووحدة الموقف بين الدول العربيّة القائمة مع الإبقاء عليها كما هي موجودة، في الأقل حاضراً. ولا بأس في أيٍّ من الاتّجاهين، وإن كان الثاني، في نظره، أسهل للتطبيق من الأوّل في المرحلة الحاليّة.

(في نهاية ذلك العام سافر أخي بهيج إلى الولايات المتّحدة على متن سفينة حربيّة أميركية ليدرس الطبّ في جامعة هارفَرد، ولم يعد. وخلال السنوات التالية هاجر رامز شحاذه إلى المكسيك، ثمّ ذهب أخوه فضلو ليكمل دراسته في أميركا وبقي هناك.)

جرت العادة بيني وبين سعيد خير الله أن نقوم برحلة معاً على الأقدام كلّ صيف تدوم عدّة أيّام، نحمل معنا زادنا ونخيّم كلّ ليلة في مكان نجول حوله في الصباح التالي. وكانت رحلتنا ذلك الصيف إلى حمّانا وقرنايل وبزِبدين والمتَين (حيث أطلال قصر الأمراء من بيت أبو اللمع)، ثمّ إلى ضهور الشوير وبعبدات وبرمّانا،

فكادت هذه الرحلة تشمل كامل منطقة المتن من الجبل. ورأينا على الجدران في بعض الأماكن، مثل محطّة بحمدون وضهور الشوير، ملصقات تعلن عن كارمن بادي Carmen Paddy، وهي مغنّية بريطانيّة كانت تقيم الحفلات في ذلك الصيف في الملاهي الكبرى ببيروت والجبل، وهي آنذاك معبودة الجماهير من روّاد هذه الملاهي. وأحبّ أغانيها إليهم اثنتان تعلّمت غناءهما باللهجة العربيّة البدويّة، وهما من الأغاني الرائجة في ذلك الوقت. الأولى:

يامّ العبايه حلوه عباتك (عباتتش)

يا سمرا هوايه زينه بصفاتك (صفاتتش)

والثانية:

حوّل يا غنّام حوّل بات الليلة هين

وقلّي يا غنّام باللّه شايف حبّي فين

وعند نهاية الصيف دعانا عفيف تلحوق، أنا وآخرين من رفاقه، لنشاهد استعراض «كاباريه» في ملهى سينت جيمز (Saint James) بعاليْه، وهو الذي كان يديره أحد أقربائه. هناك رأينا كارمن بادي أخيراً بأمّ أعيننا وطربنا لها وهي تغنّي «يامّ العباية» و«حوّل يا غنّام». وأمّها جالسة في تلك الأثناء إلى طاولة على جانب «البيست» (حلبة الغناء والرقص) تنتظر نهاية الاستعراض، وهي تتجرّع الكأس بعد الأخرى من الويسكي.

تعرّف أخي بهيج على كارمن بادي ببيروت في أوائل الخريف من ذلك العام، وجاء بها مرّة، هي وأمّها، إلى البيت. لم يأنس أبي لهذه الزيارة وتمنّى على أخي بهيج أن لا تتكرّر. فحاول أخي أن يطمئنه قائلاً أنّ كارمن هي من هواة الأغنية، وليست محترفة

للغناء، وأنّ أمّها هي في الواقع سيّدة من أرستقراط الإنكليز.
أجاب أبي: «نعم، هذا واضح تماماً من الطريقة التي تجلس فيها رافعةً رجلاً على رجلٍ، تهزّ حذاءها في وجه أمّك، وكذلك من صوتها الذي اخشوشن حتى أصبح كصوت الرجال من فرط الشرب والتدخين والسهر».

عندما عدنا في ذلك الخريف إلى رأس بيروت وجدناها تعجّ باللاجئين البولنديّين. ومنهم فريق من البنات بالبزّات العسكريّة، ومسكنهنّ في «بناية جرداق» بشارع السادات: يقمنَ هناك بين الوقت والآخر حفلات لرقص «الفالس» و«البولكا» و«المازورك»، وشباب الجامعة الأميركيّة يقبلون على هذه الحفلات أفواجاً. فهمت أن هذا القدوم الكثيف للبولنديّين إلى بلادنا حصل بسبب احتلال الروس لبولندا في السنوات الأخيرة من الحرب وقيام نظام شيوعي فيها. والتحق عدد من البنات البولنديّات في تلك السنة بالجامعة الأميركيّة، حيث كان الصفّان الأوّلان – «الفرشمن» (Freshman) و«السوفومور» (Sophomore) – محصورَيْن قبل ذلك على الشباب: البنات يكملن هذين الصفّين في كلّية خاصّة بهنّ في أعلى هضبة رأس بيروت تسمّى «الجونيور كولدج» (Junior College for Women)، ثمّ يلتحقنَ، إذا أردنَ، بالجامعة الأميركيّة ليكملن صفّي «الجونيور» (Junior) و«السينيور» (Senior) فيها. (وموقع «الجونيور كولدج» حيث اليوم فرع رأس بيروت من الجامعة المسمّاة Lebanese-American University).
ومن اللاجئين البولنديّين إلى لبنان آنذاك من نُقل لاحقاً إلى إنكلترا أو غيرها من بلاد أوروبّا الغربيّة. ومنهم من استقرّ في لبنان وأصبح مع

الوقت لبنانياً. وكانت لبعض هؤلاء مهارة في حفظ اللحوم، فأدخلوا هذه الصناعة إلى لبنان على نطاق واسع، أو في الأقلّ أسهموا في ذلك، على ما أذكر.

التقيت بحسن الحسيني مجدّداً في صفّ «الفرشمن» بالجامعة: قضى معي سنة واحدة في برمّانا عام ١٩٤١–١٩٤٢ ثمّ اختفى أثره. وما إن عُدنا فالتقينا حتى اصطحبني إلى إحدى حفلات الرقص في مقرّ الطالبات البولنديّات في بناية جرداق. أخبرته بعد ذلك عن الجوق الممتاز الذي يقوده القسّ ديكران كسّوني فقرّر المشاركة فيه، وصرنا نترافق إلى التمارين معاً، مرّتين في الأسبوع كالعادة، وأمّي معنا. كان الجوق يتدرّب آنذاك على تأدية الموشّحة الدينيّة لجورج فردريك هاندل George Frederick Handel المسمّاة «المِسّيَه» The Messiah، بمعنى «المسيح الموعود». وكلمات هذه الموشّحة اقتباس لأجمل المقاطع من الكتاب المقدّس في ترجمته الإنكليزيّة الكلاسيكيّة الرائعة. قال لي حسن ذات مرّة: «ماذا إذا قمت أنا، يوماً ما، بتأليف «مِسَّيَه» إسلاميّة أُسمّيها المهدي، مثلاً؟» ثمّ عاد عن رأيه وقال: «أظنّ أن هذه الفكرة غير عمليّة».

(اعتدت مع الوقت أن يختفي حسن الحسيني من حياتي وأنا في وضع، ليعود إليها دون سابق إنذار وأنا في وضع آخر. اختفى من الجامعة الأميركيّة في بيروت عام ١٩٤٧ إلى أن التقيته في جامعة لندن عام ١٩٥٠. ثمّ اختفى من لندن فجأة لأعود فألتقي به في بيروت بعد عدّة سنوات عندما تزوّج كلثوم سلام. لا أنا أعرف بأنّ له صلة سابقة بآل سلام، ولا هو يعرف عن الصداقة

الحميمة التي تربطني بهم. وكلّ مرّة التقي به يُستأنف الحديث بيننا من حيث انقطع في لقائنا السابق.)

ومن أصدقائي في مدرسة برمّانا الذين عدت فالتقيت بهم في الجامعة أنيس السروجي وأخوه يوسف وابن عمّه موريس. يوسف السروجي يرافقنا، أنا وحسن الحسيني، إلى تمارين جوق القسّ كسّوني، وأنيس يقضي معي في بحمدون جزءاً من عطلة الصيف. تعرّف عن طريقي على عفيف تلحوق ومن بعده على يوسف الشيراوي من رفاقي في المدرسة الاستعداديّة، وصرنا نشكّل معاً كتلة واحدة. وتعرّفت في الوقت ذاته إلى رفاق جدد، منهم كمال الشاعر (من السلط، بشرقي الأردن) وخليل الصويص (كذلك من شرقي الأردن) وغابي صبغة (من طرابلس): الاسم الأخير لكل من أربعتنا يبدأ في التهجئة الإنكليزيّة بحرف «S»، ولذلك كنّا نجلس في الصفوف جنباً إلى جنب على مقعد واحد.

كان أحبّ درس إليّ وإلى آخرين من رفاقي درس الدكتور أنيس فريحة، نقرأ فيه روائع الأدب العربي. تخصّص الدكتور فريحة في اللغات الساميّة بجامعة توبنغن في ألمانيا، ثمّ بجامعة شيكاغو، ولا يأتي على كلمة إلاّ ويحلّلها لنا فيلولوجيّاً، شارحاً لنا تاريخها اللغوي كاملاً، وبإحاطة مذهلة. وكان في صفّه أن بدأت أعشق اللغة العربيّة وآدابها. أعلن في أوّل درس ألقاه علينا أن التثاؤب ممنوع في صفّه (والصفّ يبتدىء في السابعة والنصف صباحاً، ونحن بعدُ نصف نائمين)، ثمّ أخذ يقرأ أسماء الطلاّب واحداً واحداً، إلى أن توقّف عند اسم يوسف الشيراوي. قال: «ما هذا الاسم العجيب؟» ثمّ استدرك، موجّهاً

كلامه إلى يوسف مباشرةً: «الشيراوي من الشيرة، والشيرة هي السُكّر المعقود. جدّك كان بيّاع قطايف.»

في ذلك العام حُلّت مشكلتي بالنسبة إلى الرياضيّات. حصلت على علامة لا استحقّها في الامتحان الأوّل، ربمّا عن خطأ، فأصبح لديّ حافز لأُبقي على هذا المستوى من التحصيل، إلى أن تبيّن لي أخيراً المبدأ الذي تقوم عليه الرياضيّات، وهو مبدأ المعادلة التي هي من غريزة البشر. وما الموسيقى، في تركيبها، إلاّ مجموعة منسّقة من المعادلات الرياضيّة، الواحدة ضمن الأخرى، يعبّر عنها بالصوت والإيقاع بدلاً من الأرقام أو الرموز. فهمت الرياضيّات (بعد أن فات الأوان المدرسي لذلك) عن طريق الموسيقى، وتعمّقت معرفتي بالموسيقى، في الوقت ذاته، عن طريق فهمي الجديد للرياضيّات. (الشيء الآخر الذي تعلّمته بالمناسبة هو مبدأ يتعلّق بالتربية طبّقته لاحقاً في حياتي التعليميّة ووجدته مجدياً: أعطِ الطالب في البداية ما لا يستحقّ من التقدير، وبخاصّة إذا كان ضعيفاً أو مهملاً، فيصبح لديه الحافز ليستحقّ هذا التقدير.)

كان فضلو شحاده على حقّ، إذ ما كدت أبدأ حياتي في الجامعة حتى بدأت أتعرّض لتيّارات سياسيّة مختلفة أحتار بينها. لم أكن من بروتستانت رأس بيروت أصلاً، واعتراني شعور في البداية أنّي منبوذ منهم، وكذلك من معظم اللبنانيّين المسيحيّين، ربّما بسبب الاختلاف بيني وبينهم في الذوق والتصرّف. (رافقني مرّة غابي صبغة إلى سينما «أمبير» Empire، إلى اليسار من أعلى ساحة البرج. التقى في

بـهـو مـبـنـى السينمـا برفيق لـه من الجامعة كـان معه سابقـاً في المدرسة الأميركيّة بطرابلس، بدا لي معجباً بنفسه. فأخذ هذا الشاب يـتـحـدّث مـع غـابـي دون أن يـلـتـفت إليّ، إلى أن هـمس في أذنـه بـالإنكليزيّة على مسمع منّي: Are you so short of friends?، أي «هل أنت بهذه الحاجة الماسّة إلى رفاق؟») هذا مـا جعل أصدقائي ورفـاقي في معظمهم من المسلمين والدروز، ومن غير اللبـنـانيّين من العرب. ولذلك كان من الطبيعي أن أميل إلى التيّار القومي العربي في الجامـعـة، مـع الإبـقـاء عـلـى قـدر من الـتـحـفّظ تجاهـه. ومـنبر الـتـيّار العربي في الجامعة آنذاك جمعيّة «العروة الوثقى». بدأت أحضر اجتمـاعـاتها العـامّة، فلم استسغ الخطابات التي تلقى فيها إذ وجدتها غوغائيّة، فتوقّفت تدريجاً عن الحضور. (كان نشاط العروة الوثقى توقّف خلال سنوات الحرب، ثمّ عادت إلى العمل تلك السنة. واتّضح لي أن الإدارة الأميركيّة للجامعة تحبّذ نشاطها لسبب مـا.)

(كـان لجمـعـيّـة الـعـروة الـوثـقـى نشيد رائـع مـن نـظم الشـاعـر اللـبـنـاني سـعـيد عـقـل وتـلـحين الأخـوَيـن فُـلَـيْـفِـل، أشـهـر المـلـحّنين اللبنانيّين في تلك الأيّام. ومطلع هذا النشيد:

للنسورْ
ولنا الملعبُ
والجناحان الخضيبان بنورْ
العُلى والعربُ

قيل لي لاحقاً أنّ سعيد عقل قام بنظم هذا النشيد في الثلاثينيّات من القرن لمناسبة رياضيّة، وهـي قدوم فريق نادي «النسور» من العراق إلى بيروت لمنازلة فريق العروة الوثقى في كرة القدم.

فاستعمل سعيد عقل اسم الفريق العراقي الزائر في مطلع هذه الأبيات مجازاً. هذا ما سمعته في ذلك الوقت، ولم يتسنّ لي أن أتأكّد منه.)

حاول عدد من رفاقي المنتمين إلى أحزاب أن يقنعوني بمبادئ أحزابهم ومواقفها، فلم ينجح أحد منهم في محاولته، إذ لم يكن عندي ميل إلى الانخراط في الأحزاب أصلاً. ولم يكن من أنصار الكتائب في الجامعة إلاّ مكرم عطيّة، من بلدة بَيْنو بمنطقة عكّار (وهو شاب واسع العقل، محبّ للنكتة). كان مكرم صديقاً ليوسف الشيراوي، يحدّث يوسف عن ميزة لبنان كبلد «إشعاع». ثمّ يقع اشتباك، مثلاً، بين مهرّبي حشيشة الكيف في مقهى بوادي زحلة يسقط فيه القتلى والجرحى، فيقول يوسف لمكرم: «ترى، مكرم، صار اليوم إشعاع بوادي زحلة.»

كان الغُلاة من اللبنانيّين المسيحيّين في تلك الأيّام يتحفّظون تجاه عروبة لبنان من ناحية حضارته، وذلك بالتشديد على كونه ينتمي، بمسيحيّيه ومُسلميه، إلى حضارة البحر المتوسّط. ومن ذلك أنّ اللبنانيّين يشاركون اليونانيّين والإيطاليّين والفرنسيّين والإسبان في «الاستحمام» بمياه هذا البحر. وكان مكرم يقول بهذا القول. كنّا نبحث هذا الموضوع مرّة، ونتساءل لماذا استثناءُ السوريّين والفلسطينيّين والمصريّين وعرب شمال إفريقيا في المنتدى الحضاري للبحر المتوسّط. ووجّه يوسف الشيراوي في تلك المناسبة سؤالاً إلى عفيف تلحوق بالعربيّة الفصيحة قائلاً: «يا عفيف، هل يستحمّ دروز لبنان في مياه

البحر المتوسّط؟» أجاب عفيف: «لا نستحمّ فيها فقط، بل نتصوين ونتليّف أيضاً.»

كنت جالساً ذات يوم أحضّر دروسي على شرفة مكتبة الجامعة (وهي آنذاك في الطابق الأعلى من «كولدج هول» College Hall، مبنى الساعة). كان ذلك في بداية فصل الربيع: قمّة صنّين ما زالت مكسوّة بالثلوج، والجوّ على صفاء بحيث يمكن تمييز البيوت بعضها عن بعض في القرى على مرتفعات المناطق المارونيّة من جبل لبنان الممتدّة أمامي على الجهة المقابلة من خليج بيروت. أخذت أتأمّل هذا المنظر، والجالس إلى جانبي على الشرفة صديق من زمن المدرسة الاستعداديّة اسمه يحيى الحمصي، من دمشق. خطر لي أن أسأل يحيى: «ماذا لو تمّ اجتياح هذه الجبال ذات يوم لتُفرض عليها العروبة؟» فانتفض يحيى وقال: «هل أنت مجنون؟ أهكذا أثّر عليك أصحابك من جماعة العروة الوثقى؟» ثمّ أضاف بالعربيّة الفصيحة ليؤكّد جدّية ما يقول: «أنا أُقدّس هذه الجبال، فلولا أهلها الأشاوس لما كان في العالم العربي، من أقصاه إلى أقصاه، موئلٌ واحدٌ للحرّية.» استشرت يوسف إيبش بعد ذلك في هذا الشأن، فأجابني أن قول يحيى الحمصي فيه هو الصواب عينه.

في يوم من ربيع ذلك العام (١٩٤٦) تحوّلت إمارة شرقي الأردن إلى مملكة، وتغيّر اسم «شرقي الأردن» إلى «الأردن». كنت جالساً مع رفيق لي من القدس اسمه رباح الحسيني، كلّ منا على حجر، على حافة ملعب «الهوكي» أمام «فيسك هول» (Fisk Hall)

عندما جاء من يعلمنا بالخبر. وعمّ في ذلك اليوم الكلام عن هذا الحدث والاستخفاف به، فاستأت من ذلك لكون أهلي من المعجبين بالأمير عبد اللّه الذي أصبح الآن ملِكاً: أبي يقول إنّه أعقل القادة العرب لكونه واقعياً، يتعامل مع المعطيات بدلاً من أن يعاندها، وأمّي المولودة في السلط تكاد تعتبر نفسها من رعاياه. حاولت أن استفهم لماذا هذا الاستخفاف به، فلم ألقَ جواباً يقنعني.

افترقنا، أنا وعفيف تلحوق، في صفّ «السوفومور»، عن يوسف الشيراوي وأنيس السروجي. نحن التحقنا ببرنامج الآداب، وهما التحقا ببرنامج العلوم. ولم نعد نلتقي، الأربعة منّا، إلاّ في درس الفلسفة المشترك بين البرنامجين. ولأستاذنا في هذا الدرس، وهو ماجد فخري، لفظ خاصّ للّغة الإنكليزيّة نتندّر به. ورغم ذلك، كان درسه مشوّقاً. وكذلك غيره من الدروس التي أخذناها، أنا وعفيف، في تلك السنة، عدا درس مبادىء علم الاقتصاد التي لم أفهم منها شيئاً سوى مبدأ «العرض والطلب».

ومن الأساتذة الذين تعرّفت عليهم في صفّ «السوفومور» الأستاذ زين نور الدين زين (وهو إيراني الأصل ومولود في حيفا، حيث كان والده كاتباً لدى عبّاس أفندي، رئيس الطائفة البهائيّة). كان يُلقي علينا المحاضرات باللغة الإنكليزيّة في التاريخ الأوروبّي (ولاحقاً في التاريخ العثماني والعربي الحديث) بطريقة دراماتيكيّة ممتعة خاصّة به، حيث كان يقوم بتمثيل الأحداث ولعب مختلف الأدوار فيها بأسلوب لا مثيل له. وهو يتكلّم بصوت خافت يضطرّنا إلى الهدوء الكامل لسماعه.

توقّفت في ذلك العام عن درس الموسيقى والتردّد على تمارين جوق القسّ كسّوني. وعند نهاية صفّ «السوفومور» غادر يوسف الشيراوي بيروت ليبقى في البحرين مدّة سنة قبل رجوعه. قضيت ذلك الصيف في بحمدون كالعادة، منه شهر أو شهران برفقة أنيس السروجي، نقرأ تحذيرات كامل مروّة في جريدة «الحياة» عمّا يخبأ للأمّة العربيّة من ويلات في وقت قريب. ونذهب مرّة أو مرّتين في الأسبوع لقضاء النهار مع عفيف تلحوق بعاليَه، وذلك إمّا مشياً أو بالقطار الحديدي المتحرّك على البخار: نستقلّه من محطّة بحمدون إلى محطّة عاليَه، ونمشي بقيّة المسافة.

دخلت صف «الجونيور» في خريف ١٩٤٧، ودعوت رفاقي ورفيقاتي إلى حفلة رقص في البيت في الأحد الأخير من شهر تشرين الثاني. ومثل هذه الحفلات البيتيّة كان يقام عادة في ساعات بعد الظهر. وعندما انتهينا من الرقص بحلول المساء، خرجنا إلى الشرفة لنرتاح ونتحدّث. ولا أذكر كيف سمعنا، ونحن هناك، عن قرار الأمم المتّحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، وعن الضغوط التي مارستها أميركا للحصول على هذا القرار. كنت أسمع الناس يتحدّثون منذ أشهر عن تصرّفات أميركيّة مريبة بشأن قضيّة فلسطين. ورغم ذلك، بقيت أميركا تعتبر الصديقة المخلصة للعرب بين الدول الكبرى، إذ لم يكن لها حتى ذلك اليوم تدخّل سياسي علنيّ أو ملحوظ في شؤونهم.
كان مفروضاً على طلبة القسم الداخلي، في تلك الأيام، حضور خدمة دينيّة تقام مساء كلّ أحد في قاعة الاجتماع بالطابق

الثـاني مـن «ويست هـول» (West Hall)، ويترأّس هـذه الخدمـة بـايارد دودج (Bayard Dodge)، رئيس الجامعة. («ويست هول» هو مبنى النشاطات الطلاّبيّة بالجامعة.) كثيرون من الطلاّب «الخارجيّين» كانوا يحضرون هذه الخدمات أيضاً للاستماع إلى الرئيس دودج، أو غيره من كبـار الأسـاتذة أو الزائرين: يلقي المتكلّم رسالة الأسبوع، وهـي أشبه بمحاضرة في الأخلاق الاجتماعية منها إلى عظة دينيّة. والترانيم المختارة لهذه الخدمـات، هـي أيضـاً، لم تكن دينيّة بالمعنى الدقيق. يرنمّها الطلاّب بحماس شديد، وأحياناً «بالتجعير». وأحبها إليهم تلك التي مطلعها:

Once to every man and nation
Comes the moment to decide
In the strife of truth with falsehood
For the good or evil side

(ندخل إلى بهو «ويست هول» من أبوابه الثلاثة الواسعة، ثمّ نصعد درجه الفخم إلى الطابق الثاني حيث قاعة الاجتماع. ثمّ يدخل الرئيس دودج القاعة ويعتلي المنبر – وهو الذي يُستخدم في الوقت ذاته مسرحاً للتمثيليّات – إما بمفرده أو بمعيّة أستاذ مرموق أو زائر يكون المتكلّم في الخدمة بدلاً منه. وكان الرئيس دودج رجلاً نحيلاً أشيبَ دائم الابتسامة، يلثغ قليلاً في كلامه ويعاني من رجفة في تحرّكه. يتقاضى راتباً سنويّاً مقداره دولار أميركـي واحد. وأسرته الثريّة في مدينة برنستون هي آنذاك الحاضنة الأولى للجامعة، تتبرّع لها سنوياً، وبسخاء، منذ أن

تأسّست. وللرئيس دودج ولدان شابّان تطوّعا للخدمة في الجيش الأميركي في سنوات الحرب: قُتل أحدهما وأنا بعد في الاستعداديّة، ووصل الخبر إلى أبيه بوفاته في يوم تصادف أنّه يوم أحد. في ذلك اليوم ذهبنا إلى خدمة المساء في «ويست هول» ونحن متأكّدون أنّنا لن نجده هناك. لكنْ ما إن أخذنا مقاعدنا في قاعة الاجتماع حتى دخلها الرئيس دودج واعتلى المنبر كالعادة، وأعلن رقم الترنيمة الأولى لذلك المساء.)

عندما انتهت حفلة الرقص في بيتنا مساءً، بعد أن سمعنا خبر القرار بتقسيم فلسطين، ذهبت مع من بقي معي من رفاقي لحضور خدمة الأحد المسائيّة في «ويست هول». وكانت الجامعة أعلنت سابقاً أن المتكلّم في تلك الخدمة سيكون رئيس قضاة المحكمة العليا في الولايات المتّحدة (على ما أذكر)، ونحن متشوّقون لسماعه. دخلنا قاعة الاجتماع، فوجدنا قادة العروة الوثقى واقفين في جهة جانبيّة يتهامسون فيما بينهم. وما إن دخل الرئيس دودج القاعة مع ضيفه واعتليا المنبر حتى هجم هؤلاء القادة باتجاههما وهم يكيلون الشتائم للولايات المتّحدة، وللقضاء الأميركي، وللضيف بالذات قائلين له بما معناه: «ما هي الوقاحة التي تجعلك تجرؤ أن تكون المتكلّم في هذه القاعة في مثل هذا اليوم؟». هاجت القاعة بجميع من فيها، فأنزل الرئيس دودج ضيفه عن المنبر بهدوء، ووقفا إلى جانب باب القاعة، لا يرفّ لأيّ منهما جفن. وتسلّم قادة العروة الوثقى المنصّة، وتتالت منهم الخطب تنديداً بأميركا وبرئيسها هاري ترومان (Harry Truman). وبعد ذلك خرج الجميع من القاعة للتظاهر خارج «ويست هول». ولم يغادر الرئيس دودج مع ضيفه المبنى إلاّ بعد خروج آخر طالب فيه.

في اليوم التالي أضرب طلاّب الجامعة عن الصفوف، واستمرّ الإضراب عدّة أيام (على ما أذكر): نخرج من الجامعة صباح كلّ يوم في مظاهرات صاخبة تجوب شوارع رأس بيروت، والنساء من شرفات المباني الجديدة في شارع الحمرا يرششن علينا الأرز، فيما نحن نردّد ما كان يردّد عام ١٩٢٠ للجنرال غورو (Henri Gouraud) الذي فرض الانتداب الفرنسي على سوريّا بالقوّة بعد واقعة ميسلون، مع تغيير اسم الشخص والمكان:

هيّالِنا هيّالِنا
بالسيف ناخذ حقّنا
ترومان بلّغ دولتك
نيويورك مربط خيلنا

عُدنا إلى الصفوف بعد ذلك، ونحن لا نعرف ماذا سيحدث لاحقاً بالنسبة إلى قضيّة فلسطين، إذ بدت الأحوال هادئة. ورفاقي، على كلّ حال، لا يتحدّثون كثيراً في السياسة. وكان ذلك الشتاء في بيروت بارداً، شديد المطر، سقط فيه الثلج في شهر آذار (وبيروت لا يسقط فيها الثلج في العادة)، وبلغت درجة سقوط المطر ما لم تبلغه منذ عام ١٨٧٨ (حسب مرصد الجامعة).

دخلت مقهى الجامعة المسمّى «ميلك بار» (Milk Bar) في يوم من ذلك الشتاء لتناول البوظة مع عفيف تلحوق، فوجدت عائلة راقية تتألّف من أربعة أشخاص (أب وأم وابنان، الكبير منهما أصغر سنّاً منّا) جالسين إلى طاولة عن بعد يتناولون وجبة شاي بعد الظهر (afternoon tea) على الطريقة الإنكليزيّة. بدا لي من تصرّفهم أنّهم

عائلة من بروتستانت رأس بيروت، سوى أنّي لا أعرفهم. قلت ذلك لعفيف، فأجاب أن هؤلاء عائلة من كبار أثرياء يافا تعرّف إليهم مؤخّراً، وسوف يعرّفني إليهم في أقرب فرصة. الأب زهدي أبو الجُبَيْنْ أدخل البرتقال اليافاوي إلى أسواق بريطانيا والعالم، وهو يلقّب «ملك البرتقال»، وزوجته «الستّ ساميّة» هي ابنة الوجيه البيروتي بدر دمشقيّة الذي بيته على الجانب من شارع بْلِسّ المقابل لمبنى «فيسك هول». وهي سيّدة قلّ مثيلها بين نساء بلادنا. وهي وزوجها ينويان تسجيل ابنيهما، رجا وسامي، في مدرسة الاستعداديّة. ودارهم النموذجيّة في بيت دجن قرب يافا، وسط «بيّارة» من أشجار البرتقال، هي ملتقى الساسة ونجوم المجتمع في العالم العربي، ومنهم في السابق المطربة أسمهان. والواقع أنّ التخطيط لاستقلال سوريّا ولبنان بين الإنكليز وكميل شمعون ورئيس وزراء مصر مصطفى النحّاس حصل في تلك الدار.

كان الاستعداد قائماً في لبنان آنذاك للانتخابات النيابيّة الأولى بعد الاستقلال، والصحف اليوميّة تنشر الأرقام التقديريّة لمختلف طوائف البلاد. دخلت «الميلك بار» مرّة، فوجدت رفيقي الكويتي مرزوق فهد المرزوق يقرأ هذه الأرقام في جريدة «الهدف»، ويقوم بعمليّات حسابية معقدّة على هامش الصحيفة. نظر إليّ بعد أن انتهى من حساباته وقال: «الظاهر أنّنا سنصبح الأكثريّة في لبنان قريباً، فماذا سيكون موقفكم من مشروعنا للوحدة العربيّة عندما يحصل ذلك؟»

في ربيع ذلك العام (١٩٤٨) أُعلن قيام دولة إسرائيل، وأعلنت الجامعة العربيّة الحرب عليها. وبدأت، في الوقت ذاته، هجرة

أعداد غفيرة من عرب فلسطين إلى لبنان: القادرون منهم يستأجرون بيوتاً ليقيموا فيها، والأكثريّة غير القادرة تستقرّ في مخيّمات. وأساتذة الجامعة الأميركيّة وطلاّبها على رأس الناشطين في الاهتمام بمأساة اللاجئين في المخيّمات.

قامت الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات في الجامعة على الأثر، وفُتح باب التطوّع في «جيش الإنقاذ» التابع للجامعة العربيّة. دُعي طلاّب الجامعة الأميركيّة ذات يوم للتطوّع، وأُعلن عن وجود غرفة خاصّة لذلك في «ويست هول»، يشرف عليها ضبّاط من «جيش الإنقاذ». كنت أشترك في مظاهرة داخل الجامعة في ذلك اليوم، وإلى جانبي صديقي جاسم فخرو (ابن خالة يوسف الشيراوي) من البحرين: أقنعني جاسم بأنّ الضمير الوطني يملي علينا أن نكون أوّل من يتطوّع، فذهبنا أنا وإياه إلى «ويست هول»، والساذج الثالث معنا هو كمال سعد من رأس بيروت، وهو ابن الدكتور نجيب سعد طبيب العيون وصديق أبي. كانت جماهير من الطلاّب تحيط بمدخل المبنى، منهم من يلقي الخطب الحماسيّة، ومنهم من يستمع إليها ويهتف. ولا أذكر أنّ واحداً منهم دخل إلى غرفة التطوّع عندما وصلنا نحن الثلاثة إلى هناك. سجّلنا أسماءنا، وأُخذت عيّنات من دمنا للتصنيف، وقيل لي بعد ساعة أو ساعتين أن صنف دمي «+B»، وأعطيت شهادة رسميّة بذلك. أخبرت أبي عندما عدت إلى البيت عن تطوّعي في «جيش الإنقاذ»، وعن تصنيف دمي، فقال: «الآن تحقّقت أنّك بالفعل أبله»، مضيفاً أن صنف دمي معروف لديه، وهو في الواقع: «+A»، وليس «+B». ذهبنا في اليوم التالي إلى غرفة التطوّع لنسأل ما علينا أن نعمل،

ففوجئنا لوجودها مقفلة، لا أثر حولها لأيّ من جماعة «جيش الإنقاذ» الذين كانوا فيها بالأمس.

بدأت أتخصّص في صفّ «الجونيور» في العلوم السياسيّة كتخصّص أوّلي (major)، وفي التاريخ كتخصّص ثانوي (minor). ومن خرّيجات «الجونيور كولدج» اللواتي معي في الصفّ نِدا بارودي وصديقتها أندريه كمرمان. ندا أعرفها من قبل لكونها من بيئة بروتستانت رأس بيروت، وأندريه تعرّفت عليها عن طريق ندا. والدتها اللبنانيّة متوفّاة، ووالدها السويسري الفرنسي يدير المدرسة المهنيّة في محلّة «الصنايع» المسمّاة باسم هذه المدرسة (الدولة العثمانيّة أنشأتها في بدايات القرن وأسمتها «صنايع مكتبي»، ومن ذلك اسمها العربي الشائع، «مدرسة الصنايع». ويبدو أنّه كان في مظهري مسحة من ذلك الحزن الرقيق الذي يخالج النفوس في مطلع الشباب، فأطلقت أندريه عليّ لقب coeur en écharpe، أي «القلبِ المعلق بالفوطة»، (نسبة إلى الفوطة التي تُحمل فيها اليد إذا كُسِرت أو جُبِّرت).

كنّا نذهب أحياناً لقضاء النهار أو بعد الظهر في مزرعة يملكها والد أندريه كمرمان في ضاحية سنّ الفيل (التي هي اليوم جزء من بيروت)، فيها بيت ريفي جميل، وحجارته من الموقع. قال لنا «مسيو كمرمان» عندما قمنا بأوّل زيارة لمزرعته: Voilà, nous sommes ici en pleine campagne (أي «انظروا، نحن هنا في الريف الطلق»). (أذكر، بالمناسبة، أني رأيت نموذجاً اختبارياً لجهاز «الستيريو» لأوّل مرة في بيت كمرمان بسنّ الفيل، ربّما عام ١٩٤٩. لم تكن إسطوانات «الستيريو» متوفّرة

بعد لتُلعب على الجهاز عدا نماذج قليلة، منها تسجيلات لهدير أمواج البحر، أو لقصف الرعد، أو أصوات طبيعيّة أخرى تبيّن ميزة «الستيريو» على الفونوغراف الكهربائي العادي. ولم يعمّ استعمال «الستيريو» إلاّ بعد عدّة سنوات.)

ربّما كان بشفاعة من ندا بارودي أن تمّ قبولي في مجتمع شبيبة رأس بيروت في ذلك العام، وإن لم أُدْعَ للالتحاق بالنادي الخاصّ بهم والمسمّى Ras Beirut Youth Club. جميعهم يتكلّم الإنكليزيّة بطلاقة، بالإضافة إلى الفرنسيّة، ومعظمهم يقرأ الموسيقى بسهولة بفضل أخي سامي الذي علّمهم ذلك مدّة ثلاث سنوات في مدرسة الأحد. جميعهم يفهم الموسيقى الكلاسيكيّة بفضل سيسيل حوراني، وهو البريطاني اللبناني الأصل: أبوه فضلو حوراني، من مرج عيون، عميد الجالية «السوريّة» في مانشستر. (قدم سيسيل إلى بلادنا زمن الحرب، هو وأخواه جورج وألبرت، مع الجيش البريطاني. وكانت لديه مجموعة من الإسطوانات الكلاسيكيّة يُسمعها للمهتمين من شبّان وشابّات رأس بيروت على فونوغراف يدوي، ويشرح عنها ما يلزم شرحه عن ميزات كبار الموسيقيّين الغربيّين مثل باخ وهاندل وهَيْدِن وموتسارت وبيتهوفن وشوبان وشومان وغيرهم.) ومن شبيبة رأس بيروت من كانت لهم مواهب متطوّرة في الفنون. فؤاد أشقر مثلاً، مثل أخيه الأكبر نبيل، يهوى الدراما والمسرح ويجيد التمثيل، وكذلك ندا بارودي. ومنى سعد تهوى الرسم والنحت والخِزافة ورقص الباليه، وكذلك المسرح. أضف إلى هؤلاء، الشبيبة من بروتستانت القدس الذين بدأوا يفدون إلى رأس بيروت في تلك الأثناء. بنات

سابا (سميّة ووداد وسلوى، وحتى أختهنّ الطفلة ليلى التي أصبحت لاحقاً زوجة أخي منير) يُجِدنَ الغناء. ابن عمهنّ سهيل سابا يعزف الكمان بمهارة فائقة، وسيسيل عصفور يكاد يكون محترفاً في عزف البيانو.

كان ملتقى رفاقي ورفيقاتي من شبيبة رأس بيروت في بيت البارودي، وأكثر من ذلك في بيت الدكتور نجيب سعد، أبو منى وكمال وسميّة. والأهل في كلّ من البيتَين مضيافون، يتركون لأولادهم الحرية في استقبال أصدقائهم دون أيّ تدخّل يلحظ منهم. وسرعان ما تبيّن لي أن بروتستانت رأس بيروت ينتظمون، في الواقع، في ما يشبه القبائل أو العشائر، أكبرها العشيرة التي ينتمي إليها آل البارودي، وكذلك آل الحوراني بمانشستر. وكنت، وأنا الذي ربيت في بيئة عشائرية، ضالعاً في التدقيق عن الأنساب. فلم يصعب عليّ فهم ما يربط بين آل الخولي والمقدسي والبارودي وناصيف من ناحية، وهم الذين كانوا يشكّلون «قُرميّة» العشيرة، أي نواتها، وبين هؤلاء وآل القرطاس وآل سعد الذين ينتمون إلى طائفة «الفرندن»، أي «جمعيّة الأصدقاء»، وليس إلى كنيستنا. يواكيم الراسي، من أوائل بروتستانت قرية إبل السقي بقضاء مرج عيون، كان له عدّة بنات: واحدة منهنّ، نسيمة، تزوّجت الأستاذ بولس الخولي، وأختها سميّة تزوّجت فضلو الحوراني، وأختهما خزما تزوّجت طبيب الأسنان الدكتور اسكندر ناصيف. مريانا أخت بولس الخولي تزوّجت جرجس الخوري المقدسي. وسميّة بنت جرجس الخوري المقدسي تزوّجت بنيامين بارودي، فيما تزوّجت أختها وداد ميشال قرطاس.

ولبيبة، أخت ميشال قرطاس، تزوّجت الدكتور نجيب سعد. وهكذا أصبح كلّ شيء بالنسبة إلى كبرى العشائر من بروتستانت رأس بيروت وأنسبائهم من آل الحوراني بمانشستر مفهوماً لديّ تماماً: أساس العلاقة بينهم عن طريق النساء. (أخبرت ذلك لرفاقي ورفيقاتي من هذه العشيرة فصعب عليهم فهمه.)

هكذا صرت انتمي في ذلك العام إلى مجتمعين لا يربط بينهما سوى انتمائي إلى كلٍ منهما: مجتمع أصدقائي ورفاقي القدماء في الجامعة، ومجتمع شبيبة بروتستانت رأس بيروت. بدأنا في تلك السنة، أنا ورفاقي في الجامعة، نُدمن على لعب «البريدج»، حتى أصبحتُ لا أخرج من البيت إلاّ حاملاً علبة أوراق «شدّة» في جيب وأخرى في جيب. نلعب البريدج إمّا في بيتنا أو في بيت تلحوق بعين المريسة، إلى أن تعرّفنا أخيراً على آل أبو الجبين، وعلّمنا ابنهم رجا لعب «البريدج»، فأصبح المنتدى لهذه اللعبة في بيتهم. (اضطرّ آل أبو الجبين، مثلهم مثل العديد من الأسر الفلسطينيّة، إلى مغادرة فلسطين عام ١٩٤٨، فاستقرّوا في بيروت بالطابق الأسفل من بيت بدر دمشقيّة في شارع بِلِسّ. وهناك تعرّفت عليهم. أبو رجا في منتهى اللطف، لكنّه قليل الكلام، لا يتحدّث معنا إلاّ للإجابة عن سؤال. والستّ ساميّة سيّدة نادرة من نوعها، دمثة الأخلاق، واسعة المعارف، تتحدّث الإنكليزيّة بطلاقة، وتتميّز بقدرة غير عاديّة على فهم الجيل الطالع والتواصل الذهني معه. عرّفتنا على زوجة أبيها الستّ جوليا طعمة دمشقيّة، من رائدات الحركة النسائيّة في البلاد العربيّة. والستّ ساميّة شديدة التعلّق بها، رغم أنها بنت بدر دمشقيّة من زوجة سابقة.)

دخل علينا أبو رجا مرّة على غير عادة ونحن نلعب «البريدج»: ابنه رجا مسلم، طبعاً، وإن لم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام (أنا الذي علّمته لاحقاً ما صار يعرفه لتخصّصي في الموضوع)؛ أنا بروتستانتي؛ حكمت سلمان (من الشويفات) درزي؛ ديفيد عيني (صديق رجا في الاستعداديّة) يهودي من العراق. نظر إلينا أبو رجا وهزّ رأسه، وكأنه يقول في قلبه: «سبحان من جَمَعَكم». وكان في جملة من يتردّد على بيت أبو الجبين صديق لنا من الاستعداديّة هو عماد الحراكي، من سوريّا، وأبوه من وجهاء معرّة النعمان وكبير الملاّكين فيها. تقرّر أن يكون غداء عيد الميلاد عام ١٩٤٨ ببيت أبو الجبين، فجاءنا عماد الحراكي بما لزم من ديوك الحبش الحيّة لهذه المناسبة. (كانت الجامعة الأميركيّة في ذلك الوقت، بتنوّع طلاّبها، نموذجاً مُصَغّراً للعالم العربي، وهكذا بقيت حتى أواسط السبعينيات من القرن العشرين.)

بين لعب «البريدج» والتسلية مع شبيبة رأس بيروت، والزيارات المتكرّرة إلى مزرعة بيت كمرمان في سنّ الفيل، أضف إلى ذلك حفلات الرقص التي تقام في «ويست هول»، ضاعت تلك السنة حتى كدت أرسب في جميع دروسي. والواقع أنّي لم أحصل في نهاية السنة الدراسيّة على معدّل يخوّلني أن أستمرّ في التخصّص. ولولا وساطة من شارلز ميلر (Charles Miller)، من أساتذة دائرة التاريخ، لكان تقرّر نقلي في العام التالي إلى «البرنامج العام» (pass course) الذي ينتهي بشهادة بكالوريوس لا تشير إلى مجال

اختصاص، ولا تُعتمد للاستمرار في الدراسة الجامعيّة العليا التي كنت أنوي متابعتها. فحزمت أمري في ذلك الصيف، وقرّرت أن أدائي الدراسي في صفّ «السينيور» لن يكون مقبولاً فقط، بل متفوّقاً، مع تغيير لتخصّصي الأوّل (major) من العلوم السياسيّة إلى التاريخ.

عاد يوسف الشيراوي إلى بيروت في تلك الأثناء، واستقرّ في مبنى «البريتِش كاونسِل» (British Council)، في متفرّع من شارع الصيداني، بالقرب من الجامعة. وصدف بعد ذلك أنّي كنت في رأس بيروت يوماً، فاصطحبته لزيارة بيت أبو الجبين وعرّفته إلى رجا، وكانت ردّة فعله في غاية السلبيّة. (قال أنّه لا يحبّ هذا النوع المتفرنج من «المسلمين البروتستانت».) ثمّ عدت إلى زيارة بيروت مرّة ثانية بعد أسبوعين أو ثلاثة، فلقيته في المساء خارج بيت أبو الجبين يلعب «الفوتبول» مع رجا في الشارع (وحركة السير القليلة في رأس بيروت آنذاك تسمح بذلك.) وقد صارت له معرفة مفصّلة بكلّ دخائل بيت أبو الجبين، بل وبكلّ ما يمتّ إليهم بصِلَة.

كنّا جالسين في بيت أبو الجبين نتحدّث مع الستّ ساميّة قرب نهاية ذلك الصيف عندما سمعت اسم أسامة الخالدي لأوّل مرّة. قالت الستّ ساميّة أنّها تنتظر قدومه في أيّ لحظة: حصل مؤخراً، ورغم صغر سنّه، على شهادة «المتريكيوليشن» (matriculation) بامتياز (وهي الشهادة البريطانيّة التي كانت تخوّل حاملها دخول الجامعات في ذلك الوقت)، وأهله ينوون إدخاله إلى صفّ

«السوفومور» في الجامعة. ثمّ أخذت الستّ ساميّة تصف أهله وتتغنّى بمزاياهم. أبوه أحمد سامح الخالدي رئيس الكلّية العربيّة في القدس، وهو صفوة النخبة من رجال فلسطين، يتوقّد ذكاءً. أمّه الستّ عنبرة سلام الخالدي سيّدة لامعة وأديبة من الطراز الأوّل، ومن مآثرها ترجمة «الإلياذة» إلى اللغة العربيّة، وهي بالإضافة إلى ذلك من رائدات الحركة النسائيّة في فلسطين ولبنان. ابنهما الأكبر وليد كذلك شاب لامع، يتكلّم الإنكليزيّة وكأنها لغته الأمّ وينظم الشعر فيها. وهو ضالعٌ في الوقت نفسه باللغتين الكلاسيكيّتين، الإغريقيّة واللاتينيّة.

ما كادت الستّ ساميّة تنتهي من هذه المقدّمة الرائعة عن أسامة الخالدي وأهله حتى دخل علينا أسامة، يمشي ويتحرّك وكأن لا علاقة بين الأعضاء المختلفة من جسمه. شعره المائل إلى الشقرة مثل صوف الغنم، ويبدو من ثيابه أن لا عهد لها بالكوي. وشكله على وجه العموم أقرب إلى الإنكليزي أو الأوروبّي منه إلى العربي. وهو يضحك باستمرار وكأنّ كلّ ما يراه في الحياة جديد عليه ويعجبه.

تذكّرت في حينه أنّي كنت التقيت قبل أشهر بشاب يشبه أسامة، حسبته في البداية إنكليزيّاً. عرّفني إليه الأستاذ فريد حنانيا الذي هو أيضاً من القدس. لم يرسخ اسمه في ذهني، لكنْ ربّما كان وليد الخالدي. استصغرني، فلم يتحدث إليّ كثيراً عدا السؤال عن صفّي واختصاصي، وذلك بقدر من التعالي. (حدث ذلك في بيت الأستاذ زين نور الدين زين حيث كنت أتردّد أحياناً لاشترك في قراءة المسرحيّات الإنكليزيّة play reading مع جماعة من أساتذة الجامعة

وأعضاء «البريتِش كاونسِل» الناشط آنذاك في رأس بيروت: كلّ مشترك يعيّن له دور في المسرحيّة يقرأه، دون أن يقوم بالتمثيل، ويتخلّل القراءة تقديم المآكل الخفيفة والمرطّبات.)

تمنّت علينا الستّ ساميّة أن نقبل أسامة الخالدي كواحد منّا، فتردّدنا. أمّا هو فبقي يأتي بين يوم وآخر ليلتقي بنا. وحدث وقوع عيد الأضحى ذلك العام في الأسابيع الأولى من السنة الدراسيّة، فوصل إلينا أسامة في ذلك اليوم ونحن نلعب «البريدج»، وهو يحمل مبلغ خمس وعشرين «ليرة سوري» (كما كانت تسمّى الليرة التي يصدرها «بنك سوريّا ولبنان» لكلّ من البلدين حتى تلك الأيّام: منها ما يحمل ختماً باسم «لبنان» في أعلى الورقة النقديّة، ومنها ما يُختم باسم «سوريّا»). قال أنّها عيديّته من أخواله من آل سلام، وهو يدعونا إلى عشاء على نفقته. (ربّما حصل ذلك العشاء في مطعم «الكوبول» بمبنى فندق «ريجنت»، عند طرف ساحة البرج، أو في مطعم شعبي مقابل له يقدّم اللحم المشوي والحمّص.) وكنّا في تلك الأثناء اعتدنا على أسامة، وما عدنا نرى فيه إلاّ محاسنه، وهي ذكاؤه الخارق وتواضعه (على كونه سليلاً لأجيال من قضاة القدس وعلمائها)، وأكثر من ذلك قدرته على اتّخاذ ذاته موضوعاً للتنكيت، وهي فضيلة نادرة بين العرب.

أخذنا أسامة مرّة ليعرّفنا على أهله، في بيت عند مدخل قرية بعبدات محاط بشجر الصنوبر. عرّفني بالاسم والشهرة إلى والده أحمد سامح الخالدي، فكان تعليقه بالإنكليزيّة: «بيت الصليبي لهم قدرة على المهارة في الطبّ» (The Salibis make very good doctors). ثمّ

أشار إلى زوجته أم أسامة قائلاً: «هذه هي عنبرة أفندي، زوجتي، من مخلّفات القرن التاسع عشر. أنا أُعتبر ذكياً، وهي تُعتبر ذكيّة، فكيف تفسّر هذا المثل من نتاج زواجنا (مشيراً إلى ابنه أسامة)؟ تصوّر أنّه سيكون كبش الكتيبة بعدي.» ثمّ سألني عن موضوع تخصّصي، وعندما أجبت أنّه التاريخ، حذّرني قائلاً: «عندما يأتي اليوم الذي تكتب فيه في التاريخ، لا تكذب كما يفعل المؤرّخون اللبنانيّون عادةً. اكتب الحقيقة على واقعها فقل، مثلاً، أن فخر الدين كان عاصياً على الدولة العثمانيّة نال عقابه عندما قُبض عليه أخيراً واقتيد إلى القسطنطينيّة، حيث قتل. ولا تقل أنّه كان بطلاً يقاوم الظلم العثماني ليجعل من لبنان دولة مستقلّة، وهو الذي ربّما لم يلفظ كلمة لبنان مرّة واحدة في حياته.» تحدّث أحمد سامح الخالدي بعد ذلك منتقلاً من موضوع إلى آخر، دون أن يعطي أحداً منّا مجالاً للكلام. أخبرنا عن مآثر شبيبة الطبقة الراقية في يافا، مسمّياً إيّاها بالفرنسيّة la jeunesse jaffiote. ثمّ تحدّث بإسهاب عمّا سمّاه «الغرور اللبناني»، محذراً إيّاي وعفيف تلحوق من الوقوع في شركه لكونه يعمي البصر والبصيرة (وافقه عفيف). وبعد استعراض غير ذلك من المواضيع، بما فيها قصّة الكلّية العربيّة وضياع فلسطين، أفسح المجال للستّ عنبرة لتأخذ الحديث عنه. فعلقّت بلهجتها البيروتيّة: «إنت تركتلّي شي قوله؟»

في ذلك العام اكتشفت ما لديّ من قدرة طبيعيّة على التركيز والجَلَد في العمل. أكره هدوء المكتبة والقاعات المخصّصة للقراءة، فلا أدرس، قراءة وكتابة، إلاّ في ضجيج مقهى «الميلك

بار». يأتي رفاقي أحياناً للجلوس إلى طاولتي فلا انتبه إلى وجودهم، حتى إذا وجّهوا الكلام إليّ مباشرة.

تتوّج جهدي في نهاية ذلك العام بنيلي شهادة البكالوريوس في الآداب «درجة أولى» (First Class Honours). وندا بارودي نالت شهادتها بالدرجة ذاتها. جلست في المقعد المعيّن لي للتخرّج في ملعب «الهوكي» أمام «فيسك هول»، انتظر دوري للصعود إلى المنصّة لتسلّم شهادتي. وإلى جانبي ندا بارودي. وأوركسترا الجيش اللبناني بقيادة أحد الأخوين فُلَيْفِل تعزف «المارشات» العسكريّة الجميلة والحزينة في آن، فاعتراني شعور بأنّ «العقد انفرط»، وبأنّ ما اعتبرته أحلى أيّام حياتي يشرف على النهاية.

في اليوم التالي أهداني أبي قلم حبر (Parker 51) لمناسبة تخرّجي، وطلب مني أن أذهب فوراً إلى مدرسة برمّانا، ومعي شهادتي، لأريها إلى مستر ترتل الذي أخبره، قبل أربعة أعوام، بأني غير قابل للتعلّم. (كان مستر ترتل تقاعد وغادر لبنان في تلك الأثناء.) وهكذا علمت أخيراً بتلك القصّة.

٨

تحوّل إلى الشرق

سُمح لنا، ونحن في صفّ «السينيور»، أن نتجوّل في الغرف الداخليّة من مكتبة الجامعة، نتفحّص الكتب المرتّبة فيها على الرفوف وننتقي منها ما نشاء للقراءة. هناك وجدت مؤلّفات سيغموند فرويد وغيره من روّاد التحليل النفسي (psychoanalysis) فقرأتها بشغف، وكذلك موسوعة جيمز فريزر (James Frazer) في موضوع الأنثروبولوجيا (الإنسانيّات) والميثولوجيا (تحليل المعاني الكامنة في الخرافات والأساطير الدينيّة والشعبيّة). (قضى فريزر حياته يجمع هذه الخرافات من مختلف أنحاء العالم، يقارنها بتلك المدوّنة في التوراة والأدب الإغريقي القديم، والمستقاة من النقوش الفرعونيّة وغير ذلك، فكانت النتيجة الموسوعة التي خلّفها والمسمّاة «الغصن الذهبي» The Golden Bough). وممّا قرأته أيضاً ذلك العام وشغفت به كتاب في مجلّدين كان بعدُ حديثاً نسبيّاً ذلك الوقت، للمفكّر الألماني أوسوالد شبنغلر (Oswald Spengler): كان نشاطه أوّلاً

في حقل الرياضيّات، ثمّ تحوّل إلى النظر في فلسفة التاريخ، فكانت النتيجة المجلّدين اللذين أسماهما «أفول الغرب» (في الترجمة الإنكليزيّة The Decline of the West). يبيّن المجلّد الأوّل كيف أنّ كلّ حضارة بشريّة قامت على فكرة رياضيّة معيّنة، مثلاً، الهندسة المستوية بالنسبة إلى الحضارة الإغريقيّة، والحساب الرقمي (ومنه فكرة الصفر بالإشارة إلى انعدام الرقم) بالنسبة إلى الحضارة الهنديّة، والجبر والمقابلات بالنسبة إلى الحضارة الإسلاميّة، والهندسة الفراغيّة والإحداثيّات الديكارتيّة وحساب التكامل بالنسبة إلى حضارة الغرب. وكيف أنّ كلّ إنجاز في كلّ من هذه الحضارات ما كان إلاّ تطويراً غريزياً للفكرة الرياضيّة الكامنة في كلّ واحدة منها. ويفرّق الجزء الثاني بين مرحلتين في كلّ حضارة: الأولى مرحلة «الحضارة» (culture) ذاتها، حيث تأخذ الفكرة الرياضيّة الكامنة فيها بالتبلور في شتّى المجالات (الفن المعماري، مثلاً، والموسيقى، والآداب، والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي)؛ والثانية مرحلة «المدنيّة» (civilization) حيث يبدأ المجتمع في التمتّع بما حقّقته حضارته من إنجاز، فيما تبدأ الفكرة الرياضيّة التي تقوم عليها هذه الحضارة باستنفاد إمكاناتها حتى الأفول فالزوال.

(كان شبنغلر يُتّهم لسبب ما بميل إلى النازيّة. فاختفى كتابه من رفوف المكتبات بعد فترة، وبدأ العاملون في حقل التاريخ يستخفّون بنظريته، ويروّجون لنظريّة منافسة تقدّم بها المؤرخ البريطاني آرنولد توينبي Arnold Toynbee في كتاب من عدّة مجلّدات أسماه «دراسة في التاريخ» A Study of History. وتوينبي آنذاك مدير لمؤسّسة «شاثام هاوس» Chatham House بلندن،

المرتبطة بشكل غير رسمي بوزارة الخارجيّة البريطانيّة. وبدا لي أنّ من أساتذة الجامعة الأميركيّة من كان يروّج لنظرية توينبي، والأساس فيها أن الحضارات التاريخيّة تقوم استجابة response لحوافز challenges يواجهها المجتمع، ثمّ تنحلّ فتزول بزوال الحوافز. قرأت ما تيسّر من مؤلف توينبي، وأعجبت بدقة معلوماته التاريخيّة وغزارتها، دون أن أجد في مؤلّفه حافزاً يكفيني لأُكمل قراءته.)

كنت آخذ هذه الكتب وأقرأها في غرفة خاصّة إلى الجانب الأقصى من المكتبة تسمّى آنذاك «المكتبة الإسلاميّة» (Islamic Library)، حيث استوليت على طاولة أجلس إليها وأضع عليها كتبي وأوراقي. وهناك عثرت على كتب في الإسلاميّات والتاريخ العربي أخذت أطالعها: منها المصادر العربيّة في الفقه والتفسير والحديث وغير ذلك من المواضيع، ومنها مؤلّفات المستشرقين (وموضوع تخصّصي آنذاك التاريخ الأوروبّي وليس العربي والإسلامي). الطاولة إلى جانب طاولتي تخصّ الدكتور أنيس فريحة، ألجأ إليه ليشرح لي المبهم ممّا أقرأ. وكنت آنذاك آخذ درساً اختيارياً (elective) معه في اللغة العبرانيّة نحلّل فيها مقاطع مختارة من التوراة. وله من الإحاطة ما يجعله قادراً على التوقّف عند كلّ مقطع ليشرح لنا كلّ ما يتعلّق به من النواحي اللغويّة والأنثروبولوجيّة والتاريخيّة. ولم يكن لأساتذة الجامعة آنذاك، كباراً وصغاراً، مكاتب خاصّة بهم، فكان أساتذة التاريخ العربي والإسلاميّات يستعيضون عن المكاتب بطاولات خاصّة بهم في «المكتبة الإسلاميّة». ومن هؤلاء الدكتور قسطنطين زريق، والدكتور نبيه أمين فارس، والدكتور صبحي المحمصاني

(درست معه القانون الروماني). كنت ألجأ إليهم أيضاً لأستفهم عمّا يصعب عليّ فهمه. (قال لي الدكتور نبيه فارس مرّة، وأنا أتحدّث إليه: «أظنّ أنّك ستكون آخر واحد منّا، نحن البروتستانت العرب، يعمل في حقل الإسلاميّات.»)

كانت غاية طموحي، بعد تخرّجي، أن أستمرّ في الدراسة حتى أنال شهادة الأستذة (أي ما يسمّى الماجستير)، ثمّ انصرف إلى التعليم في المدرسة الاستعداديّة، أو ربمّا مدرسة برمّانا. والبرنامج للشهادة التي أصبو إليها يقتضي سنة من الدرس يقدّم الطالب في نهايتها أطروحة (thesis) في موضوع معيّن. وقد يُكْمَل البرنامج في سنتين إذا أُفسح مجال للطالب أن يقضي جزءاً من وقته في التعليم بالجامعة أو في القسم الاستعدادي منها كمدرّس مساعد (Assistant Instructor). ومثل هذا الترتيب يعفي الطالب من رسوم التعليم. وطلب منّي ليسلي ليفيت، رئيس الاستعداديّة، أن أقوم بالتعليم هناك، وقبلت، فخُصّصت لي غرفة في «سيج هول» أسكن فيها، وأتقاضى راتباً شهريّاً مقداره مائة وسبع ليرات لبنانيّة ونصف (وهو آنذاك نصف راتب المدرّس المساعد). وهو ما كان يكفيني لتغطية مصاريفي خلال سنتين من الدراسة دون اللجوء إلى أبي.

(بدأت الليرة اللبنانيّة التي تعيّن فيها راتبي تختلف في القيمة عن السوريّة منذ أواخر العام الدراسي السابق، والفرق بين الليرتين لمصلحة لبنان. كنت سهراناً مع رفاقي في ملهى «داغ آوت» (Dug Out) بمحلة الزيتونة، قرب البحر، والدور عليّ لأتحمّل الفاتورة، وأنا أحمل ورقة نقديّة بقيمة خمسين ليرة، والفاتورة

أقلّ بكثير. دفعت ورقة الخمسين ليرة وانتظرت ليُردّ لي الفرق، فرُدّت إليّ الورقة ذاتها بعد دقائق على أساس أنها ليست مقبولة، وأُفهمت أنّ السبب يعود إلى كونها خمسين ليرة سورية، وليس لبنانيّة: هي ورقة النقد ذاتها، ومن إصدار «بنك سوريّا ولبنان»، إلاّ أن الختم في أعلاها يحمل اسم سوريّا، وليس اسم لبنان. قيل لي أنّ مردّ ذلك هو أنّ سوريّا، على عكس لبنان، قطعت علاقة نقدها بالفرنك الفرنسي، وأنّ الخلاف بين البلدين لا يقتصر على وحدة النقد بل يشمل غير ذلك من «المصالح المشتركة» بينهما في زمن الفرنسيّين: البَلَدان مختلفان أيضاً حول تقسيم مداخيل الجمارك وشركة حصر التبغ والتمباك المسمّاة بالفرنسيّة «الريجيه» (Régie des Tabacs et Tombacs). لم يكن لديّ مقدرة كافية لفهم مثل هذه الأشياء. لكنّي تذكّرت أنّي ذهبت مرّة إلى دمشق في صِغري في رفقة أهلي لزيارة أقرباء لنا هناك، فلم نقطع شيئاً في طريقنا يمكن تسميته بالحدود. ولا نحن مررنا بجمارك. جلّ ما حصل أن ضابطاً على الطريق أوقف سيّارتنا للحظة وسأل السائق: «الإخوان من لبنان؟» وعندما سمع الجواب ابتسم لنا وقال: «أهلين وسهلين.» لا أذكر في الواقع أنّنا كنّا في أيّ وقت سابق نفرّق بين «لبنانيّين» و«سوريّين» بدقّة تذكر. لكنْ عندما عدت لزيارة دمشق في صيف ١٩٥٠ فوجئت بوجود حدود، وعلى الجانبين منها أمن عام وجمارك، ولم أجد من يبتسم لي ويقول «أهلين وسهلين.»)

بحثت مع الدكتور فارس والدكتور فريحة خلال ذلك الصيف عن موضوع للأطروحة المطلوبة منّي لإكمال برنامج الأستذة، فاستقرّ

الرّأي على أن أتناول موضوع الميثولوجيا في شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام. بدأت أقرأ حول هذا الموضوع فوراً. وكان عليّ أن أتسجّل لدرسين في السنة التالية، درس عادي (قرّرت أن يكون درس اللغة السريانيّة مع الدكتور فريحة)، وآخر خصوصيّ (tutorial) مع الدكتور فارس اتّخذ فيه موضوعاً غير موضوع الأطروحة أبحث فيه. وصدف أنّي كنت أتجوّل يوماً بين رفوف المكتبة، فعثرت على كتاب عنوانه «حروب المقدّمين» (والمقدّمون زعماء القرى المارونيّة وغيرها من قرى جبل لبنان في العصور الوسطى). هذا الكتاب كان تركيزه على قصيدة زجليّة تتحدّث عن قصّة الموارنة في جبل لبنان في القرون الأولى من الإسلام، ويبدا لي مضمون هذه الزجليّة – وعنوانها «مديحة على جبل لبنان» – مزيجاً من التاريخ والأسطورة. ومؤلّفها راهب ماروني نشط في كتابة الزجل في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر وبدايات القرن التالي اسمه جبرائيل ابن القلاعي. فاستقرّ رأيي على أن أتّخذ هذه الزجليّة موضوعاً لبحثي، ووافقني الدكتور فارس على ذلك. وبدأت العمل على تحليلها.

كان الدكتور وليم شانكلين (William Shanklin)، من كلّية الطب بالجامعة، يقوم آنذاك بأبحاث في فرع من الأنثروبولوجيا يختصّ بدراسة الفروقات الجسديّة بين مختلف أجناس البشر، وبخاصّة القياسات المختلفة للجماجم وضبط النِّسَب بينها طولاً وعرضاً. (هذا الفرع من الأنثروبولوجيا يسمّى Anthropometry.) ومثل هذه الدراسة يتطلّب معرفة دقيقة بالجهاز العظمي للجنس البشري. استهواني هذا الموضوع، فذهبت إلى الدكتور شانكلين

أطلب منه المساعدة. أرشدني إلى كتب أطالعها، وأعارني مجموعة كاملة من العظام البشريّة بما فيها الجمجمة، وجهازاً خاصاً للقيام بالقياسات، طالباً منّي بالمقابل أن أطلعه على أيّ نتائج قد أتوصّل إليها. فقضيتُ جزءاً من ذلك الصيف في هذا العمل، طالباً من كلّ من التقي به أن أقيس رأسه، فأقيسه إذا سمح. (ألغت الجامعات البحث لاحقاً في هذا النوع من الأنثروبولوجيا لاعتباره يشجّع العنصريّة، وقام بين الأنثروبولوجيّين من ينكر وجود فروقات جسديّة أساساً بين مختلف عروق البشر، رغم أنّ وجودها واضح وضوح الشمس، فتبيّن لي من ذلك تأثير الاتّجاهات الاجتماعيّة والسياسيّة على الموضوعيّة في العلم.)

(أخبرني أسامة الخالدي لاحقاً أن الدكتور شانكلين حصل على مجموعة كبيرة من الجماجم الفينيقيّة، لم توجد بينها جمجمة واحدة فيها سنّ مصابٌ بتسوّس. وقد يشير ذلك إلى أنّ الجراثيم التي ينتج عنها تسوّس الأسنان لم تكن موجودة بعد على الساحل اللبناني في زمن الفينيقيّين.)

قضيت معظم ذلك الصيف في بيروت، حيث صار لي في «سيج هول» غرفة أسكن فيها: أتردّد كلّ يوم إمّا على بيت سعد، أو على بيت البارودي، أو على بيت أبو الجبين، أو أزور يوسف الشيراوي في «البريتِش كاونسِل». عندما أُكمل مبنى هذه المؤسّسة، انتقل إليه جميع طلاّب الجامعة الذين كانوا يحملون منحاً منها، وفي جملة هؤلاء صديقي أحمد الخطيب وغيره من الناشطين في جمعية العروة الوثقى. أذكر منهم جورج حبش، وإن لم أكن أعرفه جيّداً. ومن الذين كانوا يجتمعون مع أحمد وجورج في «البريتِش

كاونسِل»، أو ربّما يسكنون أيضاً هناك، علي منكو (درس معي القانون الروماني في صفّ الدكتور محمصاني)، وهاني الهندي (كان يجلس إلى جانبي في صفّ للدكتور فريحة درّسنا فيه تاريخ الشرق الأدنى القديم)، ووديع حدّاد (تعرّفت عليه جيّداً عندما كان يشارك أحمد الخطيب مسكناً في شارع بْلِسّ في إحدى عطل الصيف)، وغيرهم من الذين لم أعد أذكر أسماءهم. وكان واضحاً أنّ المكانة الأولى بينهم هي لجورج حبش. من الظرفاء من أطلق عليهم اسم «حزب الوشوشة» لكثرة تهامسهم في ما بينهم. وسمعت لاحقاً أنهم يسمّون أنفسهم «حركة القوميّين العرب»، وأنّ الأب الروحي لهذه الحركة هو الدكتور قسطنطين زريق.

حصل أسامة الخالدي على منحة تخولّه للسكنى بمبنى «البريتِش كاونسِل» ابتداءً بخريف ١٩٤٩، وكذلك أنيس السروجي وكمال سعد وغيرهم من الأصدقاء والرفاق، فصار ملتقانا أحياناً هناك. وربّما كان بسبب وجود كمال سعد في «البريتِش كاونسِل» في ذلك العام الدراسي، وتعرفّه هناك على يوسف الشيراوي وأنيس وأسامة، أن تمّ اللقاء أخيراً بين رفاقي في الجامعة (بمن فيهم رجا أبو الجبين) ورفاقي ورفيقاتي من بروتستانت رأس بيروت. إذ لم تكد تمضي أيّام على بداية السنة الدراسيّة حتى أصبح يوسف الشيراوي وأسامة الخالدي، في الأقلّ، من المثابرين على زيارة بيت سعد وبيت البارودي. وما هي إلاّ أسابيع حتى أصبح يوسف، بخاصّة، يعتبر من أركان المجتمع البروتستانتي في رأس بيروت. (بقي بروتستانت رأس

بيروت يعتبرون يوسف واحداً منهم، وما زالوا: يتابعون أخباره، ويتباهون بإنجازاته الرياديّة كوزير للصناعة والتنمية في البحرين، وبالمكانة التي وصلها لاحقاً كواحد من أبرز شخصيّات الخليج.)

كنت بدأت أعلّم في تلك الأثناء بالاستعداديّة: أدرّس التاريخ القديم للصفّ الثاني الثانوي، وتاريخ أوروبّا للصفّ الثالث، وكلا الدرسين بالإنكليزيّة. وجدت في البداية بعض الصعوبة في فرض الانضباط على الصفّ. (التلاميذ، مثلاً، يضعون السحالي في درج طاولة الأستاذ لامتحان هيبة المدرّس الجديد). لكنْ سرعان ما تمكّنت من فرض هيبتي على تلاميذي ليس بالزجر، بل بمشاركتهم في الضحك على الألاعيب التي يقومون بها، وبمصاحبة العديد منهم. ولم تكن إلاّ أسابيع حتى وجدت لنفسي أسلوباً في التعليم أتّبعه: أتوقّف عن المحاضرة كلّما ألحظ سأماً بين التلاميذ، وأضع الكتاب المدرسي جانباً لأسألهم عن رأيهم في نقطة معيّنة، واستفيض بعد ذلك في تزويدهم بمعلومات جانبيّة في الموضوع تشوّقهم للانتباه، كما كان يفعل الأستاذ منير سعادة في صفوفه عندما كنت أنا في الاستعداديّة.

المشكلة الكبرى التي واجهتها في أوّل عهدي بالتعليم كانت المشاركة التي طُلبت منّي في النظر بقضيّة سامي أبو الجبين، أخو رجا الأصغر، وأحبّ أولاد الستّ ساميّة الثلاثة إليها (الثالث هو هاني، وما زال طفلاً). لم يكن سامي بين تلاميذي، بل من تلاميذ زميلي إيليّا الشمّاس (من فلسطين): يحاول تعليمه الحساب أو

الفيزياء في الصفّ الأول الثانوي، فلا ينجح. أعلن لي إيليّا مرّة أنّ مسألة سامي أبو الجبين مستعصية إلى حدّ يصعب وصفه، وأنّ محاولة تعليمه مضيعة للوقت: لا ينتبه في الصفّ، ولا يدرس في البيت، ولا قدرة له على التركيز أصلاً. أخذت الستّ ساميّة تدعونا، أنا وإيليّا، إلى جلسات معها حول الشاي نبحث فيها مشكلة سامي ونستعرض معها الوسائل التي ربّما تكون ناجعة لتحسين وضعه، دون أن نتوصّل إلى حلّ. النتيجة الإيجابيّة الوحيدة لهذه الاجتماعات كانت اكتشاف قدرة إيليّا الشمّاس الهائلة في لعب «البريدج»، فصار يأتي بانتظام ليشاركنا في اللعبة: يهزمنا فيها ويقول: «شتّت بطّيخ» (أي أمطرت بطّيخاً).

لم أكن معتاداً على قراءة الجرائد يوميّاً بشكل منتظم، لكنْ أخبار عامي ١٩٤٩ و١٩٥٠ كانت كثيرة. تنظيم الكتائب أصبح رسميّاً «الحزب الديمقراطي الاجتماعي»، وإن بقي الناس يسمّونه «حزب الكتائب». كمال جنبلاط أسّس حزباً جديداً أسماه «الحزب التقدّمي الاشتراكي»، وبدأ يقود معارضة ضدّ الشيخ بشارة الخوري بعد أن عدّل الدستور ليسمح بانتخابه رئيساً للجمهوريّة ستّ سنوات ثانية. عاد كميل شمعون إلى لبنان من لندن حيث كان تعيّن سفيراً: الملصقات عنه على جدران بيروت تقول: «عاد الأسد إلى عرينه»، والمنتظر أن يتّفق مع كمال جنبلاط على معارضة بشارة الخوري.

والواضح أنّ الميل نحو المعارضة ينمو أكثر فأكثر. أنصار المقرّبين من الحكم وأعوانه يعيثون فساداً في البلاد ويسطون على

الناس، بخاصّة في الجبل، والشكوى منهم تتزايد. عُهد للملازم يوسف حركة تنظيم السير المتردّي في وسط بيروت بسبب التكاثر المفاجىء للسيّارات وقلّة حياء سائقيها: قام الملازم حركة بهذا الجهد بشكل أعجب الناس وجعلهم يتغنّون بفضائله، لكنّه أُوقف عن عمله بعد مدّة قصيرة عندما تجرّأ على إيقاف سيّارة لأحد النافذين كانت تتجاوز السيّارات الأخرى عند تقاطع الطرق في محلّة باب إدريس. قام وزير الماليّة حسين العويني بشراء احتياط هائل من الذهب تستند إليه الليرة اللبنانيّة، فقوبلت مبادرته بموجة من الانتقاد، وصار الناس يقولون أنّه لا يعرف شيئاً عن الاقتصاد إلاّ «الدكّ بالقصبة» (أي الادّخار بوضع الليرات الذهبية في جوف قصبة). قريب لأحد كبار الوزراء أطلق النار على شاب يعمل ميكانيكياً وأرداه قتيلاً في فرن الشبّاك لسبب تافه يتعلّق بأفضليّة المرور، وحالت التوسّطات دون تحويل القضيّة إلى العدالة: اختفى الجاني مدّة، ثمّ عاد إلى التجوّل في سيّارته في الشوارع، ولا يجرؤ أحد أن يقول بحقّه كلمة. جرائم أخرى ترتكب ويقبض على الجناة، فيحالون إلى القضاء وتصدر بحقّهم أشدّ الأحكام. ثمّ تبدأ الوساطات إذا كان للجاني قطب سياسي يحميه، فيخفّف عنه الحكم شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح طليقاً أو شبه طليق. ومن الأقطاب (حسب الكلام المتداول) من يقوم بزيارة الجاني من أنصاره في سجنه ويبعث إليه بأفخر الأطباق من المأكولات والحلوى.

أكملت بحثي عن زجليّة ابن القلاعي حول تاريخ الموارنة في العصور الوسطى، فاستحسنه الدكتور نبيه فارس، وطلب منّي أن

أحضّر بحثاً آخر يتناول نظرة الموارنة في لبنان إلى أنفسهم وتأثير ذلك على مواقفهم السياسيّة. أخبرت أبي بذلك، فنقل الخبر إلى وكيله المحامي الماروني فيليب سعادة. فأجابه الأستاذ سعادة: «قول لابنك، كلّ شي بسّ ما يصير موراني وينافسنا على رئاسة الجمهوريّة.»

استدعاني مستر ليفيت، رئيس الاستعداديّة، إلى مكتبه في بداية الفصل الثاني من العام الدراسي وأخبرني أن إدارة المدرسة قرّرت الاستغناء عن خدماتي في السنة التالية. سألته عن السبب، فقال أنّ النظام الأميركي الذي تقوم عليه المدرسة لا يجبره على إعطاء أسباب. قلت له أن العقد بيني وبين المدرسة يفترض، ضمناً، بقائي فيها سنتين ريثما أكمل دراستي العليا في الجامعة، فأجاب: «اسأل إدارة الجامعة عن ذلك.» ذهبت إلى البيت مساء ذلك اليوم خائباً وأخبرت أبي بالأمر، فكان جوابه: «إذا كانوا لا يريدونك في الاستعداديّة مدرّساً، فانتقِ الجامعة التي تريد في العالم لتكمل الدراسة فيها حتى تنال الدكتوراه، وأنا أرسلك إليها مهما بلغت النفقات، فتعود بعد ذلك إلى الجامعة أستاذاً إذا شئت.»

عقدنا جلسة في بيت البارودي لنختار جامعة في إنكلترا أو أميركا أُكمل دراستي فيها، فوقع الاختيار على كلّية الدراسات الشرقيّة والإفريقيّة (School of Oriental and African Studies) بجامعة لندن، وهي آنذاك أشهر مراكز الدراسات الشرقيّة في العالم، إن لم يكن أفضلها أيضاً. (كان ذلك رأي يوسف الشيراوي،

وثنّت عليه ندا.) قدّمتُ الطلب للالتحاق ببرنامج الدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط بهذه الكلّية (حيث لم يكن يوجد آنذاك برنامج ينتهي إلى درجة الأستذة السابقة للدكتوراه، كما في الجامعات الأميركيّة). وأرسل أساتذتي إلى إدارة الكلّية أحسن التوصيات بشأني، فوصلني القبول فيها خلال شهرين، وبدأت استعدّ نفسياً للانتقال من بيروت إلى لندن.

كنت أتنزّه يوماً برفقة يوسف الشيراوي في أرض الجامعة عندما رأيت شاباً إنكليزيّاً يبلغ طوله مترين، يتنقّل من حجر إلى الآخر على حافّة الطريق ويهوي بقامته يميناً ويساراً للمحافظة على توازنه. قال لي يوسف أنّ الشاب هو «حمد العاجل» (أي حمد العاقل). أبوه هو شارلز بلغريف (Charles Belgrave)، المستشار البريطاني للشيخ سلمان آل خليفة، حاكم البحرين، والشاب نفسه (وهو وحيد والديه) وُلد في زمن الشيخ حمد، والد الشيخ سلمان، فأسماه أبوه «جيمز حمد» (James Hamed). ورفاقه في البحرين يلقّبونه «حمد العاجل» مزحاً، بالإشارة إلى تصرّفاته الصبيانيّة.

هذه هي المناسبة التي تعرّفت فيها على «حمد العاجل» الذي هو جيمز بلغريف. عرّفه يوسف إليّ قائلاً له أنّي سأكون معه في كلّية الدراسات الشرقيّة بلندن في السنة القادمة، فبدا لي أنّه سرّ بذلك. أعطاني عنواناً ورقم تلفون لمؤسّسة أتّصل به عن طريقها حال وصولي إلى لندن، وقال أنه سيهتمّ بي هناك عند الحاجة.

تخرّج أنيس السروجي ويوسف الشيراوي من الجامعة في ذلك العام: أنيس من قسم الهندسة، ويوسف من دائرة الكيمياء. وأقمنا

لهما حفلة عشاء في حديقة «مطعم الغلاييني» بمحلّة الرَوشة، بعد حفلة التخرّج. والجالس على الطاولة التي إلى جانبنا، مع عائلته، هو النائب ووزير الداخليّة (آنذاك) صائب سلام، خال أسامة الخالدي. فتعرّفنا عليه وتعرّف علينا، قائلاً لنا أن نطلب ما نريد، لأنّ عشاءنا سيكون على حسابه. في تلك الليلة بدأ العمل بالتلفون الآلي في بيروت: ذهبنا للتفرّج عليه في مكتب المطعم، حيث أخذ عفيف تلحوق الآلة الجديدة وأدار قرصها ليتكلّم مع أهله بعين المريسة.

أصبح شملنا بعد تلك الليلة على وشك الافتراق، فدعانا أسامة لنقضي ثلاثة أو أربعة أيام معاً في مزرعة آل سلام في قريتي الحنّية والعزّية بقضاء صور، بجنوب لبنان. وصلنا إلى هناك قبل غروب الشمس، ونظرت إلى الشرق والشمال، ولأوّل مرّة منذ زيارتي لدمشق في صِغَري لم أرَ هناك جبل صنّين. تبيّن لي آنذاك كم كان العالم الذي عشت فيه حتى ذلك الوقت صغيراً.

كان يوسف الشيراوي ينوي العودة إلى البحرين من مطار المزّة قرب دمشق، إذ لم يكن مدرج مطار بيروت الجديد أُكمل بعد. ومطار بيروت القديم في منطقة «بير حسن» لا قدرة له على استقبال الطائرات الكبيرة. فرافقنا يوسف إلى دمشق لوداعه، ووصلناها مساءً. قضينا السّهرة جالسين على كراسي القشّ «الشّاميّة» (وهي التي لا ظهر لها) حول ساحة المرجة نشرب الشاي، ثمّ ودّعنا يوسف في اليوم التالي. ولم نجتمع منذ ذلك الوقت بعددنا الكامل.

٩

لندن ١٩٥٠

أخذني أخي خليل إلى «ساحة النجمة» (حيث مبنى البرلمان) لشراء تذكرة سفر إلى لندن من مكتب طيران الشرق الأوسط هناك، وهو الذي كان يصدر أيضاً تذاكر للطيران على شركة «بان أميركان» (Pan American Airlines). والمسؤول عن بيع التذاكر في ذلك المكتب سليم علي سلام، ابن خال أسامة الخالدي ورفيق سابق لأخي خليل في القسم الفرنسي من المدرسة الاستعداديّة. كنت أسمع بوجود شركة طيران الشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٧، لكنّ طيرانها كان بعدُ محصوراً في بلاد المشرق العربي. لذلك كانت التذكرة التي حصلت عليها من شركة «بان أميركان». وتعيّن الموعد لسفري في ١٧ أيلول ١٩٥٠.

قبل يومين من هذا الموعد سألتني أمي ماذا أريد أن تجهّز لي للغداء في يومي الأخير قبل السفر. قلت لها «دجاج محشي». كان الدجاج يُقتنى حتى ذلك الوقت أكثر ما يكون لبيضه، فلا يؤكل

منه صغيراً إلا الديوك (تؤكل في منطقتنا محمّرة، وليس مشويّة كما في المناطق الشمالية من لبنان). والدجاجة لا تُذبح لتُؤكل إلاّ بعد توقّفها عن البيض، فتكون مسنّة، يستغرق طبخها ساعات. وطعم الدجاج آنذاك غير طعمه اليوم، إذ لم يكن يُربّى في المزارع، ولم يكن يأكل المستحضرات الاصطناعيّة بل يرعى العشب حول البيوت أو في الحقول، أو يُطعم الزوان ونخالة الدقيق الممزوجة بالماء، مما يجعل طعمه – وكذلك طعم بيضه – شهيّاً للغاية. وعندما يُسلق الدجاج المحشي بالأرزّ والصنوبر وقليل من اللحم مع ما لزم، فقط، من التوابل، تفوح منه رائحة زكيّة لا يعرفها من ليس من جيلنا. أرسل أبي إلى مزرعتنا في بطلّون طالباً ذبح ما لزم من الدجاج «البيّاض» لغدائي الأخير قبل سفري، ولم يكن الدجاج «البيّاض» في العادة يُذبح.

في صباح يوم سفري طلبت أختي سنيّة من أحد إخوتي أن يلتقط لنا صورة أمام بيتنا في بحمدون. نظرت إليها ونحن ننتظر التقاط الصورة، وأنا أعتبرها بعدُ بنتاً صغيرة، ففوجئت بكونها أصبحت صبيّة جميلة، ربّما تتزوّج في غيابي.

رافقني أهلي ومن تبقّى في لبنان من أصدقائي لوداعي في مطار بيروت الجديد. مبنى المطار لم يكن أُنشىء بعد، وجلّ ما كان أُكمل منه هو المدرج. تأخّر أنيس السروجي، من بين رفاقي، في الوصول إليه، فلم أتمكّن من وداعه كما يجب. رأيته يلوّح إليّ بيديه من بعيد وأنا اتّجه نحو الطائرة. (كانت هذه آخر مرة أراه فيها شابّاً، إذ إنّه غادر لبنان بعد سفري بشهرين أو ثلاثة ليلتحق بأهله في الناصرة التي أصبحت بعد عام ١٩٤٨ جزءاً من إسرائيل.)

قيل لي أن الطيران من بيروت إلى لندن يستغرق ثلاث عشرة ساعة في العادة، مع توقّف في إسطنبول وآخر في بروكسيل. واستغرق الطيران في تلك الرحلة ما يقرب من خمس عشرة ساعة (أي ثلاثة أضعاف المدّة التي يستغرقها اليوم). الطيران التجاري ما زال بالمحرّكات وليس بالنفّاثات، والطائرات لا تحلّق عالياً، فيتيح ذلك للمسافر، إذا شاء، أن يتمعّن في تفاصيل الأرض التي يمرّ فوقها: تضاريس الجبال والتلال فيها، والمدن والقرى بشوارعها وبيوتها، وإن كانت هذه تُرى صغيرة، والأنهر والحقول الموضّبة، بألوانها المختلفة. هذا إذا كان الجوّ صافياً (كما كان في ذلك اليوم كامل الطريق تقريباً). طائرتنا من أسطول «بان أميركان» كان اسمها Clipper Donald McKay ونوعها DC6. جميع المقاعد فيها فخمة، ومن درجة واحدة، أفخم من مقاعد الدرجة الأولى اليوم (على ما أذكر). المسافر الوحيد في الطائرة الذي أعرفه من الجامعة هو سامي جبر، من أصدقاء أحمد الخطيب (كانا يقولان لي أن الجامع بينهما هو انتماؤهما المشترك إلى جمعية «البطون الكبيرة» التي لا تجتمع إلا للأكل).

كانت تجلس في المقعد إلى جانبي، إلى أن حططنا في مطار إسطنبول (الرحلة استغرقت ثلاث ساعات ونصف الساعة تماماً، على ما أذكر)، صبيّة تركيّة عرّفت عن نفسها بالفرنسيّة بأنّ اسمها Nuquette قالت أنّه اسم عربي (تبيّن لي بعد ذلك أنّه «نكهة»، وباللفظ التركي «نكهت»). طلبت منها أن تُسمعني لغتها (كنت سمعت من أمّي أنّها لغة جميلة جدّاً للسماع)، فغنّت لي بصوت خافت أغنية من التراث التركي العثماني اسمها «كاتِب» (بمعنى «موظّف

إداري»، كما فهمت). ثمّ أخذت تفسّر لي الكلمات والجمل التي تتألّف منها هذه الأغنية، المقطع تلو المقطع. فتاة تعتزّ لكون حبيبها موظّف إداري يلبس القميص المنشّى. أخذت السماء تمطر وهو في طريقه إلى مرفأ أُسْكُدار (على الجانب من مضيق البوسفور المقابل لإسطنبول)، فتبلّلت أطراف ثوبه الطويل بالوحل. أضاعته مرّة وأخذت تبحث عنه، وإذا به إلى جانبها. يستفيق في الصباح وكأنّ عينَيه مخمورتان. وَجَدت منديلاً ملقىً على الطريق إلى أُسكدار، فأخذت المنديل لترسله إليه محشوًّا براحة الحلقوم (lokum). أُعجبت بهذه الأغنية لبساطة تعابيرها والصور اللطيفة فيها فحفظتها غيباً، وكانت أوّل ما تعلّمت من التركيّة. (نغمها على نغم «يا بنات اسكندرونة»، وصارت لها شهرة عالميّة بعد عشرة سنوات تقريباً عندما أخذت تغنّيها مغنّية أميركيّة، لم أعد أذكر اسمها: تغنّي كلماتها بالتركيّة، ثمّ تقولها قولاً بالإنكليزيّة.)

وصلنا إلى مطار هيثرو ليلاً. وعند توقّف الطائرة صعدت إليها موظّفة إنكليزيّة في شركة «بان أميركان» لترحّب بوصولنا إلى لندن وتعلن لنا الوقت حسب توقيت غرينيتش. ثمّ قادتنا إلى سقيفة إلى جانب من المطار حيث الأمن العام والجمارك (إذ لم يكن في مطار هيثرو بعدُ مبانٍ للوصول والإقلاع). أعلمني الضابط المناوب في الأمن العام كيف يمكنني أن أحصل على إقامة سنويّة في بريطانيا، وعلى تأمين صحّي مجاني، وعلى بطاقة إعاشة، لكون التقنين على اللحم والبيض والزبدة والشوكولاته ما زال جارياً في البلاد منذ زمن الحرب. بعد ذلك استقلّينا باصاً أوصلنا إلى مركز الشركة في محلّة

«فيكتوريا»، حيث ترتّبت لنا الإقامة لليلة واحدة في فندق بشارع فيكتوريا اسمه Rubens Hotel. نزلنا، أنا وسامي جبر، في غرفة واحدة بهذا الفندق. وفي وقت مبكّر من اليوم التالي غادرني سامي متوجّهاً إلى مدينة برمنغهام ليلتحق بجامعتها، وانصرفت أنا للاهتمام بأموري.

خرجت أوّلاً لأتنزّه قليلاً في الشوارع المحيطة بالفندق. قالت لي المرأة التي قامت بترتيب الغرفة خلال تناولنا للفطور أنّ قصر باكنغهام لا يبعد كثيراً عن الفندق، وقد حان الوقت لتغيير الحرس أمام مدخله، وهو أفضل المشاهد المتوفّرة في المدينة (the best show in town)، فذهبت إلى هناك للتفرّج. كان واقفاً إلى جانبي صبيّ إنكليزي صغير يبدو من ملبسه أنّه من أسرة ثريّة. سألني من أين أتيت، وأجبته «من لبنان»، ولم يفهم، فقلت له «من بلاد العرب» (Arabia). قال لي: «أنا عندي عربي (an Arabian) اشتراه لي أبي يوم عيد ميلادي.» استغربت كلامه في البداية، إلى أن فهمت منه أنه يقصد الخيول العربيّة.

كانت لندن في ذلك الوقت مدينة تكاد تقتصر على أهلها: الأجانب فيها قليلون وأعدادهم تكاد لا تُلاحظ. آثار الحرب ما زالت بادية في كلّ مكان: مبانٍ نصف مهدومة هنا وهناك، وفراغات بين البيوت المتّصلة أو شبه المتّصلة ببعضها أصلاً على الجانبين من كل شارع. والواضح أن جميع هذه البيوت، وكذلك المباني، بحاجة ماسّة إلى الصيانة: جدرانها الخارجيّة تكاد تكون سوداء من تراكم التلوّث عليها، والمدهون من الجدران يتقشّر. دُهشت من نظام السير الذي لحظته، وبخاصّة الإشارات

الضوئية عند تقاطع الطرق، وهي التي لم أكن رأيتها قبلاً. وأعجبت أيضاً بتصرّف الناس المهذب في الشوارع، وبالطريقة التي تباع فيها الصحف على الأرصفة: توضع على طاولة صغيرة، وإلى جانبها وعاء للنقود، فيأخذ المشتري ما أراد منها ويضع ثمنها في الوعاء دون أن يكون عليه رقيب. (اكتشفت في ذلك اليوم أيضاً أنّ لندن لا تخلو من النصب والاحتيال.)

كان حجزي للسكنى في مؤسّسة بضاحية كرويدون (Croydon) يديرها جاويش سابق في الجيش البريطاني بالهند اسمه مِستر دريسكول (Mr. Driscoll)، والمؤسّسة اسمها «نادي اللغات الدوليّة» (International Languages Club). نصحني القيّمون على «البريتِش كاونسِل» ببيروت أن يكون سكني فيها، قائلين لي أنّها قريبة من موقع كلّية الدراسات الشرقيّة والإفريقيّة، بالإضافة إلى ميزاتها الأخرى. سألت في الفندق عن موقع كرويدون، فقيل لي أنّ أفضل طريقة للوصول إليها هي بالقطار الحديدي من محطّة فيكتوريا. فحزمت أمتعتي (منها كيس ضخم يحتوي ما يكفي من الألبسة والجوارب الصوفيّة لثلاث سنين) وأخذت القطار من المحطّة المذكورة إلى كرويدون. كان عليّ هناك أن أمشي حاملاً حقيبة سفر في كلّ يدّ، وجارّاً الكيس الضخم ورائي، وأنا أستدلّ عن موقع «نادي اللغات الدوليّة»، إلى أن نجحت في الوصول إليه.

مركز النادي بناء من ألواح الخشب يشبه الثكنة العسكريّة، ترفرف فوق مدخله أعلام مختلف بلدان الأرض، وداخل البناء مكتب مِستر دريسكول وقاعتان كبيرتان في منتهى القذارة، واحدة للطعام

وأخرى للجلوس. الثانية تعجّ بالطلاّب الإفريقيّين والهنود وغيرهم من الآسيويّين، كلّ فريق، عدا القليلين، يلبس لباس بلاده: يجلسون في حلقات على مقاعد القاعة الرثّة ويتحدّثون فيما بينهم بأصوات عالية، كلّ حلقة بلغة. لم يكن لدى مستر دريسكول علم سابق بقدومي. تفحّص دفتره فلم يجد لاسمي وجوداً. (كان أرسل إليّ رسالة لطيفة إلى بيروت تُرحّب برغبتي في السكنى عنده) لكنّه، على كلّ حال، لم يجد مشكلة في الأمر. مشينا مسافة قبل الوصول إلى مكان السكن في «نادي اللغات الدوليّة»: صفّ من البيوت المتلاصقة المبنيّة بالطوب الرمادي الداكن، كلّ بيت من ثلاثة طوابق، وجميعها يبدو وكأنّه على وشك الاندثار. دلّني على غرفتين، كلّ واحدة في بيت، فانتقيت الغرفة الأقلّ قذارة: غرفة صغيرة ضيّقة تقتصر مفروشاتها على سرير، وكرسي غير مريح، وطاولة، وخزانة حديديّة. وأمام الغرفة حمّام مشترك لسكّان الطابقين الثاني والثالث من البيت. سعر الغرفة، مع الأكل، ثلاث ليرات إسترلينيّة ونصف الليرة، تُدفع آخر كلّ أسبوع. أعطاني مستر دريسكول مفتاح الغرفة ومفتاح البيت، وكذلك مفتاح النادي، ثمّ ودّعني وانصرف.

ذهبت لتناول العشاء في قاعة الطعام، فأصابني اشمئزاز من شكل الأكل وزنخه، وضجيج الطلاّب الأفريقيّين والآسيويّين حولي. شعرت على الأثر بغمّ شديد وبندم على الساعة التي قرّرت فيها الانتقال من بيروت إلى إنكلترا. عدت إلى المسكن الكئيب الذي تعيّن لي، وكتبت رسالة إلى والديّ أصف لهما فيها مدى خيبتي بلندن، ثمّ رثيت لحالي ونمت. اتّصلت تلفونيّاً صباح اليوم التالي بسفارة العراق حيث كان يعمل صديقنا فيصل الدملوجي،

وهـو زوج مُـنـى بــارودي شـقـيـقـة نِـدا. زوّدني بـرقـم تـلـفـونـه وبـالمعلومـات اللازمـة للوصول إلى أقرب محطّة بـاص لمنزله في ضاحية باتني (Putney).

شعرت في الدقيقة التي دخلت فيها بيت فيصل ومُنى أنّ الوضع بالنسبة إليّ تغيّر، وأنّ الحياة في لندن قد تكون ممكنة، بل ربّما ممتعة. التقيت هناك بشابّين كنت أعرفهما من قبل: رجا شحادة، من زحلة (كان معي في مدرسة برمّانا)، وابن خالته نبيل عوض، من اللاذقية (كان معي في الجامعة ببيروت). الأوّل يتخصّص في هندسة الكهرباء، والثاني في الأدب الإنكليزي، وكلاهما من أبناء طائفتنا. وافقاني أنّ السُكنى في «نادي اللغات الدوليّة» بكرويدون غير مستحبّة، واقترحا عليّ أن أنتقل فوراً إلى حيث يسكنان: نُزُل في منطقة إيرلز كورت (Earls Court) من النوع الذي كان يسمّى «ديجز» (digs). تأكّدا لي من وجود غرفة شاغرة في هذا النُزُل باتّصال تلفوني، فانطلقت فوراً إلى كرويدون، يرافقني رجا، لآتي بأمتعتي إلى مسكني الجديد. مررت على مكتب مستر دريسكول لأحاسبه على الليلة التي قضيتها عنده، ولم أجده هناك، فتركت المفاتيح التي أعطاني إيّاها على طاولته مع ورقة نقديّة بقيمة عشر شلنات (نصف ليرة إنكليزيّة). وهكذا انتهت علاقتي بكرويدون إلى الأبد.

رافقني رجا شحادة في اليوم التالي إلى كلّية الدراسات الشرقيّة والإفريقيّة حيث تسجّلت. (الرسوم للسنة الكاملة لم تكن أكثر من ثماني عشرة ليرة إسترلينيّة.) علّمني أيضاً كيف أذهب بالتيوب

(tube)، أي القطار الكهربائي الذي يسير تحت الأرض، لأصل إلى هناك، وكيف يمكنني أن أحصل على بطاقة فصليّة لركوب التيوب بين «إيرلز كورت» و«راسّل سكوير» (Russell Square) في أيّ وقت شئت. في اليوم ذاته ساعدني رجا على فتح حساب في فرع كرومويل رود (Cromwell Road) من بنك ناشيونال بروفنشيال (National Provincial) لأودع فيه الشيك الذي زوّدني به أبي والصادر من البنك الأهلي المصري (National Bank of Egypt). وجدت مدير البنك مستعدّاً لدفع قيمة الشيك إليّ نقداً على الفور، أمّا إدخاله في حساب فيستوجب انتظار مدّة شهر في الأقلّ، إن لم يكن أكثر، لإكمال المعاملات اللازمة، لكون مصر (آنذاك)، وهي مصدر الشيك، من منطقة الإسترليني (sterling area). لم أفهم معنى ذلك، لكنّي قبلت أن أنتظر شهراً أو ربّما شهرين حتى يصبح الشيك مودعاً في حسابي، إذ كان في جيبي من النقد ما يكفيني مدّة الانتظار.

كان موقع مسكني في «إيرلز كورت» في ٢٥ كولينغهام رود (25 Collingham Road). والنُزُل الذي أنا فيه شعبيّ الطابع. صاحبه اسمه لورد غرين (Lord Green): قيل لي أنّه لورد حقيقي من نبلاء البلاد، لكنّ ذلك لم يكن بادياً من مظهره. كان يأتي بين حين وآخر ليستلم ما تجمّع من الإيجارات من القَيِّمة على النُزُل. والمذكورة سيّدة ربّما في الخمسينات من عمرها اسمها مِسز جيلسون (Mrs. Gilson): فمها خالٍ تماماً من الأسنان، وبسبب ذلك كانت تلثغ في كلامها. تتحدّث بلهجة «الكوكني» (الطبقة الشعبيّة من سكّان المنطقة الشرقيّة من وسط لندن المسمّاة East End). ولهؤلاء عادة في استخدام الألغاز في كلامهم: مثلاً، استعمال الجزء

الأول من عبارة تكون على قافية الكلمة التي يعنونها، وهذا ما يسمّى «العاميّة المقفّاة» (rhyming slang). إذا أرادوا الإشارة إلى سرير (bed)، مثلاً، يقولون «العمّ (أنْكِل) ندّ» (Uncle Ned) . أو يختصرون العبارة إلى «أنكل». وإذا أرادوا الإشارة إلى الدَرَج (stairs)، يقولون «تفّاح وإجاص» (apples and pears)، أو يختصرون العبارة إلى «تفّاح» (apples). وعلى الشاطر أن يفهم. كانت تعتقد مِسز جيلسون في البداية أنّي يهودي، بسبب الشبه بين معظم اليهود والعرب. فسألتني مرّة: «هل أنت اثنتان إلاّ خمس (a five-to-two)؟» لم أتمكّن من إجابة السؤال، فاضطرّت إلى شرحه: هي تسألني إذا كنت يهودياً، إذ إن عبارة (five-to-two)، بالإشارة إلى الساعة، هي على قافية Jew، أي يهودي. (تمكّنت من تعلّم أشياء كثيرة في حياتي، لكنّ تعلّم ألغاز «الكوكني» بقي متعذّراً عليّ).

رأيت ضباب لندن (London fog) الأسطوري لأوّل مرّة وأنا في نُزُل مِسز جيلسون. استيقظت صباح يوم أحد في الساعة العاشرة (حسب ساعتي) وفتحت نافذة الغرفة، فوجدت الوقت ما زال ليلاً (على ما حسبت)، سوى أنّي لم أتمكّن من رؤية شيء في الشارع. كنت اعتدت على الرائحة الخاصّة بشوارع لندن وبيوتها في الصباح (وهي التي اختفت بعد أن غيّر الإنكليز طبيعة مآكلهم الصباحيّة وأساليب التدفئة في منازلهم): مزيج من رائحة شحم الخنزير (lard) ودخان فحم الحجر. وإذا بي أداهم برائحة أخرى، وهي رائحة دخان فحم الحجر وحده، تنشّقتها فبدأت أسعل. ذهبت أسأل نبيل عوض عن الأمر، ففهمت منه أنّ لندن كثيراً ما تشهد هذه الظاهرة بسبب كثرة اعتمادها على فحم الحجر في

البيوت والمصانع التي تحيط بالمدينة، وذلك منذ بداية ما يسمّى بالثورة الصناعيّة في القرن التاسع عشر. تأتي أيّام يكون الجوّ فيها ضباباً والريح هادئة، فيختلط الدخان بالضباب في مزيج كثيف لونه بين الأصفر والأخضر الداكن يسمّونه «حساء البازلاء» (pea soup)، فتنعدم الرؤية في الشوارع وتتوقّف كلّ حركة فيها ليوم كامل في بعض الأحيان. (لم تعد لندن تشهد هذه الظاهرة بعد أن وُجدت الأساليب الناجعة لتلافيها).

تمّ إعلامي عندما تسجّلت في كلّية الدراسات الشرقيّة أنّ المشرف عليّ سيكون الأستاذ برنارد لويس. قال لي بعض الطلاّب الذين التقيت بهم هناك أنّ عليّ أن أحذر منه لكونه يهوديّاً، يكره العرب ويحاول إذلالهم. لكنّي وجدت ذلك غير صحيح عندما ذهبت إلى مكتبه أوّل مرّة لأسأله ما عليّ أن أفعل. فهمت منه أنّ شهادة البكالوريوس التي أحملها من الجامعة الأميركيّة في بيروت مقبولة في جامعات أميركا دون سؤال، لكنْ ليس في جامعات بريطانيا، وإن كانت من الدرجة الأولى كما في حالتي. أضف أنّ تخصصّي السابق كان في التاريخ الأوروبي، وأنا أريد أن أتحوّل الآن إلى التخصّص في تاريخ الشرق الأوسط. ولذلك عليّ أن أقضي السنة الأولى من وجودي بالكلّية في الاستعداد لما سمّاه (qualifying examination)، أي امتحان تأهيل، في ثلاثة مواضيع عامة: التاريخ الإسلامي والبيزنطي، وتاريخ بلاد الشام ومصر، والدين الإسلامي ومؤسّساته. وهذا يستوجب متابعتي لعدّة دروس، منها دروس خاصّة في مواضيع

جانبيّة، مثل تاريخ المغول وتاريخ المماليك. لم أعترض على ذلك، لكنّي اقترحت على الأستاذ لويس أن أبدأ في الوقت ذاته بالعمل على أطروحتي إذ لا نيّة لديّ في البقاء في لندن إلى الأبد، فاستقرّ الرأي على هذا الترتيب.

بدأنا في البحث عن موضوع أكتب فيه أطروحتي، فاستبعد الأستاذ لويس موضوع الميثولوجيا في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام لكونه يتعلّق بالأنثروبولوجيا أكثر منه بالتاريخ. أودعته البحثين اللذين كتبتهما للدكتور نبيه فارس في العام السابق عن زجليّة ابن القلاعي وقضيّة الموارنة، علّه يستوحي من هذين البحثين موضوعاً أتابع البحث فيه. عدت إليه في اليوم التالي لآخذ منه النتيجة، فوجدته معجباً ببحثي عن زجليّة ابن القلاعي. قال لي: «بحثك في موضوع الموارنة هراء سياسي من النوع العادي، لا يليق بأطروحة أكاديميّة؛ أما بحثك عن ابن القلاعي فهو فتح جديد. أنت بحثت، دون أن تدري، في الكتابة التاريخيّة المارونيّة التقليديّة حول تاريخ لبنان في العصور الوسطى، والتأريخ التقليدي عند العرب عامّة موضوع لم يتصدَّ له أيّ باحث بعد. لذلك اقترح عليك أوّلاً، أن تتوسّع في بحثك عن ابن القلاعي وثانياً، أنّ تأخذ نماذج أخرى من التأريخ الماروني التقليدي من أزمنة مختلفة (مؤلّفات البطريرك أسطفان الدويهي، مثلاً، أو كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان لطنّوس الشدياق)، فتعالجها بنفس الطريقة، مقابلاً ما ورد فيها مع ما ورد في المصادر الإسلاميّة والبيزنطيّة والغربيّة ومحفوظات الفاتيكان حول تاريخ لبنان في الفترة ذاتها. هذا يستوجب، طبعاً، في الأقلّ زيارة واحدة مطوّلة للفاتيكان،

والعودة إلى لبنان في وقت ما لزيارة بكركي وتفحّص المحفوظات البطريركيّة هناك. فهل أنت مستعدّ لذلك ماديّاً؟» أجبت أنّي مستعدّ. وتقرّر أن أتّخذ من الكتابات المارونيّة التقليديّة حول تاريخ لبنان في عصر الفرنجة والمماليك موضوعاً لأطروحتي.

التقيت في الكلّية بجيمز بلغريف الذي عرّفني عليه يوسف الشيراوي في بيروت. أخبرني بأنّه أكمل دروسه الثانويّة في مدرسة إنكليزيّة خاصّة بجبال كشمير في الهند، وبعد ذلك أدّى الخدمة العسكريّة في الشرطة البريطانيّة في فلسطين (Palestine Police)، ثمّ أمضى سنة يدرس اللغة العربيّة في بيروت، لكونه يتكلّم اللغة العربيّة باللهجة البحرينيّة الدارجة، ولا معرفة له بالفصيحة. وهو الآن يتابع برنامج البكالوريوس في التاريخ في الكلّية، وسوف نأخذ دروس هذا البرنامج معاً.

سألني جيمز: «هل أعجبك جاسم فخرو؟» أجبته بأنّه كان صديقي في الجامعة الأميركيّة. قال لي: «أنا لا أتكلّم عن جاسم فخرو البحرين بل عن الأستاذ برنارد لويس، جاسم فخرو إنكلترا». عند ذلك لاحظت الشبه المدهش أوّلاً، في البنية وثانياً، في السمار وتقاطيع الوجه، بين الأستاذ لويس وجاسم فخرو، وما يجمع بينهما هو العرق السامي المشترك بين اليهود والعرب.

فوجئت يوماً بوجود حسن الحسيني يتابع دراسته في إحدى كلّيات جامعة لندن. التقينا، على ما أذكر، في المطعم المركزي للجامعة بمبنى «سينات هاوس» (Senate House)، واصطحبني بعد الغداء إلى حفلة رقص في مبنى لسُكنى طالبات الجامعة. هناك شاهدت جهاز التلفزيون لأوّل مرّة وهو يبثّ تمثيليّة اسمها «النساء

الصغيرات» (Little Women)، والقصّة لهذه التمثيليّة من تأليف الكاتبة الأميركيّة لويزا ماي آلكوت (Louisa May Alcott). كان أبي أخبرني عن نيّة علماء الغرب اختراع التلفزيون عام ١٩٣٧ عندما رأيت الراديو وسمعته لأول مرّة (كما ذكرت سابقاً)، ولم أكن أعرف أن هذا الاختراع الجديد والعجيب قد تحقّق في الواقع. (لم أشاهد تلفزيوناً آخر في أيّ مكان من إنكلترا خلال السنوات الثلاث التي قضيتها طالباً هناك، إذ كان التلفزيون آنذاك بعدُ قيد التجربة، ولم يعمّ استعماله عالميّاً، على ما أذكر، حتى أواخر الخمسينيّات.)

أخذت أتردّد في تلك الأثناء على جيمز بلغريف في المبنى رقم ١٠٦ بغلوستر رود (106 Gloucester Road)، وهو آنذاك نُزُل أنيق للشبّان والشابّات من الإنكليز تديره سيّدة في أواخر الثلاثينات من عمرها اسمها لورا بستوذريك (Laura Bestwetherick)، ويلفظ «بسوذريك» بإسقاط التاء منه: تسكن مع زوجها المُسِنّ في الطابق الذي تحت الأرض من المبنى، حيث المطبخ وغرفة الطعام. وفي أبرد مكان من ذلك الطابق مستودع اللحوم وغيرها من المواد الغذائيّة (pantry)، إذ لم يكن استعمال البرّادات الكهربائيّة منتشراً في إنكلترا بعد. ضيوف مِسز بستوذريك في نُزُلها يختصرون اسمها إلى «مِسِز بِي» (Mrs. B)، نظراً لصعوبة لفظه بالكامل. وكان لجيمز مكانة خاصّة لديها، لكونه ينتمي إلى أسرة نورمانديّة (Norman) عريقة قدمت من شمال فرنسا إلى إنكلترا عام ١٠٦٦ مع وِلْيَم الفاتح (William the Conqueror). ومن ذلك اسم أسرة بلغريف الفرنسي الأصل: بالفرنسيّة القديمة bel grave، بمعنى «التربة الجيّدة» لزراعة الكرمة.

جاء جيمز بلغريف مرّة لزيارتي في نُزُل مِسز جيلسون بإيرلز كورت بعد شهرين تقريباً من إقامتي هناك، فوجد ذلك النُّزُل «مكاناً مُغِمّاً» (a dingy place). أنا أدفع ثلاثة جنيهات ونصف كلّ أسبوع لإقامتي فيه (الليرة الإسترلينيّة آنذاك تساوي عشرين شلناً shilling، والجنيه يساوي واحداً وعشرين شلناً بدلاً من عشرين، تسعَّر به الخدمات والسلع من باب «اللصوصيّة الظريفة» genteel swindling، إذ لا يوجد قطعة نقد اسمها الجنيه). فلماذا لا انتقل للسكن معه في نُزُل مِسز بي بغلوستر رود وأدفع جنيهاً إضافياً لإقامتي في مكان لائق، وهو الكفيل بأن تقبلني مِسز بي ضيفاً في نُزُلها وإن لم أكن إنكليزيّاً؟

اصطحبني جيمز إلى نُزُل مسز بي في ذلك المساء، فوجدناها عند الباب تودّع ضيفاً كان يزورها هي وزوجها. وهو رجل أشيب متقدّم في السنّ يبدو من تصرّفه أنّه عريق النسب. سألني عند سماعه لاسمي: «ما هي علاقة القرابة بينك وبين الدكتور كالب الصليبي (Caleb Saleeby)؟ كان رجلاً مرموقاً في بلادنا، ويقال أنّ أصله من جبل لبنان، وكثيراً ما كنت أذهب للاستماع إلى محاضراته في علم الوراثة (Genetics) وتحسين النسل (Eugenics).» أجبته أن كالب الصليبي هو ابن شقيق جدّة جدّتي لأُمي: أبوه إلياس الصليبي أسّس «المدارس اللبنانيّة» بجبل لبنان في القرن التاسع عشر ثمّ هاجر إلى إنكلترا، وأمّه إنكليزيّة، وأبي كان يراسله من وقت إلى آخر، إلى أن توفّي عام ١٩٤٣. قال: «إذن هناك دمٌ إنكليزي يجري في عروقك.» أجبته أنّ دمي عربيّ خالص، سوى أن هناك علاقة تاريخيّة بين أسرتي وإنكلترا. أعجب من جوابي، والأهمّ في الأمر أنّ مِسز بي ارتاحت إليه.

عرضت عليّ مِسز بي غرفتين في نُزُلها، وكلتاهما في الطابق الأوّل من المبنى: واحدة صغيرة خلفيّة قاتمة بقيمة ثلاثة جنيهات ونصف في الأسبوع تشمل الطعام (الفطور والعشاء في أيّام الأسبوع، والفطور والغداء يوم السبت، وكامل الوجبات الثلاث يوم الأحد). ويمكنني أن أسكن هذه الغرفة فوراً. وأخرى كبيرة وأماميّة بقيمة خمسة جنيهات في الأسبوع وبالشروط ذاتها، والغرفة الثانية هذه قاعة كبيرة على شكل حرف «L» (L-Shaped sitting room) كانت تستعمل سابقاً للاستقبال والحفلات، لها شرفة تطلّ على الشارع، وفيها بيانو ممتاز لم يستعمل منذ أواخر الحرب العالميّة الأولى، ويحتاج إلى صيانة. يسكن هذه الغرفة ثلاثة شبّان كانوا يخدمون ضبّاطاً في الجيش خلال الحرب: واحد منهم أصيب بصدمة نفسيّة من مشاهد القتل والدماء في الحرب، ويقول بأن الجندي المحارب ما هو إلاّ قاتل مأجور (hired assassin)، وهو يعاني من «صرع القنابل» (shell shock)، ولذلك ينوي مغادرة لندن بعد أسبوعين ليعيش في هدوء الريف (the quiet of the country) مع أهله. والثاني ينوي الزواج في الوقت ذاته. ورفيقهما بيتر أيمري (Peter Amery) غير قادر على دفع إيجار الغرفة وحده، إذ إنّ الراتب الأسبوعي الذي يتقاضاه في شركة «ليدكس» (Ledux) للملابس النسائيّة التي يعمل فيها لا يتعدّى سبعة جنيهات في الأسبوع، ولذلك ينوي السكنى في غرفة أصغر من النُزُل، أو الانتقال إلى نُزُل آخر. تشاورت مع جيمز بلغريف في الأمر، فكان رأيه أن انتقل إلى نُزُل مِسز بي مباشرة في الغد، فأسكن الغرفة الصغيرة الخلفيّة لمدّة أسبوعين، ثمّ انتقل إلى الغرفة الكبرى الأماميّة فور إخلائها.

انتقلت للسكنى عند مِسز بي صباح اليوم التالي، وطلبت منّي أن أريها صورة لوالديّ. تأملّت فيها وقالت: «يشبهوننا كثيراً» (They are very much like us). «ثمّ التفتت إليّ وأضافت، وقد تعجّبت من طلاقة لساني بالإنكليزيّة: «هل أنت متأكّد أنّك لم تتربّ وأنت طفل على يد مربّية إنكليزيّة؟»
(Are you sure you were not brought up as a child by an English nanny?)

١٠

كلمات متقاطعة

أعجبتني الحياة في ١٠٦ غلوستر رود، وصار الساكنون في ذلك النُّزُل رفاقاً لي منذ اليوم الأوّل تقريباً. جيمز بلغريف زميلي في كلّية الدراسات الشرقيّة، وبيتر أيمري يعمل في شركة ليدكس للملابس النسائيّة (كما سبق القول). بريان كولز (Bryan Coles) يحمل دكتوراه في علم المعادن (metallurgy) من جامعة أكسفورد، وقد التحق حديثاً بهيئة التدريس في كلّية العلوم والتكنولوجيا بجامعة لندن (Imperial College of Science and Technology)، وهي القريبة من مسكننا. مايكل رايل (Michael Ryle) التحق حديثاً بمكاتب البرلمان البريطاني بعد تخرّجه من جامعة أكسفورد (عمّه من ألمع أساتذة الفلسفة هناك). بريدجت مويز (Bridget Moyse) تعمل في دائرة حكوميّة، وأهلها من أعيان جزيرة وايت (Isle of Wight) حيث لهم أملاك وزراعة. أهل ماري تروتمان ديكنسن (Mary Trottman-Dickenson) من «الجنتري»، أي وجهاء الريف (country gentry)، وهي تعمل مساعدة

اجتماعيّة (almoner) في أحد المستشفيات الشهيرة بلندن. أهل جولي باركر (Julie Parker) كذلك من «الجنتري»، تقضي عطلة الأسبوع معهم في صيد الثعالب (fox-hunting)، وتعمل أيّام الأسبوع في شركة تجاريّة ربّما يملكها والدها. جيمز يانغ (James Young) خرّيج من أكسفورد يتدرّب في مكتب للمحاماة، ولوالده مصانع شهيرة للبيرة: يقضي معظم وقته في الدرس أو في الاستماع للموسيقى الكلاسيكيّة في غرفته، ولا نلتقي به إلاّ وقت الطعام. وهلمّ جرّا.

الشبّان الإنكليز الذين تعرّفت عليهم في ١٠٦ غلوستر رود كانوا جميعاً يخدمون في الجيش أو في البحريّة خلال الحرب عدا بريان كولن، وجميعهم أكبر منّي بأربع أو خمس سنين. وليس بينهم واحد، بمن فيهم بريان كولن، يتقاضى راتباً يزيد عن ثمانية أو تسعة جنيهات في الأسبوع. وجميعهم، رغم ذلك، يشعرون بالعزّة، وكذلك البنات بينهم، إذ إنّ بريطانيا آنذاك كانت بعدُ على رأس إمبراطوريّة لا تغيب عنها الشمس، كما كان يقال، وإن كانت أيّام هذه الإمبراطوريّة أصبحت معدودة. لكنْ لم يمضِ أسبوع أو أسبوعان إلاّ وصار رفاقي الإنكليز هناك يعاملونني وكأنّني واحدٌ منهم، عدا عن قدر من التحفّظ أبقوا عليه مدّةً تجاه بعض العبارات التي كنت استخدمها في الحديث. أو هكذا بدا لي. اعترضت بريدجت موين، مثلاً، على قولي «اعذرني» (Excuse me)، إذا تعذّر عليّ سماع ما يقال لي أو فهمه. اعتبرت هذه العبارة غير مأنوسة، فطلبت يوماً عقد اجتماع خاصّ في غرفة الطعام، بعد العشاء، للنظر في أمرها.

قالت بريدجت أن عبارة Excuse me تشير إلى كون قائلها صاحب دكّان فرنسي من مدينة ليون (Lyons) له شاربان صغيران (لم أعرف لماذا). اقتُرحت عبارة «عفواً» Pardon، فاعترضت بريدجت عليها لقصرها. ثمّ اقتُرحت عبارة «استجدي عفوك» أو «أستجدي غفرانك» I beg your pardon، فاعتبرتها مذلّة وتشير بوضوح إلى أن قائلها لاجىء هنغاري في لندن يستجدي الانصهار في المجتمع. اقتَرحت هي عبارة «اغفر لي» Pardon me، إمّا مع التشديد على pardon، أو مع التشديد على me، فدار الجدل حولها بين قابل ورافض. عندئذ تدخّل جيمز يانغ في الحديث ليقول كلمة الفصل فيه من الناحية القانونيّة: المشكلة لا تحلّ إذا لم يحدّد، أوّلاً، من هو الجاني في مثل هذه الحالة، ومن هو المجني عليه. إذا لم يسمع السامع كلام المتكلّم أو يفهمه، يكون الحقّ على المتكلّم الذي لم يأتِ كلامه في شكل مسموع أو مفهوم، وليس العكس. وعلى المتكلّم، بالتالي، وليس السامع، أن يستجدي الغفران للنقص الذي ظهر منه. ويبقى على السامع لا أن يستجديه الغفران، بل أن يأمره بإعادة كلامه، وبأيّ طريقة يختارها، فيقول له، مثلاً، «كرّر ما قلته» Repeat what you said، أو يسأله دون موارية «ماذا قلت» ?What did you say. عند ذلك انتهت التمثيليّة (إذ لم يكن المقصود من الاجتماع والجدل الذي قام فيه إلاّ التسلية).

بدأت آنذاك أتعلّم حلّ الألغاز للكلمات المتقاطعة التي تنشر يومياً في كبريات الصحف البريطانيّة، وهي غير الكلمات المتقاطعة العادية. المفتاح فيها هو اللغز للكلمة المطلوبة، وهو

عبارة عن جملة يمكن قراءتها بطريقتين أو أكثر. المطلوب، مثلاً، كلمتان كلّ منهما تتألّف من أربعة أحرف. والجملة في المفتاح تقول: Become flabby by poling me. المعنى الظاهر في هذه الجملة هو «أصبح رَخواً (become flabby) من (by) قذفي إلى الأمام (poling me). والمعنى الباطن المقصود هو: «أصبح رخواً من poling me، بمعنى: رَكِّب كلمتين، كلاً منهما تتكوّن من أربعة أحرف، وتعنيان «أصبح رخواً»، من أحرف poling me التي هي ثمانية. وعند ذلك يتّضح أن المطلوب هو الكلمتان gone limp بمعنى «أصبح رخواً»، والأحرف في تركيب هاتين الكلمتين (كلّ منهما من أربعة أحرف) هي ذاتها أحرف poling me الثمانية. وجدت لذّة عقليّة شيّقة في حلّ هذه الألغاز، وما زال حلّها حتى الآن من هواياتي المفضّلة.

وجدت رفاقي يتّبعون أسلوباً في المحادثة يتحاشى الملاحظات الشخصيّة المؤذية (personal remarks) والمواضيع التي تثير الجدل، كالسياسة مثلاً. وكثيراً ما كانت تجري بينهم محادثات حول مواضيع تافهة وجدتها طريفة ومسلّية، وبدأت أشارك فيها. صرنا نلعب أحياناً لعبة محادثة (conversation game) نختار للحديث فيها موضوعاً محدّداً لا يثير حساسيّة أحد، مثل «مقابض الأبواب» (doorknobs)، ونبدأ بالتحدّث عن هذا الموضوع تركيزاً، الواحد بعد الآخر بالترتيب: الواحد يتحدّث، مثلاً، عن أهمّية مقابض الأبواب، والثاني يثنّي على كلامه ويضيف ما لديه من معلومات. الثالث يعكس الآية ويتحدّث عن المشاكل في الأبواب التي لا مقابض لها. والرابع يستعرض أنواع وأشكال المقابض التي يعرف، مفاضلاً

بينها. والخامس يروي قصّة تتعلّق بالمقابض، والسادس يضيف إليها قصّة أخرى. وهكذا إلى أن يُستنفد الموضوع. ويكون أوّل من لا يجد ما يقوله فيه هو أوّل الخاسرين في اللعبة، والذي يستمرّ في الكلام بعد أن يتوقّف الآخرون، ودون التحوّل عن الموضوع، هو الرابح.

المجتمع الإنكليزي الذي عايشته خلال السنوات الثلاث من إقامتي في لندن كان محافظاً في تصرّفاته الاجتماعيّة، وتقاليده لا تختلف كثيراً عن تقاليدنا. وأعطي قصّة جولي باركر مثلاً على ذلك. كانت جولي في البداية صديقة حميمة لماري تروتمان ديكنسون، يجمع بينهما انتماؤهما المشترك إلى طبقة «الجنتري». وجولي تتكلّم باللهجة النسائيّة الرائجة لتلك الطبقة وتلفظ «الراء» فيها وكأنّها «واو»، فتقول عن الفرنسي، مثلاً، «Fwenchman» بدلاً من «Frenchman». وبعد أسابيع من تعرّفي عليهما قدم شاب فرنسي اسمه موريس ليقيم معنا مدّة في ١٠٦ غلوستر رود، علمنا بأن أسرته تحمل لقب «الكونت» من عهد الملوك «البوربون» ولقب «المركيز» من العهد النابوليوني. افتُتِنَت جولي باركر به، واشتبهت مِسز بِي بأن العلاقة بينهما بدأت تتخطى حدود المقبول اجتماعياً آنذاك. وما لبثت ماري تروتمان ديكنسون أن بدأت تتحاشى صديقتها.

كنت في المبنى ذات يوم بمفردي وسمعت التلفون الوحيد فيه يرنّ في الطابق الأسفل، فنزلت من غرفتي لاستلمه. المتكلّم رجل يدلّ صوته أنه في الخمسينات من العمر: طلب التكلّم مع جولي، وعندما علم أنها غير موجودة طلب التكلّم مع ماري، وهي أيضاً

غير موجودة، فأوصاني أن أنقل لماري أنّه لا يريد أن يرى ابنته جولي أو يسمع منها أو عنها ما دام حيّاً (for as long as I live). وبعد أيام طلبت مِسز بي من جولي أن تغادر البيت. ثمّ غادرنا موريس عائداً إلى فرنسا.

قيل لي لاحقاً أنّ موريس اصطحب جولي معه إلى فرنسا، ثمّ عادت هي إلى إنكلترا وحدها. وبعد أشهر جاءت إليّ في نُزُل مِسز بي بعد أن تحقّقت من عدم وجودها فيه، فأخبرتني بأنها تسكن حاليّاً في غرفة صغيرة بمبنى حقير بجوارنا (نسيت عنوانه)، ومعها صديقها لُوِي، وهو رسّام من بوليفيا. وقد أنذرهما صاحب المبنى بإخلاء غرفتهما لأنّهما لم يتمكّنا من تسديد إيجارها لمدّة شهر. طلبت منّي مساعدة مادّية متواضعة فاستجبت لطلبها، ودعتني إلى عشاء بسيط معها ومع لُوِي. وجدتهما يسكنان غرفة نوم صغيرة هي في الوقت ذاته غرفة الجلوس والأكل والمطبخ. ولُوِي شاب أسمر قصير القامة يصل شعره الأملس إلى كتفيه، في وقت لم يكن الشعر الطويل بعدُ دارجاً للرجال. لم يكن يعرف الإنكليزيّة، فدار الحديث في ذلك العشاء بالفرنسيّة. لم أرَ جولي بعد ذلك حتى صيف ١٩٥٣ عندما التقيت بها صدفة، ولآخر مرّة، في شارع بضاحية ومبلدون (Wimbledon)، وهي تحمل طفلاً صغيراً قالت لي أنّه ابنها. سألتها مَنْ أبوه، فأجابت أنّها ليست متأكّدة تماماً، لكنّها تعتقد أنّه «شاب فرنسي لطيف» (a rather nice young Frenchman).

بقيت مدّة في لندن أتذمّر من الأكل أوّلاً، لكون الطبخ الإنكليزي غريباً عليّ (صرت أحبّه بعد أن اعتدت عليه) وثانياً، بسبب التقنين الشديد الذي ما زال جارياً في البلاد: في الأسبوع

أقلّ من أوقيتين من اللحم الطازج للفرد، وبيضة واحدة أو في الأكثر بيضتان. وأكثر البيض يصدّر إلى إنكلترا من أوستراليا أو جنوب إفريقيا عن طريق البحر، فيصل وقد أصبح طعمه فاسداً. كتبت مرّةً أشكو الأمر لوالديّ، فجاءني الجواب من أبي بما معناه: الإنكليز خاضوا حرباً ضارية دامت ستّ سنوات للدفاع عن أرضهم وقيمهم التي هي من قيمنا، ودفعوا ثمن هذه الحرب غالياً. وهم الآن يشاركونك ما لديهم من طعام، فعليك أن تكون قنوعاً به.

بقي شيء لم يعجبني في الإنكليز عامة (ومنهم رفاقي) وهو قناعتهم بأنّ لهم فضلاً على العالم، وبأنّ الأمم التي لا تجاري سياستهم أو تناهضهم هي أمم جاحدة. كان لأخي بهيج خلال الحرب صديق من ضبّاط الجيش البريطاني في بيروت اسمه هاري نيل Harry Neil، عاد بعد الحرب إلى لندن وتزوّج ورُزق عام ١٩٥٠ بنتاً أسماها سوزان، فدعاني إلى حضور حفلة عمادتها في بيته بضاحية وودفورد Woodford. وهي الضاحية التي يترشّح عنها ونستون تشرشل في الانتخابات البرلمانيّة، وجميع سكّانها (في الأقلّ آنذاك) من الميسورين أو الأثرياء. كانت مصر بدأت منذ وقت تشدّد في طلب انسحاب القوّات العسكريّة البريطانيّة من المنطقة التي بقيت تحتلّها حول قناة السويس، وأخبار الخلاف بينها وبين بريطانيا هي حديث الساعة في لندن. فتجمّع حولي أصدقاء هاري نيل في الحفلة التي دعاني إليها، وأخذوا يحمّلونني المسؤوليّة شخصيّاً، كما بدا لي، عن السياسة التي تتّبعها مصر تجاههم، مكرّرين القول بأنّ مصر ما هي إلاّ أمّة جاحدة (ungrateful)، إذ إنّ

البريطانيين هم الذين ردّوا الألمان عن مصر في معركة العلمين. لم أعرف بماذا أجيب، لأنّي لم أكن اتتبّع الأخبار. لكنّي رغم ذلك سألتهم: هل طلب منكم المصريّون في ذلك الوقت أن تكفّوا عنهم شرّ الألمان، أو كانت بريطانيا هي التي فعلت ذلك، بل حتى دون استشارتهم؟ فقامت قيامتهم على هذا السؤال، واعتبروني أنا أيضاً عاقّاً لفضلهم.

الشيء نفسه حدث عندما ذهبت بعد ظهر يوم أحد لحضور الخدمة الدينيّة المسائيّة في كنيسة عند مدخل محلّة نايتسبريدج (Knightsbridge). دعيت بعد نهاية الخدمة لتناول المرطّبات مع غيري من المصلّين في حديقة الكنيسة، وهناك تجمّع المصلّون حولي يحمّلونني للمرّة الثانية كامل المسؤوليّة عن تصرّف المصريّين تجاههم. وكان بينهم واحد قال أنّه شارك في معركة العلمين وكاد يُقتل فيها دفاعاً عن مصر، وهو يكرّر في وجهي المرّة تلو المرّة: «المصريّون شعب جاحد.»

بدأت أسمع بعد فترة عن مشروع بريطاني لإقامة حلف بين بلدان الشرق الأوسط لردّ خطر الشيوعيّة والاتحاد السوفياتي عن المنطقة (وهو المشروع الذي نتج عنه لاحقاً ما صار يعرف بحلف بغداد، بين الباكستان وإيران والعراق وتركيا). وأنا، كعادتي، لا أتابع الأخبار، ولا قيمة للصحف عندي غير الكلمات المتقاطعة التي تنشر فيها. غير أنّ رفاقي في ١٠٦ غلوستر رود كانوا يتابعون الأخبار بدقّة، يوماً بيوم، وأخذوا يعتبرونني مسؤولاً عن الصعوبات التي تواجهها بريطانيا في إقناع الدول العربيّة بضرورة تحقيق مشروعها. يقول الشبّان منهم: نحن قمنا

بما علينا وحاربنا الألمان. فهل تنتظرون منّا نحن أن نقوم بحمايتكم من الخطر السوفياتي الداهم؟ لماذا لا تقومون أنتم بالدفاع عن أنفسكم؟ وعبثاً حاولت أن أقنعهم بأنّ لا اهتمام لي بالموضوع أصلاً، وأن القصد من مشروع الحلف الذي تسعى بريطانيا إلى تحقيقه هو خدمة مصالحها ومصالح حلفائها في بلادنا وليس الاهتمام بنا.

في أواخر عام ١٩٥٠ نشرت الصحف الصباحيّة في لندن خبراً عن غرق السفينة الفرنسيّة الشهيرة المسمّاة «الشامبوليون» (Champollion) وهي تقترب من بيروت في يوم عاصف وممطر: قذفت بها الأمواج باتّجاه شاطىء ضاحية الأوزاعي، فعلقت في الرمال هناك وانشطرت إلى نصفين، ومن ركّابها من ألقى بنفسه في البحر وحاول السباحة إلى الشاطىء، فمات غرقاً. وأفادت الصحف بأن البحريّة الإسرائيليّة عرضت أن تنقذ ركّاب السفينة، فرفضت الحكومة اللبنانيّة عرضها. قال لي أصحابي في ذلك الصباح: «سوف تدفعون ثمن ذلك غالياً، وأنتم الذين لا إمكانات لديكم لإنقاذ ركّاب السفينة.» أحرجني كلامهم ولم أتمكّن من الردّ عليه.

تركتهم وذهبت إلى كليّتي لمتابعة الدروس، ورأيت في طريق العودة، عند مدخل محطّة راسل سكوير، عنواناً واحداً في جميع الصحف المسائيّة يقول بأحرف كبيرة: «ريّان لبناني هو بطل اليوم» (Lebanese Pilot is Hero of the Day). والخبر هو عن أحد أبناء البلطجي، من مرشدي السفن في مرفأ بيروت، تجرّأ في ذلك اليوم على تحدّي الأمواج بمركبه الصغير، فخرج فيه المرّة بعد المرّة من المرفأ إلى شاطىء الأوزاعي ليخلّص جميع من بقي

في السفينة المنكوبة. اشتريت إحدى هذه الصحف ورجعت بها إلى البيت حيث وضعتها بشكل لافت للنظر على الطاولة التي في المدخل، قرب التلفون. وبعد ذلك لم أعد أسمع من أحد أيّ انتقاد بشأن لبنان أو أيّ ملاحظة سلبيّة بشأن العرب.

كان لوجودي في ١٠٦ غلوستر رود تأثير على سياسة مِسز بي في إدارة نُزُلها، إذ أخذت تقبل أعداداً أكثر من النُزلاء غير الإنكليز، كان أوّلهم شاب هولندي يكبرني بخمس سنوات اسمه يولب أوستربك (Yolp Oosterbek)، طلب منّا أن نسميّه بيتر (Peter). نشط هذا الشاب خلال الحرب في المقاومة السرّية للألمان عندما احتلّوا هولندا، وكان شديد الولاء للبريطانيّين الذين ناصروا هذه المقاومة. حدّثني مرّة عمّا فعل، هو ورفاقه في المقاومة، عندما انهزم الألمان من بلاده، فأخذوا يقبضون على النساء اللواتي صاحبن العسكر الألمان في سنوات الحرب ويحلقون شعورهنّ في ساحات مدينة روتردام على مرأى من المارّة، والمسكينات يصرخنَ ويخبّئنَ وجوههنّ بأيديهن بينما رؤوسهنّ تحلق. كان يضحك وهو يروي لي ذلك. قلت له أنّي أعتبر مثل هذا التصرّف توحّشاً لا يليق بالأمم المتمدّنة، فأجاب أنّ هذه الأمم تعلّق العمل بما تمليه قيم المدنيّة أحياناً إذا اقتضت الظروف.

تكاثر عدد الأجانب في المبنى بعد ذلك. وصار نُزُل مِسز بي يعجّ بمن فيه، ممّا اضطرّها إلى تقسيم بعض الغرف بألواح خشبيّة لاستضافة الجميع. غرفتي هي الوحيدة التي بقيت غير مقسّمة إلى حين، فأصبحت الملتقى لنُزلاء المبنى وأصدقائهم وصديقاتهم: نقيم

فيها أحياناً حفلات للرقص، أو نجتمع فيها في الأمسيات للغناء، وأنا أرافق المغنّين على البيانو. (وجدت داخل مقعد ذلك البيانو القديم أغاني محفوظة فيه من عهد الملكة فيكتوريا، وأخرى من زمن الحرب العالميّة الأولى مثل «الطريق إلى تيبراري» The Way to Tipperary و«وُرود بيكاردي» The Roses of Picardy، فصارت هذه من أحبّ أغانينا.)

كان تنظيم هذه الحفلات والاجتماعات يناط ببيتر أيمري وصديقته الإيرانيّة الحسناء باروين ناصري التي كانت تقيم في نُزُل مقابل لنُزُلنا. ولبيتر أصدقاء كثر بين أصحاب المطاعم في غلوستر رود وجوارها: يسرّون إليه عن وجود شرائح لحم «الستيك» (steak) البقري عندهم عندما تكون متوفّرة (وهي التي كانت نادرة آنذاك بسبب التقنين)، فنذهب معه للتمتّع بأكلها.

بقيت المكانة الخاصّة عندي لجيمز بلغريف، وهو الذي كان رفيقي في الكلّية، وندرس أحياناً معاً في البيت. وكثيراً ما كان شارلز بلغريف، والد جيمز، يطلب منه استضافة أعيان الزائرين القادمين إلى لندن من بلدان الخليج على حساب حكومة البحرين، فأساعده في هذه المهمّة. (ما عدت أذكر من هؤلاء الزائرين إلاّ سلطان وصقر ابني حاكم الشارقة آنذاك، وهما بعدُ في بداية شبابهما ولا يتكلّمان الإنكليزيّة. أذكر أنّنا اصطحبناهما للعشاء في مطعم اسمه «كوك دور» Coq d'Or في متفرّع من شارع بيكاديلي.) وأذكر أنّي ذهبت مرّة مع جيمز إلى محترف للفنون التشكيليّة كان يقوم برسم شعار لإمارة البحرين وعلم لها، بطلب من والد جيمز، فكنّا، أنا وجيمز، أوّل من رأى هذا الشعار وهذا العلم.

ذهبت بعد استقراري في لندن لزيارة وليد الخالدي وزوجته رشا سلام في أكسفورد، حيث كان بدأ دراسته العليا، وقد اتّخذ من مؤلّفات العالم والمتصوّف عبد الغني النابلسي موضوعاً لتخصّصه. قضيت عندهما يومين ألاعب ابنهما الطفل أحمد سامح (أسماه على اسم والده الذي توفّي بعد وصولي إلى لندن بفترة قصيرة). وتعرّفت خلال تلك الزيارة على ألبرت حوراني، وهو آنذاك في بداية شهرته كباحث لامع في تاريخ منطقة الشرق الأوسط وشؤونها. اصطحبني وليد ورشا لزيارته في شقته بكلّية مودلين (Magdalen College) وقدّم لنا البيرة، وعندما اعتذرت عن شربها في البداية لكوني لا أحبّها قال لي: «أنا أخشى أن تكون البيرة إجباريّة في أكسفورد» (I am afraid beer is compulsory in Oxford).

كانت خيبتي كبيرة عندما رأيت أكسفورد لأوّل مرّة. مباني الكلّيات فيها لم تعرف الصيانة منذ بداية الحرب، وجدرانها الرائعة أصلاً تبدو وكأنّها تهترىء. بذل وليد الخالدي الجهد في محاولات لإقناعي بالانتقال من جامعة لندن إلى جامعة أكسفورد، مستعرضاً ما تنفرد به هذه الجامعة وكلّياتها العريقة من مزايا، فلم أقتنع. إلى أن قال لي أخيراً، وكأنّه يكبرني بالعمر في الأقلّ عشرين سنة: «طبعاً، شاب من عمرك يفضّل العيش في مدينة كبيرة مثل لندن حيث لا أحد يعرفه، فيعمل ما يشاء.»

زرت مِستر ترتل في ولوين غاردن سيتي (Welwyn Garden City) التي لا تبعد كثيراً عن لندن. تناولت الغداء معه ومع زوجته، ثمّ أخذني للتنزّه مشياً بين حقول البلدة. مررنا بشبّان يلعبون الفوتبول، ومِستر

ترتل من هواة كرة القدم، فتوقّف قليلاً ليشاهد لعبهم، ثمّ قال لي: «أنا لم أعطك حقّك من الانتباه عندما كنتَ تلميذاً في برمّانا، ربّما لأنّنا نحن الإنكليز بطيئو الفهم (slow to understand)، ننخدع بنجوم الفوتبول فنعيرهم من الاهتمام أكثر ممّا يستحقّون، ونهمل غيرهم.» وعندما رافقني في المساء إلى المحطّة، لأعود بالقطار إلى لندن، أعطاني أوراقاً مطبوعة على الآلة الكاتبة لأطّلع على ما فيها. قال لي أنّه بدأ بكتابة تاريخ مدرسة برمّانا، والأوراق التي أعطاني إيّاها هي الفصلان الأوّلان منه، ثمّ أضاف: «أنا لستُ مؤرّخاً محترفاً، فهل لك أن تُبدي لي رأيك في ما كتبته حتى الآن؟»

في ربيع ١٩٥١ استُعمل الكمبيوتر لأوّل مرّة لفرز الأصوات في الانتخابات البرلمانيّة في بريطانيا: كان يسمّى آنذاك «الآلة المفكّرة» (thinking machine)، على ما أذكر، وقيل لي أنّه يحتاج مبنىً كاملاً لاحتوائه. أخبرني بريان كولز أنّ أحد الذين شاركوا في اختراع هذه الآلة العجيبة سوف يلقي محاضرة عنها في متحف العلوم والتكنولوجيا القريب من غلوستر رود، وذهبنا معاً للاستماع إليه. قال في وصفه لمستقبل «الآلة المفكّرة» أنّه قد يأتي يوم تستقلّ فيه عن إرادة البشر وتصبح هي التي تأمرهم، وليس العكس. قلت لبريان ونحن في طريق العودة أنّ هذه الآلة، مهما كانت صفاتها المدهشة، ما هي إلاّ آلة حاسبة من اختراع البشر، ولذلك لن تستقلّ عنهم مهما تطوّرت، ولن يصبح لها في أيّ يوم إرادة مستقلّة أو فكر مستقلّ، بل تبقى تقوم فقط بالمهمّات المطلوبة منها. ووافقني بريان على هذا الرأي.

أنهيت امتحان التأهيل لبرنامج الدكتوراه في حزيران ١٩٥١، وفي نهاية العام عدت إلى بيروت عن طريق البحر لأطّلع على ما في لبنان من محفوظات مارونيّة تتعلّق ببحثي. رتّبت لي شركة «كوك» (Cook) السفر على باخرة تركيّة اسمها «إسطنبول»، تنطلق من مرفأ مرسيليا، والوصول من لندن إلى هناك بالقطار. كان رفيقي في القطار بحّار يوناني مسكين من الإسكندريّة نسيت اسمه، تزوّج قبل ثلاث سنوات ثمّ سافر إلى إنكلترا علّه يجد فيها عملاً يرتزق منه، فلم ينجح. وُلِدَت له ابنة في غيابه وهو لم يَرَها بعدُ، وهمّه الوحيد أن لا يعود إلى الإسكندريّة دون أن يشتري لها لُعبة، وليس لديه ما يكفي من الدراهم لشراء شيء أكثر من طعامه.

كان علينا أن نقطع مضيق «المانش» بالعبّارة التي أوصلتنا من مرفأ نيوهيفن (New Haven) في إنكلترا، إلى مرفأ دييب (Dieppe) بفرنسا. وعندما وصلنا إلى هناك صاح أولاد فرنسيّون كانوا حولنا «لتحيا فرنسا» (Vive la France)، ووجدت عينيّ تدمعان تلقائياً لرؤية العلم الفرنسي بألوانه الثلاثة يرفرف فوق مبنى المرفأ، وهو العلم الذي وُلدت في ظلّه. وصلنا بعد الظهر إلى باريس في يوم ماطر، وكان علينا هناك أن ننتقل بأمتعتنا من محطّة «غار دو نور» (Gare du Nord) إلى محطّة «سان لازار» (Saint-Lazare) لنستقلّ القطار المتوجّه إلى مرسيليا. والذي زاد في تعقيد عمليّة الانتقال من المحطّة الأولى إلى الثانية إصرار رفيقي اليوناني على شراءِ اللعبة لابنته الصغيرة من باريس، وليس من مكان آخر. (اشتريت له أنا اللعبة أخيراً لفضّ المشكلة.)

لحقنا بالقطار في «سان لازار» قبل انطلاقه بدقيقة أو دقيقتين، وكان في مقصورتنا من العربة فرقة من الممثّلين يقومون بالتمرّن على كوميديا ينوون تقديمها في مرسيليا، وبينهم شاب مخنّث جالس بقربي يقوم بدور هزلي، والممثلة الجالسة أمامه تقاطعه كلّما نطق بكلمة قائلة له: «شارلي، ليس مثلك في العالم» (Charlie, tu es unique au monde). أو تقاطع التمثيليّة بين الفينة والفينة لتقول: «مبدئيّاً، أنا أعشق مرسيليا» (D'abord, moi j'adore Marseilles). وبين تغزّلها بشارلي ثمّ بمرسيليا، ولكون المقاعد في العربة خشبيّة وغير مريحة، لم ننم لحظة واحدة تلك الليلة.

وصلنا إلى مرسيليا في الصباح الباكر، وتوجّهنا إلى مكتب شركة «وورمز وشركاه» (Worms & Co.)، وكلاء شركة «كوك». وجدنا هناك ما يقرب من أربعين أو خمسين ضابطاً مصريّاً كانوا يتدرّبون في إنكلترا، فاستُدعوا للعودة إلى مصر عاجلاً بسبب تأزّم في العلاقات بين مصر وبريطانيا. وكان الناطق باسم البعثة ضابطاً برتبة «صاغ» (أي رائد في لغة اليوم) يُبرز على جيب سترته شارة الألعاب الأوليمبيّة. (قال لي لاحقاً أنّه فاز بالكأس الذهبي في أولمبيّات لندن عام ١٩٤٨ في إحدى ألعاب القِوى، أو ربّما في السباحة، لا أذكر تماماً.) فهمت من الحديث بين هذا الضابط والمسؤول في شركة «وورمز وشركاه» أنّ الباخرة «إسطنبول» تعطّلت في مضيق مَسّينا، بين إيطاليا وجزيرة صقليّة، بسبب الأمواج، ولذلك سوف يتأخّر وصولها إلى مرفأ مرسيليا لعدّة أيّام، ممّا يستوجب على الركّاب انتظارها في

مرسيليا. المسؤول في شركة «وورمز وشركاه» يقول أن على الركّاب أن يتحمّلوا نفقة الإقامة في مرسيليا، والضابط المصري يُصرّ على أن تتحمّل الشركة هذه النفقات.

كنت التقيت مرّة باثنين من هؤلاء الضبّاط المصريّين في لندن وتحدثت معهما بينما كنّا ننتظر دورنا لدخول قاعة سينما. كلاهما من رتبة ملازم، واحد اسمه أحمد هلال والثاني سعد عويس. طلبت منهما أن يفعلا ما بوسعهما ليشملنا، أنا ورفيقي اليوناني المسكين، أيّ ترتيب يتوصّل إليه فريقهما للإقامة في مرسيليا، فأخبرا الضابط الناطق باسم البعثة بذلك. وهكذا انتهى الأمر إلى إقامتنا جميعاً في فندق «أوتيل دي دو موند» (Hôtel des Deux Mondes): فندق من الدرجة الثالثة قرب بداية جادة «الكانبيير» (La Canebière) التي تنتهي إلى «المرفأ القديم» (Vieux-Port). وهو المرفأ الذي أشهره الكاتب المسرحي والمخرج السينمائي مارسيل بانيول (Marcel Pagnol) في العشرينيات والثلاثينيات من القرن.

كانت تلك مناسبة لي أوّلاً، للتعرّف إلى مرسيليا وثانياً، للتعرّف إلى نخبة من ضبّاط الجيش المصري، أشترِك مع بعضهم في لعب «البريدج» بقاعة الفندق، أو أتجوّل معهم في المدينة وجوارها. (رأينا في إحدى جولاتنا المبنى الذي صمّمه المهندس الفرنسي الشهير لوكوربوزيه Le Corbusier وأسماه «وحدة سكن» unité d'habitation وهو بعدُ قيد البناء، وهو الذي صار يعتبر فتحاً في فنّ العمارة الحديث بعد أن اكتمل بناؤه في العام التالي.) وكان بين الضبّاط المصريّين ملازم أوّل في فرقة

المظلّيين اسمه جمال سليمان: شاب ظريف يميل إلى الشُّقرة، يجيد لعب «البريدج» ويتكلّم الإنكليزيّة والفرنسيّة والألمانيّة بطلاقة عجيبة (أخبرني أنّ والدته نمساويّة). قامت بيني وبينه من اليوم الأوّل، وكذلك بيننا وبين أحمد هلال وسعد عويس، رفقة سفر من النوع الذي يبدو بدايةً صداقة عمر، غير أنّه ينتهي مع الافتراق.

وصلت الباخرة «إسطنبول» أخيراً إلى مرسيليا وبدأنا الرحلة على متنها إلى الإسكندريّة. وأنا الراكب الوحيد الذي سيستمر في الرحلة من الإسكندريّة إلى بيروت، أو ربمّا واحد من قلائل. رأى رفيقي اليوناني السفينة وهي متوقّفة عند رصيف المرفأ تنتظرنا، وهو الذي كان عمل بحّاراً، فزفّ إلينا الخبر بأن «دَهْ المركب بيِلْعَب كِتِير في الميَّه». وكانت تلك الباخرة في الواقع، هي وأخرى اسمها «أضنه»، أقدم مراكب أسطول الخطوط البحريّة التركيّة وأسوأها من حيث تأرجحها وتمايلها في البحر. أُصبت بعد ركوب السفينة بدوار البحر قبل أن تتحرّك من الرصيف. وكان البحر مائجاً إلى هائج من بداية السفرة إلى نهايتها.

تخرج السفينة من المرفأ، ويغادرها مرشد السفن في قاربه الصغير، ينزل إليه على سلّم، فينقطع كلّ من فيها عن العالم انقطاعاً تامّاً، عدا عن طريق التلغراف عند أقصى الضرورة، ويتحوّلون فوراً إلى جمهوريّة قائمة بذاتها يرأسها القبطان. وعند ذلك تبدأ على متنها حياة اجتماعية من نوع خاصّ يتميّز براحة تامّة للبال، وبعلاقات صداقة تنمو سريعاً بين أفراد لم

تكن بينهم صلة من قبل، ولن تبقى بينهم صلة من بعد. يجلسون إلى الطعام معاً، ويتنادمون ويتسامرون معاً، ويتبادلون أعمق الأسرار لمعرفتهم بأنّ العلاقة الحميمة بينهم سوف تنتهي مباشرة فور نهاية الرحلة.

كانت معنا على السفينة سيّدتان فرنسيّتان ترافق إحداهما بناتها الثلاث. السيّدتان تلعبان معنا «البريدج» في النهار، وجميعهنّ يشتركنَ بالرقص معنا في السهرات على أنغام الأوركسترا في قاعة الاحتفالات. كانت هذه السهرات الجميلة حافزاً لي لأقاوم دوار البحر حتى أتمكّن من المشاركة فيها. ودرجت العادة بيني وبين جمال سليمان وأحمد هلال وسعد عويس أن نخرج إلى ظهر الباخرة بعد نهاية السهرة فنجلس هناك ونتحدّث معاً حتى اقتراب الفجر.

كانت فضائح الملك فاروق في ذلك الوقت حديث العالم، والصحف البريطانيّة تستغلّها لتشويه سمعة مصر. سألت جمال في أوّل ليلة سهرناها على ظهر المركب، ومعنا أحمد وسعد، عن شعوره تجاه فاروق، فاظهر استياءً شديداً من السؤال: أجاب أنّ فاروق ملك مصر، وأنه هو، مثل جميع الضبّاط في القوّات المصريّة المسلّحة، أقسم الولاء لفاروق عن اقتناع كامل ويحافظ على قسمه. وصدف أن لقيته وحده مساء اليوم التالي، ففتح هو موضوع الملك فاروق. أخذني جانباً وأسرّ لي عن وجود استياء كبير من تصرّفات الملك في صفوف الضبّاط قد يبلغ مع الوقت حدّ الثورة، وأنّ الكثيرين في الجيش يعقدون الآمال حول ضابط استبسل في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وأخذ يروي لي تفاصيل

عن البطولات التي قام بها هذا الضابط في تلك الحرب، وأشياء أخرى قام بها لاحقاً. ظننت جمال يبالغ في كلامه فنسيت التفاصيل، بما فيها اسم الضابط الذي تحدّث عنه. وجلّ ما بقيت أذكر من حديثه في تلك الليلة هو العموميّات.

قضينا أربع ليالٍ في البحر: وصلنا في صباح الليلة الأولى إلى جنوى، وبعد ظهر ذلك اليوم إلى نابولي حيث نزلنا من الباخرة لنتجوّل قليلاً في المدينة ونرى الأنقاض التي خلّفتها الحرب فيها، وجزء كبير من هذه الأنقاض لم يُرفع بعد. في الليلة الثانية تحرّكت بنا الباخرة من نابولي إلى الإسكندريّة، مروراً بمضيق مسّينا. (رأينا في تلك الليلة ما كان يسمّيه العرب «جبل النار»، وهو بركان جزيرة سترومبولي Stromboli، تتساقط على جوانبه الحمم الحمراء). بَقِيَت ليلتان قضيناهما في البحر، وفي الثانية والأخيرة منهما احتفلنا بليلة رأس السنة على ألحان الأوركسترا، والأمواج العالية تقذف بنا من كلّ جانب وتجتاح ظهر السفينة. هناك تجمّعنا في ساعة مبكرّة من صباح اليوم التالي، أنا ورفاقي المصريّين، لنترقّب رؤية فنار الإسكندريّة، وكان البحر هدأ قليلاً. وبعد ساعتين تقريباً صاح أحد رفاقي «دَه هُوَه الفنار»، وصفّق الجميع، ثمّ تفرّقوا ليستعدّوا للنزول.

وصلنا أخيراً إلى مرفأ الإسكندريّة، وحان وقت تبدّد جمهوريّتنا الصغيرة. خرج الضبّاط المصريّون إلى ظهر السفينة بلباسهم العسكري (رأيتهم فيه لأوّل مرّة)، فودّعوني الواحد بعد الآخر. دفع جمال إليّ ببطاقة زيارة قائلاً لي بالفرنسية: «إذن، أيها

اللبناني الصغير (Alors, petit libanais)، هذا هو عنواني إذا أردت أن تراسلني أو تزورني في القاهرة يوماً ما.» نظرت إلى البطاقة، فوجدت مكتوباً عليها بالإنكليزيّة Captain Gamal Soliman، أي اليوزباشي (وليس الملازم الأوّل) جمال سليمان. رآني مدهوشاً، فقال لي: «كنت انتظر ترقيتي وأنا بعدُ في لندن، ولذلك طلبت طبع هذه البطاقات هناك، ووصلتني البرقيّة بالترقية هذا الصباح.»

نزلت لأتجوّل في شوارع الإسكندريّة بعربة خيل بعد أن غادرني رفاقي، ثمّ عدت إلى الباخرة لأنتظر إقلاعها إلى بيروت. جلست في قاعة الاستقبال لأرى إذا كان أحد سيستقلّ الباخرة من الإسكندريّة ليكون رفيق سفري إلى بيروت، وإذا برجال شرطة يقذفون برجل أميركي الشكل، ربمّا في عمر الثلاثين، إلى وسط القاعة، ويقذفون حقائبه وراءه. هو يشتمهم بالإنكليزيّة، وهم يردّون له الشتيمة بالعربيّة. جلس بقربي وقال: «اسمي ألبرت زلزنك إذا كان ذلك يعني لك شيئاً» (My name is Albert Zelznick, if that means anything to you). سألته عن أمره، فأجاب أنّه خبير اقتصادي أميركي يعمل في شركة للاستشارات تعاقدت معها الحكومة المصريّة لتضع لها تقريراً عن الأوضاع الاقتصاديّة المتردّية في مصر، فتجرّأ على قول حقيقة لم تعجب الحكومة: النموّ المتصاعد لسكّان البلاد يفوق قدرتها على النموّ الاقتصادي بتزايد مستمرّ، أضف إلى ذلك الفساد والنظم البيروقراطيّة العثمانيّة المعيقة التي لا يزال يُعمل بها في مصر، والعادات الاجتماعيّة التي تحول دون التقدّم. قال كلّ ذلك مطوّلاً في ما يشبه المحاضرة، يكيل فيها الشتائم لمصر وحكّامها وشعبها من رأس الهرم إلى أسفله. سمعته وأنا أقول في نفسي: لماذا يعتقد

مثل هؤلاء الأجانب أنّ بإمكانهم إهانة العرب، دولاً وشعوباً وأفراداً، دون أن يردّ لهم الكيل؟

كان صديقي الكويتي أحمد الخطيب يكمل عامه الأخير في كلّية الطبّ في الجامعة الأميركيّة عند وصولي إلى بيروت. واصطحبني مرّة (ربّما في شهر شباط أو آذار ١٩٥٢) لحضور أمسية شعرية تنظّمها جمعية العروة الوثقى في «ويست هول»، يُلقي فيها الشاعر جورج صيدح آخر ما نظم من القصائد، ومعظمها (على ما أذكر) سياسي المضمون. ومنها قصيدة يشجب فيها «الأحلاف»، بدا لي أنّها أثارت جمهور الحاضرين بشكل خاصّ، إذ كانوا يصفّقون له بحماس كلّما تلفّظ بهذه الكلمة. ذكّرني ذلك بما كنت سمعته من رفاقي الإنكليز في لندن عن مشروع بريطاني لإقامة حلف بين بلدان من الشرق الأوسط يحمي المنطقة من الخطر السوفياتي. وطلبت من أحمد ونحن في طريق العودة من «ويست هول» أن يفهمني تماماً ما هي قصّة هذه «الأحلاف»، فشرح لي ما يأتي (أكاد أذكر كلامه بالحرف).

العالم مقسوم في الحاضر بين كتلتين: كتلة «الغرب» التي تتزعّمها أميركا وبريطانيا، وكتلة «الشرق» التي يتزعّمها الاتّحاد السوفياتي. الغرب له مشكلة مع الاتّحاد السوفياتي لا شأن لنا نحن العرب فيها، بل لنا مشاكلنا الخاصّة النابعة من دعم الغرب لإسرائيل أوّلاً، وثانياً، من استمرار استعمار الغرب لأجزاء كبيرة من بلادنا وفرض نفوذه على ما تبقّى منها، ومن ذلك حصر شرائنا للأسلحة من مصادره دون غيرها من المصادر

المتوفّرة: يعطي إسرائيل من هذه الأسلحة ما هو متطوّر مجاناً، ويبيعنا نحن مخزونه من الأسلحة القديمة. الغرب يطلب منّا الآن الدخول في أحلاف لحماية مصالحه في منطقة الشرق الأوسط، ونحن لا مصلحة لنا في ذلك. وتوجد دول مثلنا في العالم لا مصلحة لها لا مع الشرق ولا مع الغرب: منها الهند، مثلاً، ويوغسلافيا، ودول أميركا اللاتينيّة. هذه الدول يمكن أن تشكّل معنا كتلة محايدة بين الشرق والغرب تتعامل مع كلّ منهما بالتساوي، فيما يمكن تسميته «الحياد الإيجابي» (سمعت هذه العبارة من أحمد الخطيب لأوّل مرّة، إذ لم يكن استعمالها درج بعد). وتصبح لنا القدرة بالتالي أن نشتري سلاحنا من أيّ مصدر نريد، وحسب شروطنا: ليس بالضروري من الاتّحاد السوفياتي، بل من تشيكوسلوفاكيا، مثلاً. (قال لي أحمد هذا الكلام قبل سنتين من إبرام سوريّا أول صفقة لشراء أسلحة من تشيكوسلوفاكيا، وقبل ثلاث سنين من إبرام مصر لصفقة مماثلة على نطاق أضخم.)

قضيت ثمانية أشهر من ذلك العام في بيروت أتنقّل بين مكتبة الجامعة الأميركيّة (كانت انتقلت آنذاك إلى مبناها الحالي) و«المكتبة الشرقيّة» في جامعة الآباء اليسوعيّين. قمت بأوّل زيارة للبطريركيّة المارونيّة في بكركي في أوائل الربيع (تكرّرت هذه الزيارات لاحقاً): ذهبت بسيّارة أجرة إلى جونية وانتظرت هناك ساعة أو ساعتين قبل أن أجد أُخرى تنقلني صعوداً إلى بكركي. استقبلني «المونسنيور» ميخائيل الرجّي هناك وأصعدني

إلى «مُتَخَت» مبنى البطريركيّة، الذي فوقه القرميد، ليريني ما فيه من محفوظات ومخطوطات متناثرة، ومعه قائمة بعناوينها مكتوبة بقلم رصاص. أخذت ملاحظات عن هذه القائمة، إلى أن أعود ثانيةً للبحث عن المخطوطات التي أريدها. وأذكر أنّي رأيت ونحن ننزل من «المُتَخَت» كاهناً هرماً يمشي وحده في ردهة المبنى معتمراً عمامة صغيرة سوداء، قال لي المونسنيور الرجّي أنه «سيّدنا البطرك» (أي البطريرك أنطون عريضة).

اضطررت إلى النزول من بكركي إلى جونية مشياً وقفزاً على المدرَجات، بين الصنوبر. وجونية آنذاك ما زالت بلدة صغيرة، هادئة وجميلة، وبيوتها الحجريّة من طابق أو طابقين يعلوها القرميد. سألت عن مطعم آكل فيه، إذ كنت جائعاً، فقيل لي عن وجود امرأة تقدّم الأكل للزبائن في بيتها على الشارع العام. دخلت ذلك البيت، فاستقبلتني المرأة وأعلنت لي بصوت عالٍ، وهي واقفة ويداها وراء ظهرها: «عندي اليوم باذنجان مقلي وكبّة بصينيّة، بيعجبك؟» (كان أكلها في الواقع شهيّاً). وبعد الأكل خرجت إلى الشارع لأنتظر الباص القادم من طرابلس ليعيدني إلى بيروت. كانت هذه أوّل مرّة أقوم فيها بزيارة منطقة مارونيّة خالصة من لبنان.

في زيارتي الثانية لبكركي استبقاني المونسنيور الرجّي للغداء معه ومع زملائه من الكهنة والرهبان. كان يقال لي عن الموارنة أنّهم متفرنسون، فبدا لي العكس. الكهنة والرهبان الذين أشاركهم الطعام يعرفون الفرنسيّة جيّداً، لكنّهم لا يتكلّمون فيما بينهم إلاّ العربيّة. وضيافتهم كذلك عربيّة، بل من النوع البالغ السخاء

الذي نقرأ عنه في الكتب التي تتغنّى بفضائل العرب. قلت لهم ذلك، فأثار كلامي حديثاً بينهم عن الموارنة وعلاقتهم بالعرب: منهم من يعتبر الموارنة عرباً، ومنهم من يقول بأنّهم أحفاد الفينيقيّين أو غير ذلك. وسرعان ما تطوّر الحديث إلى جدل. وفيما كنت استمع إلى كلامهم همس إليّ راهب جالس إلى جانبي بما معناه: لا تصدّق ما يقولون، إذ نحن الموارنة في الواقع أقحاح العرب. وأين منّا المسلمون في لبنان وسوريّا الذين اختلط دمهم منذ قرون بدم الأتراك والأكراد والأرناؤوط (أي الألبان) والبشناق (أي البوسنيّين) وغيرهم من «تَرْكَة بني عثمان». نقول عن أنفسنا فينيقيّين فقط لإغاظة المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم القيّمين على العروبة في بلادنا.

في صيف ١٩٥٢ أطاح ضبّاط من الجيش المصري بالملك فاروق، وبرز بينهم اسم محمد نجيب، فتذكّرت ما كان قاله لي جمال سليمان ونحن في طريقنا إلى الإسكندريّة على متن الباخرة «إسطنبول». ظننت في البداية أنّ محمد نجيب هو الضابط الذي حدّثني عنه جمال سليمان آنذاك، إلى أن بدأ يبرز اسم جمال عبد الناصر لاحقاً على أنه القائد الحقيقي للثورة، فأدركت أنّه هو الذي كان يقصده.

كان التحالف بين كمال جنبلاط وكميل شمعون لمواجهة الشيخ بشارة الخوري حديث الناس في ذلك الصيف. والتحالف هذا يسمّى «الجبهة الاشتراكيّة». كانت هذه الجبهة حدّدت يوماً للبدء بإضراب عام في البلاد يجبر الشيخ بشارة على الاستقالة. عندما غادرت بيروت على متن الباخرة الإيطاليّة «إنوتريا»

(Enotria) للرجوع إلى لندن قبل بداية هذا الإضراب، خرجت إلى ظهر السفينة بعد إبحارها لأتأمّل منظر بيروت في شمس الغروب، وهي بعد مدينة خضراء على ساحل البحر، وسط التلال والجبال، تتصدّرها حدائق الجامعة الأميركيّة وتحيط بها بساتين البرتقال وكروم الزيتون. شعرت بعد قليل بدوار البحر وذهبت إلى مستوصف السفينة لأطلب شيئاً يساعدني على احتماله، فأعطتني الممرّضة المناوبة قرصاً من دواء لم أسمع به من قبل اسمه «درامامين» (Dramamine): قالت لي أنّه اكتُشف حديثاً، وهو يقضي على دوار البحر تماماً.

كانت الرحلة جميلة في جوّ أيلول الصافي، والباخرة التي نحن عليها من أحدث السفن: توقّفت أوّلاً في الإسكندريّة، ثمّ في مرفأ سيراقوزة (Syracusa) بجزيرة صقلّية، حيث نزلنا واستأجرنا عربات خيل لنتجوّل في المدينة وجوارها. (أذكر أن رفاقي في العربة كانوا ثلاثة شبّان أرمن من لبنان مهاجرين إلى أميركا.) مررنا لاحقاً في مضيق مسّينا عند الغروب، فاستمتعنا برؤية الجانبين الإيطالي والصقلّي منه. وفي مساء اليوم التالي وصلنا إلى نابولي، مروراً بجزيرة كابري (Capri). مكثت تلك الليلة في فندق بنابولي، وتوجّهت في صباح اليوم التالي إلى محطّة سكّة الحديد لاستقلّ القطار إلى روما.

نزلت في روما بفندق في شارع «فيا ناسيونالي» (Via Nazionale) اسمه فندق إسبيريا (Albergo Esperia): يحضرون إلى الغرف كلّ صباح أباريق كبيرة من الماء وطشوتاً للاغتسال (والأباريق والطشوت من الخزف)، إذ لا توجد في الغرف مغاسل، والحمّامات

مشتركة بينها. وجدت في ردهة الفندق عند وصولي كُشكاً تباع فيه الصحف الإيطاليّة وغيرها من الصحف الأوروبيّة، واشتريت منه صحيفة «التايمز» (The Times) اللندنيّة لأتسلّى بحلّ الكلمات المتقاطعة فيها، فوجدت أخبار لبنان تتصدّر الصحيفة: الشيخ بشارة الخوري أُجبر على الاستقالة من رئاسة الجمهوريّة، والمتوقّع انتخاب كميل شمعون ليحلّ مكانه. (بدا لي أنّ جريدة «التايمز» تنقل الخبر بحماس.)

بقيت في روما أسبوعين أو ثلاثة، أتردّد كلّ صباح على مكتبة الفاتيكان لأتفحّص المخطوطات المارونيّة فيها وأنقل منها ما هو ضروريّ لعملي. ذهبت يوماً بعد الظهر لزيارة مبنى الكلّية المارونيّة في محلّة «سان بيتروإن فينكولي» (San Pietro in Vincoli)، حيث توجد كنيسة قديمة بهذا الاسم. وهذه المحلّة يصعد إليها بدرج هائل. التقيت بكاهن عربي المظهر ينزل ذلك الدرج، وأنا أصعده وألهث، فتوقّفت لأسأله بالعربيّة عن موقع الكلّية المارونيّة، فأخذ يتكلّم معي بالإيطاليّة التي أكاد لا أفهمها في الكلام، وإن كنت أقرأها قليلاً. ولم أستفد ممّا قاله لي شيئاً. ثمّ سألني عن اسمي، وأعاده عليّ وهو يلفظ الصاد فيه لفظاً عربياً. قلت له: «الواضح أنّك كاهن ماروني ولغتك عربيّة، فلماذا تحادثني بالإيطاليّة التي يصعب فهمها عليّ؟» أجابني وهو يفارقني وينزل الدرج، كذلك بالإيطاليّة: «في روما افعل كما يفعل الرومان» (In Roma fai ciò i romani fanno).

وصلت إلى الكلّية المارونيّة، فوجدتها متحوّلة منذ زمن إلى مسكن للطلبة من الرهبان، والذين فيها لم يستيقظوا بعد من

القيلولة. فذهبت إلى كنيسة «سان بيترو إنْ فينكولي» لأتفحّص ما فيها. وقد تهدّمت جدران من هذه الكنيسة خلال الحرب، ولم يتمّ ترميمها بعد. رأيت تمثالاً ضخماً من الرخام إلى جانب من أنقاض الكنيسة: رجل جالس وأمامه ألواح، ينبت من رأسه قرنان. أخذت أدور حول هذا التمثال وأتفحّصه لمساً، دون أن أعرف أنّ ما أشاهده وألمسه باليد هو رائعة مايكل أنجلو (Michelangelo) التي تمثّل النبي موسى.

كان وصولي من روما إلى لندن بالقطار، وعدت إلى السكن في ١٠٦ غلوستر رود. قضيت ذلك العام الدراسي منكبّاً على كتابة أطروحتي، أعمل سبع عشرة ساعة في اليوم: آخذ الفصل بعد الآخر إلى الأستاذ برنارد لويس، فيعيده إليّ مع بعض الملاحظات قائلاً: «يمكنك أن تفعل أفضل من ذلك، وعليك أنت أن تكتشف الطريقة لنفسك.» كنت أقتني آلة كاتبة صغيرة لعملي، لكنّي اضطررت إلى استئجار آلة عاديّة كبيرة عندما أشرفت على الانتهاء من الكتابة. كان مطلوباً منّي أن أقدّم خمس نسخ من الأطروحة (الأصليّة مع أربع نسخ كاربونيّة)، والآلة الصغيرة التي عندي لا يمكن أن تنتج أكثر من ثلاث نسخ في الأكثر (الأصليّة مع نسختين).

تنفّست الصعداء عندما فرغت من الكتابة وأرسلت أطروحتي للتجليد. لكنّ راحتي لم تدم طويلاً، إذ استدعتني إدارة الجامعة (وهي الموكل إليها إصدار الشهادات لجميع الكلّيات التابعة لها) لتخبرني بعدم تمكّنها من إصدار شهادة لي في حال نجاحي، لأنّ

شهادتي من الجامعة الأميركيّة في بيروت تقول أن اسمي هو Kamal Sulayman Salibi، بينما جواز سفري يقول أنّ اسمي هو Kamal Sleiman Salibi. حاولت أن أشرح لهم أن الشكل العربي لاسم والدي «سليمان» يكتب في أكثر من شكل في الأحرف اللاتينيّة، لكنّه يبقى اسماً لشخص واحد، فلم يقبلوا شرحي، إلى أن وجدوا الحلّ: أذهبُ إلى مفوّض محلّف (commissioner of oaths) وأقسم أمامه ويدي اليمنى على الكتاب المقدّس بأن Kamal Sulayman Salibi وKamal Sleiman Salibi هما شخص واحد، وهو أنا.

تعيّن الموعد لمثولي أمام اللجنة الفاحصة بعد ستّة أسابيع، وفي جملة الفاحصين هاملتون جيب (Hamilton Gibb) الشهير، أستاذ اللغة العربيّة والتاريخ العربي والإسلامي في جامعة أكسفورد. (طلاّبه هناك يلقّبونه «المُستَجِبّ باللّه» اشتقاقاً من اسمه.) قال لي الأستاذ لويس بعد الامتحان أن الأستاذ جيب أعجب بأطروحتي إلى حدّ جعله يتّهمه هو بكتابتها عنّي.

١١

سافر خفيفاً

انتهى التقنين في بريطانيا في اليوم الذي غادرت فيه محطّة «فيكتوريا» في مقصورة خاصّة بإحدى عربات النوم (wagons-lits) على قطار «البولمان» (pullman) المسمّى «غولدن أرو» (Golden Arrow). وما إن تحرّك القطار حتى توجّهت فوراً إلى عربة الطعام لأطلب فطوراً ضخماً من البيض والنقانق. لم أكن أحمل معي إلاّ حقيبة واحدة صغيرة، إذ كنت شحنت بقيّة أمتعتي عن طريق شركة «كوك» إلى مرفأ مرسيليا فأستلمها هناك. أخذت أفكر وأنا أتمتّع بمناظر حقول إنكلترا وفرنسا التي أراها من نافذة العربة: ما أحلى السفر عندما لا يحمل المسافر معه حاجة تثقل عليه. ويقال أنّ الحياة ما هي إلاّ سفرة. فلماذا لا اتّخذ شعاراً لحياتي يكون «سافِر خفيفاً» (Travel light)؟

وفّرت لي تلك الرحلة بالقطار، وأنا وحدي في العربة، ساعات للتفكير عن مخطّط اتبعه في الحياة. أمنيتي هي التعليم، وبالجامعة الأميركيّة في بيروت تحديداً حيث الطلاّب بمعظمهم من أبناء وبنات

جنسي. ولن أذهب في أيّ يوم إلى أبعد من هذه الأمنية. لن أسعى إلى الشهرة، وإن صدف حصولي على شهرة لأي سبب لن أعيرها اهتماماً لكونها لا تستحقّ الاهتمام: يصفّق المصفقون ثمّ يتفرّقون، فينصرف كلّ واحد منهم لشأنه الخاص، ناسياً ما صفّق له. سوف استمرّ، طبعاً، بالبحث والكتابة في المواضيع التي تهمّني، لكنّي لن أسمح للبحث أن يصبح في أيّ يوم هدفاً أقضي العمر في خدمته، بدلاً من أن يبقى لذّة عقلية أسعى إليها عندما يطيب لي ذلك. وما أسعد الإنسان عندما تكون هوايته هي أيضاً عمله.

قال لي الأستاذ برنارد لويس بعدما اجتزت امتحان الدكتوراه: «سوف أعطيك إسنادك على الطريقة الإسلاميّة التقليديّة: أنت أخذت العلم عنّي، وأنا أخذته عن هاميلتون جيب، وهو أخذه عن توماس آرنولد (Thomas Arnold) الذي أخذه عن وليم رايت (William Wright) الذي أخذه عن راينارت دوزي (Reinhardt Dozy) الذي أخذه عن سيلفستر دو ساسي (Sylvestre de Sacy).» تمنّى عليّ أن أحافظ على مستوى في العمل يتناسب مع هذا الإسناد، فأخذت أفكّر في هذا الأمر قائلاً في نفسي: لعلّي، بعد رجوعي إلى بيروت، لن أتعرّض للنقد الموضوعي الضروري للمحافظة على المستوى الذي تحدّث عنه الأستاذ لويس، بل جلّ ما قد أتعرّض له هو المديح الذي يدغدغ الغرور، وكثيراً ما يكون في غير مكانه، فيورث الإسفاف. أو إنّي قد أتعرّض لتهجّم مغرض، كثيراً ما يكون سياسيّاً، فيجعلني ذلك إمّا أنغمس في المهاترات أو أنثني عن العمل الجادّ خوفاً من مزيد من التهجّم.

وسبق أن كانت لي خبرة في ذلك. وقفت مرّة، وأنا في لندن، على مرثاة كتبها رجل اسمه سليمان الأشلوحي، ربّما كان مارونيّاً، لمناسبة

سقوط إمارة طرابلس الفرنجيّة عام ١٢٨٩م في يد السلطان قلاوون، من سلاطين دولة المماليك بمصر، فأرسلت مقالاً بالإنكليزيّة عن هذه القصيدة لينشر في مجلّة «ميدِل إيست فورُم» (Middle East Forum) التي كان يصدرها في بيروت نادي خرّيجي الجامعة الأميركيّة. قرأ المقال زكي النقّاش الذي كان يعتبر نفسه رقيباً على كلّ ما يُكتب في موضوع تاريخ لبنان، فتهجّم عليه بشكل شرس في العدد التالي من المجلّة، معتبراً إيّاي نصيراً لسليمان الأشلوحي أبكي معه على نهاية حكم الفرنجة في طرابلس. أجبته فوراً على صفحات المجلّة ذاتها بما مفاده: لك أن تقول ما تشاء إذا كنت مقتنعاً به. وكذلك لي أن أقول ما أشاء. لكنْ لا تفكّر للحظة واحدة أنّه بإمكانك أن تخيفني فتسكتني.

قرّرت أن أستمرّ على هذا الموقف: أكتب ما يمليه عليّ عقلي دون أن يخيفني التهجّم أو يغرّني المديح، في حال تعرّضي له. وأبدأ في الكتابة، على كلّ حال، بالإنكليزيّة أو الفرنسيّة حتى أستطيع نشر أبحاثي في المجلّات الاختصاصيّة العالميّة، فتتعرّض آنذاك لنقد موضوعي أستفيد منه. وإذا حدث أن تعرّضت في أيّ وقت إلى تهجّم مغرض من أيّ نوع، فلن أردّ على مثل هذا التهجّم، بل أتركه ليستنزف نفسه.

بقيت أفكّر في مثل هذه الأشياء حتّى غلبني النوم، واستفقت في الصباح على دقّ باب مقصورتي وصوت الموظّف المسؤول ينذرني بقرب الوصول إلى مرسيليا. كان حجزي على باخرة بريطانيّة اسمها «غولدن آيلز» (Golden Isles)، تصل إلى بيروت مع توقّف في مرفأ فاليتّا بمالطا، ثمّ مرفأ ليماسول بقبرص، بدلاً من التوقّف في مرافىء إيطاليا ومن بعدها الإسكندريّة. والباخرة هذه فريدة من نوعها في

البحر المتوسّط لأنّها صنعت في الأصل لتجوب بحار المناطق الحارّة، بين سنغافورة وجزر مالاي (ماليزيا حالياً) وبورما وهونغ كونغ. حجزت عليها أفضل جناح (suite)، على الظهر الأعلى منها، كهديّة أقدّمها لنفسي نيابة عن أبي بسبب نجاحي. وكان في جملة ركّابها فريق من الراقصات من بريطانيا المتعاقدات مع ملاهٍ في بيروت، فأضفى وجودهنّ على متن الباخرة رونقاً خاصاً. أراد القبطان أن يكرّمني نظراً لكوني أحتلّ أغلى شقّة على سفينته (والشقق فيها ليست أكثر من ثلاث)، فجعلني أجلس في قاعة الطعام على طاولته. وحدّثنا مرّة كيف أن البيانو في تلك القاعة أفلتت من رباطها عندما كانت الباخرة تمرّ في عاصفة، وصارت تجوب الغرفة مع تحرّك السفينة وترتطم بالجدران وكأنّها ثور هائج، إلى أن تمكّن الملاّحون أخيراً من الإمساك بها بالحبال وربطها مجدّداً. وممّا أذكر عن هذه الرحلة أنّ ليماسول لم يكن لها مرفأ، فرست الباخرة في البحر خارج المدينة (أو بالأحرى البلدة الصغيرة الوادعة)، فاضطررنا إلى الذهاب إليها والعودة منها بالقوارب.

في الصباح الذي وصلت فيه إلى بيروت، جاءني أستاذ من الجامعة الأميركيّة اسمه رالف كرو (Ralph Crow) – أصبح صديقاً لي فيما بعد – يطلب منّي أن أقوم بتدريس مادّة العلوم السياسيّة لصفّ «السوفومور» في فصل الصيف، وموضحاً لي أنّ ذلك لا يعني بالضرورة استمراري في التدريس بالجامعة، وإن كان قبولي بهذا العرض قد يوفّر لي مدخلاً إليها (a way to put your nose in). فقبلت العرض. كان أستاذي الدكتور أنيس فريحة حذّرني سابقاً، في رسالة أرسلها إليّ وأنا بلندن، أنّ لإدارة الجامعة تحفّظات تجاهي (ربّما بسبب الضجّة التي

أثارها مقالي عن سليمان الأشلوحي)، فرأيت من المناسب، في ذلك الصيف، أن استفهم من أستاذي القديم شارلز ميلّر (Charles Miller)، وهو آنذاك عميد كلّية الآداب والعلوم بالوكالة، عن إمكانيّة التحاقي بهيئة التدريس. أجابني بالحرف: «أنت مسيحي أكثر من اللازم (You are too Christian) في ظروف تقتضي منّا أن نساير المسلمين.» اقترح عليّ أن أصبح الراعي (أي القسّ) للكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة في بيروت، واعداً إيّاي (وهو الذي كان يعمل مبشّراً) بأن يساعدني للحصول على هذا المنصب، فرفضت رفضاً قاطعاً. عند ذلك طلب منّي أن أريه نسخة من أطروحتي عن المؤرّخين الموارنة. أعجب بالبيبليوغرافيا (لائحة المصادر والمراجع) فيها. وعندما عُدت لزيارته بعد أسبوع عرض عليّ أن التحق بمعهد جديد في الجامعة هو «معهد الأبحاث الاقتصاديّة» لمدّة ستّة أشهر أقوم فيها بجمع بيبليوغرافيا لهذا المعهد تشمل كلّ مؤلّف مطبوع أو مخطوط في حقل الاقتصاد يمتّ إلى البلاد العربيّة بصلة، وأقوم بعد ذلك بالإشراف على طبع هذه البيبليوغرافيا. فقبلت العرض، على أن يبدأ عملي هذا بعد نهاية فصل الصيف.

كان أسامة الخالدي بدأ تخصّصه آنذاك في حقل الكيمياء الحيويّة (biochemistry) بكلّية الطبّ، واقترح على خاله محمّد سلام استئجار الطابق الأسفل من بيتنا في بحمدون لقضاء أشهر الصيف فيه مع عائلته. فكان محمّد سلام، وهو آنذاك رئيس جمعية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة ببيروت، في جملة من استقبلني في بحمدون فور وصولي إليها عائداً من لندن. طلب منّي، هو وزوجته الستّ فاطمة الخالدي (عمّة أسامة) أن اعتني بابنهما الثاني خالد (وهو آنذاك في الخامسة عشرة من العمر): يأتيني كلّ يوم بعد الظهر، فنقرأ معاً رواية «يوليوس

قيصر» لوليم شيكسبير، ثمّ نتحدّث عمّا قرأنا، أو أطلب منه كتابة موضوع إنشاء وأصحّحه له. وهكذا بدأت علاقتي مع بيت محمّد سلام — بل مع جميع آل سلام — تتوثّق حتى صاروا يعتبرونني واحداً من أفراد العائلة، بل ومن البارزين فيها. محمّد سلام وجميع اخوته يتحدّثون عنّي للقاصي والداني ويتباهون بكوني نلت شهادة الدكتوراه وأنا في الرابعة والعشرين من العمر. حيّرني تصرّفهم تجاهي في البداية إلى أن تبيّن لي السبب الذي هو في غاية البساطة: آل سلام يحبّون أصدقاءهم دون تحفّظ، ويعفويّة قلّ مثيلها.

(حدث بعد خمس وعشرين سنة أنّي كنت جالساً إلى العشاء في بيت السفير البريطاني في بيروت، وإلى جانبي السيّدة نعمة الحصّ. سألتني لماذا يكنّ لي الرئيس صائب سلام هذا القدر الهائل من المحبّة ويعتبرني أفضل من يمثّل وجهة نظر مسلمي لبنان في الحرب الأهليّة القائمة، فأجبتها بأن صائب بك، مثله مثل جميع آل سلام، لهم مقدرة فريدة على محبّة أصدقائهم.)

كانت أختي سنيّة في صيف ١٩٥٣ تستعدّ للزواج من خطيبها سامي داغر، صديق أخي منير. والد سامي، فارس داغر، يستعدّ في الوقت ذاته لخوض الانتخابات النيابيّة على لائحة الجبهة الاشتراكيّة التي يترأسها كمال جنبلاط في الشوف، وهي الجبهة المعارِضة للرئيس كميل شمعون في تلك المنطقة. جاء ليزورنا مرّة في البيت، وسألته لماذا أصبحت الجبهة الاشتراكيّة تعارض شمعون بينما هي التي أوصلته إلى رئاسة الجمهوريّة قبل أقلّ من سنة. أخبرني أنّ شمعون ما كاد يصل إلى الرئاسة حتى تخلّى عن البرنامج الإصلاحي للجبهة: أحاط به أصحاب

المصالح الكبرى الذين كانوا يحيطون ببشارة الخوري سابقاً، فتحوّل إلى خدمة مصالحهم. برنامج الجبهة الاشتراكيّة يركّز على تنمية الأرياف ليبقى سكّانها فيها، وذلك بتشجيع نقل الصناعات إليها وإقامة المستشفيات والمدارس - وبخاصّة المهنيّة - في البلدات الرئيسة منها. وكميل شمعون وجماعته لا همّ لديهم إلاّ تنمية بيروت وجعلها المركز الوحيد للنشاط الاقتصادي في البلاد. وإذا هم نجحوا في برنامجهم هذا، لن تكون النتيجة إلاّ موت الأرياف ونزوح سكّانها إلى بيروت، بحيث تصبح العاصمة وضواحيها مع الوقت بؤرة للمشاكل الاجتماعيّة والفساد.

في ذلك الصيف أيضاً اضطُرّ أبي إلى الخضوع لعمليّتين جراحيّتين في «مستشفى الشرق» الذي كان يملكه ويديره صديقه الدكتور سامي حدّاد بمحلّة «حاووز الساعاتيّة»: اخوتي يتناوبون على زيارته هناك في النهار، وأنا أذهب إليه بعد أن انتهي من التدريس في دائرة العلوم السياسيّة بالجامعة، وأبقى معه في الليل. كان أبي معتاداً على النوم باكراً، فصرت أجلس على شرفة غرفته بالمستشفى بعد نومه وأتسلّى بتأليف الكلمات والألحان لأوبريت أكملتها آنذاك وأسميتها «مركيزة سادن سادن» (The Marchioness of Saden-Saden): أميرة لمقاطعة مستقلّة من المقاطعات الألمانيّة القائمة في القرن الثامن عشر تستعدّ لاستقبال دوق قادم من إنكلترا لطلب يدها، وهي تتحدّث مع الذين حولها من الخدم والحشم، متباهية بجمالها وعراقة نسبها والثروة الهائلة التي ورثتها مؤخراً، مع الإمارة، عندما مات عمّها غرقاً وهو يقوم برحلة مع حاشيته في البحر. يصل الدوق المنتظر، فيدور الحديث بينه وبين المركيزة: هو يستفيض بالكلام عن مزاياه، وهي تستفيض

بالكلام عن مزاياها، إلى أن يتّفقا على الزواج فوراً، وعندئذٍ ينشد لهما الخدم والحشم نشيداً مناسباً للحدث. (عُرضت هذه الأوبريت على مسرح الجامعة الأميركيّة عام ١٩٥٤، وأعيد عرضها هناك مرّة ثانية عام ١٩٧٧).

لم أندم على قراري بقبول العمل في «معهد الأبحاث الاقتصاديّة» في الفصل الأوّل من العام الدراسي ١٩٥٣–١٩٥٤، إذ وفّر لي ذلك العمل التعرّف على فنّ الطباعة عن كثب: أكملت جمع البيبليوغرافيا المطلوبة خلال شهرين أو ثلاثة، ثمّ رافقتها إلى المطبعة لتصبح كتاباً لا يحمل اسمي (وذلك بشرط منّي، إذ لم يكن لديّ أيّ رغبة بأنّ يرتبط اسمي بالعمل البيبليوغرافي.) وما كدت انتهي من هذا الكتاب حتى طُلب منّي جمع بيبليوغرافيا مماثلة لدائرة الإدارة العامّة (Public Administration) بالجامعة – وهي التي تأسّست حديثاً – للكتب والأبحاث المتعلّقة بالنظام الإداري في لبنان. قبلت ذلك العرض أيضاً، شرط أن يُسمح لي بتعليم درس واحد في دائرة التاريخ. وحدث أنّ هذه الدائرة كانت بحاجة إلى من يدرّس قسماً من صفّ «الفرشمن»، فحصلت على تعاقد مع الجامعة يصفني بأنّي «باحث في دائرة الإدارة العامّة ومدرّس في دائرة التاريخ». تبيّن بعد ذلك أن الأبحاث حول موضوع النظام اللبناني الإداري قليلة جدّاً، فاقترحت على القيّم على ذلك المشروع، وهو الأستاذ جورج غراسمَك (George Grassmuck)، أن نشترك في إعداد كتاب حول هذا الموضوع أتولّى أنا فيه وصف نظام الإدارة في لبنان ووضع الخرائط له، تاركاً له جمع البيبليوغرافيا وكتابة المقدّمة. بدأت بقراءة جميع النصوص الرسميّة (القوانين والمراسيم والقرارات)

المتعلّقة بالموضوع، ورسم الخرائط للإدارة اللبنانيّة على أساسها أوّلاً، ثمّ قمت بزيارة جميع الوزارات والدوائر الحكوميّة لأرى بنفسي كيف يُطبّق ما في هذه النصوص عمليّاً، فأصحّح الخرائط التي رسمتها على هذا الأساس، ملاحظاً الفرق بين النصّ وطريقة تطبيقه حيث يلزم.

كان الحديث السياسي يدور في ذلك الوقت حول مشروع اتّفاقيّة بين العراق وتركيا تكون نواة للحلف الأوسع الذي تسعى إليه بريطانيا لردّ الخطر السوفياتي والشيوعي عن منطقة الشرق الأوسط. وهو المشروع الذي كنت أسمع عنه منذ ١٩٥١. ومن أشدّ المناهضين لهذا المشروع شباب «حركة القوميّين العرب» الناشطون في جمعيّة العروة الوثقى بالجامعة، ورئيس هذه الجمعيّة آنذاك شاب من دمشق اسمه ثابت المهايني. وجاء يوم قامت فيه مظاهرة داخل الجامعة للتنديد بالمشروع وبانحياز العراق لسياسة الغرب: العروة الوثقى مصرّة على الخروج بهذه المظاهرة إلى شارع بْلِسّ لتلتقي هناك بمتظاهرين آخرين، فينطلق الجميع من هناك في مسيرة موحّدة نحو السراي الحكومي بالمدينة؛ والحكومة (ورئيسها آنذاك عبد اللّه اليافي) مصمّمة على منع هذا التحرّك مهما كلّف الأمر. كنت مجتمعاً في ذلك الصباح مع جورج غراسمَك في مكتبه قرب «بوّابة الطبّيّة» (Medical Gate): سمعنا أصوات شجار في شارع بْلِسّ، وخرجنا إلى الشرفة لنرى ما يحدث، فوجدنا حشوداً من غير طلّاب الجامعة هناك تحاول الدخول إلى أرض الجامعة، وقوى الأمن تقوم بردّها. ثمّ دوّى الرصاص. (سمعنا لاحقاً أنّ شابّاً اسمه حسّان أبو إسماعيل، من أنصار كمال جنبلاط، حاول القفز عن السور للدخول إلى الجامعة

قرب «بوّابة الطبّية»، فأُطلقت عليه النار وقتل.) عندئذٍ قرّرنا أن نؤجّل اجتماعنا إلى وقت لاحق، فتركت مكتب جورج غراسمَك لأعود سائراً نحو «كولدج هول»، حيث مكاتب دائرة التاريخ. وما كانت إلاّ لحظات حتى بدأت أسمع دويّاً لرصاص يطلق من جهة «بوّابة الطبّية» إلى داخل حرم الجامعة ويتساقط حولي، وأرى شباباً من الطلاّب المتظاهرين يركضون في جميع الاتجاهات، ومنهم من يقفز على المدرّجات إلى جانب الطريق هرباً من الرصاص. وما كدت أصل إلى نهاية طريقي حتى دخل رجال الأمن حرم الجامعة لأوّل مرّة منذ تأسيسها، وأخذوا يطاردون الطلاّب المتظاهرين. وفي مساء ذلك اليوم تقرّر إغلاق جمعيّة العروة الوثقى نهائيّاً، وذلك بطلب من الحكومة، على ما سمعت. (قيل لي لاحقاً أنّ أعضاء مجلس الطلبة في إحدى الجامعات الأميركيّة بالولايات المتّحدة شاهدوا شريطاً سينمائيّاً للمظاهرة داخل الجامعة، وأُعجبوا بقيادة ثابت المهايني لها، وهو الشاب الأشقر الوسيم، فقرّروا أن يخصّصوا له منحة لإكمال دراسته في جامعتهم.)

انتهيت من العمل في دائرة الإدارة العامّة خلال ذلك الصيف، وكانت النتيجة إصدار أوّل مؤلّف حول النظام الإداري في لبنان يحمل اسم جورج غراسمَك واسمي على غلافه. (أشرفت أنا على طباعته، وصدر عام ١٩٥٥ تحت عنوان A Manual of Lebanese Administration.)

كان «برنامج الدراسات العربيّة» (Arab Studies Program) في تلك الأثناء يبحث عن شخص يشرف على مجموعة المؤلّفات المتعلّقة بالآداب العربيّة والتاريخ العربي والإسلامي في مكتبة الجامعة، فيحدّد ما ينقص هذه المجموعة من المصادر والمراجع

لشرائها من حيث تتوفّر. وكنت الوحيد المؤهّل لمثل هذا العمل في ذلك الوقت، فاتّفق أستاذي السابق الدكتور نبيه فارس (مدير البرنامج ورئيس دائرة التاريخ) مع ديفيد وايلدر David Wilder (أمين المكتبة) على أن يُعرض عليّ عقد لهذا المنصب لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد. كان شرطي لقبول هذا العقد أن يشمل تعييني مدرّساً لمادّتين في دائرة التاريخ، واحدة عن تاريخ الدولة البيزنطيّة، والثانية عن تاريخ مصر وبلاد الشام في عهد الفرنجة والمماليك. قال لي الدكتور فارس أنّ ذلك مستحيل، فأجبته أنّ قبولي بعرضه دون أن يتحقّق شرطي هو كذلك مستحيل. واستمرّ الأخذ والردّ بيني وبينه طوال صيف ١٩٥٤: هو يقول أن لجنة برامج الدراسة (Curriculum Committee) في الجامعة لا توافق على إضافة مواد جديدة إلى برنامج التاريخ، وأنا أقول أنّ على هذه اللجنة أن تفعل ذلك إذا كان برنامج الدراسات العربيّة يرغب بعملي في المكتبة. أنا لا أطلب رتبة معيّنة، ولا راتباً معيّناً، بل جلّ ما أطلب هو حقّ التعليم الذي هو أمنيتي في الحياة. وأخيراً، وقبل أيّام من بداية العام الدراسي الجديد، تغيّرت قوانين الجامعة فجأةً، وزالت العوائق، وعُرض عليّ العقد كما طلبته: بيبليوغرافي برنامج الدراسات العربيّة ومدرّس في التاريخ.

استوجبت طبيعة عملي في المكتبة أن أتعاون مع الأستاذ جبران بخعازي، مدير قسم المطبوعات والمخطوطات العربيّة. وهو رجل قديم العهد بالجامعة، له خبرة بطرقها ومعرفة بطبائع كبار الأساتذة فيها. حذّرني منذ البداية من خطورة وضعي. إدارة الجامعة متحفّظة تجاهي

أصلاً لسبب ما، ولم تقبل بتعييني مدرّساً في دائرة التاريخ إلاّ على مضض. ولذلك سوف أبقى أضعف أعضاء هذه الدائرة إلى حين. والطريقة الوحيدة لتقوية وضعي فيها هي استغلال وجودي في المكتبة للعمل في البحث: أقرأ وأكتب وأنشر في المجلاّت المختصّة بموضوعي، فأفرض وجودي بين زملائي كباحث من العيب أن يستغنى عنه. وأتحاشى في الوقت ذاته الدخول في الحزازات بينهم مهما كانت الإغراءات، حتى لا أستعدي أحداً منهم. أخذت بنصيحة الأستاذ بخعازي وباشرت العمل بالأبحاث فوراً، وموضوعي المفضّل هو نظام القضاء في عهد المماليك. بدأت بجمع قوائم مرتّبة زمنيّاً لجميع من تولّى منصب قاضي القضاة في القاهرة للمذاهب الفقهية الأربعة – الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي – من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧م، مع ترجمة موجزة لكلّ منهم تظهر ظروف تعيينه ونهاية خدمته، والمراجع الكاملة لكلّ ترجمة. أكملت هذا العمل (وهو الأوّل من نوعه) بالفرنسيّة عام ١٩٥٥ وأرسلته إلى لويس ماسينيون (Louis Massignon)، شيخ المستشرقين في فرنسا آنذاك، فأعجب به ونشره في مجلّته الشهيرة المسماة «مجلة الدراسات الإسلاميّة» (Revue des Etudes Islamiques)، حيث صدر عام ١٩٥٧.

(أخذت نسخة من هذا المقال، بعد صدوره، لأهديها إلى صديقتي ندا بارودي، فأبدت إعجابها به. قلت لها: «أهذا كلّ ما لديك أن تقوليه؟ انظري قائمة هؤلاء العلماء الأفاضل – العشرات منهم – الذين انتشلتهم من ظلمة النسيان لأعيدهم إلى النور. كان في جوابها ما خفّف قليلاً من زهوي: «أخشى أن يكون جلّ ما فعلت أنّك نقلت هؤلاء المساكين من ظلمة إلى أخرى.»)

لاحظت وأنا أقوم بهذا العمل أن المتسلّمين لكبرى المناصب القضائيّة والدينيّة في دولة المماليك كانوا ينتسبون في معظمهم إلى سلالات محلّية معيّنة تشكّل، بمجملها، طبقة خاصّة من العلماء، وجميعهم (على عكس المماليك الترك أو الشركس) من العرب. فتحوّلت إلى البحث في نشأة هذه السلالات من العلماء المسلمين العرب، والظروف التي أدّت مع الزمن إلى أفولها. اخترت مجموعة من هذه السلالات وجمعت المعلومات المتوفّرة في المصادر عن كلّ منها، ثمّ وضعت بحثاً نموذجيّاً بالإنكليزيّة عن أسرة «بنو جماعة»، من علماء المذهب الشافعي الذين انطلقوا أصلاً من بداية متواضعة في حماة ليحتلّوا مركز قاضي القضاة لعدّة أجيال ليس فقط في القاهرة، بل كذلك في دمشق، إلى أن انتهوا إلى وظيفة الخطابة في المسجد الأقصى بالقدس. ومثل هذا العمل، أيضاً، لم يكن أحد قام به من قبل. أرسلت هذا البحث عام ١٩٥٦ إلى مجلّة «الدراسات الإسلاميّة» (Studia Islamica) التي كان يصدرها المستشرق جوزف شاخت (Joseph Schacht) في مدينة لَيدن بهولندا، فصدر مطبوعاً في هذه المجلّة عام ١٩٥٨.

تلك كانت السنوات التي شهدت بداية تغيّر العالم. الاستعمار البريطاني والفرنسي، بمختلف أشكاله، يتداعى في كلّ مكان، والنفوذ الأميركي يتنامى على أنقاضه، شيئاً فشيئاً. الثوّار «الفِيَت مِنْه» في الهند الصينيّة ينزلون الهزيمة النكراء بالقوّات الفرنسيّة في دِيَنْ بِيَنْ فُو (١٩٥٤)، فيبتهج أهالي دمشق بالخبر، وتصبح التحيّة بينهم «دِيَنْ بِيَنْ فُو» بدلاً من «صباح الخير». جمال عبد الناصر يتسلّم رئاسة الجمهوريّة في مصر ويبدأ بتحدّي بريطانيا، وإذاعة «صوت

العرب» بالقاهرة تدعو الشعوب العربيّة إلى تحدّي بريطانيا وفرنسا في كلّ مكان. أُبرم «حلف بغداد» بين العراق وتركيا في شتاء ١٩٥٥، فقامت في الجامعة الأميركيّة ببيروت مظاهرات صاخبة تندّد به، ممّا أدّى إلى تعليق مجلس الطلبة الذي كان يسيطر عليه القوميّون العرب وطرد عدد من هؤلاء الطلاّب من الجامعة (بمن فيهم رياض القبّاني الذي كان يدرس معي تاريخ مصر والشام في عهد الفرنجة والمماليك).

قامت بعد ذلك مظاهرات عنيفة في البحرين تطالب بإنهاء الوصاية البريطانيّة عليها، وتحديداً بخروج المستشار البريطاني السير شارلز بلغريف (والد صديقي جيمز) منها. وبعد أسابيع من بداية هذه المظاهرات وصل جيمز إلى بيروت مع زوجته الحامل، وهما في طريقهما إلى لندن. ذهبت للقائهما في المطار، فأخبراني كيف اضطُرّا إلى مغادرة البحرين بعد أن هجم المتظاهرون على منزلهما في المنامة، ومن بين المهاجمين من كان صديقاً لجيمز منذ طفولته. (في العام التالي تقاعد السير شارلز من منصبه كمستشار لأمير البحرين بعد أن هدأت الأوضاع فيها، وأهداه الأمير بيتاً يعيش فيه بلندن، في شارع فيكتوريا غاردنز Victoria Gardens بمنطقة ساوث كنسنغتون South Kensington، ورتّب له معاشاً بقي يتقاضاه حتى آخر حياته. زرته في لندن عدّة مرّات، وفهمت منه أن مشكلته في البحرين كانت مع وزارة الخارجيّة البريطانيّة أكثر منها مع أهالي البحرين، وهم الذين ما زال يحبّهم ويريد لهم كلّ الخير. وكان انطباعي أن السير شارلز صادق في ما يقول، إذ هناك فرق أحياناً بين سياسة الإمبراطوريّات وإنسانيّة الرجال الذين يقومون بتنفيذها).

في صيف ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس، وفي خريف ذلك العام اجتاحت القوّات الإسرائيليّة قطاع غزّة وسيناء وصولاً إلى مشارف قناة السويس، وباشرت بريطانيا وفرنسا الهجوم على منطقة القناة، بحراً وجوّاً، بحجّة حماية القناة والفصل بين المتحاربين. والواضح أن الهجوم الإسرائيلي على مصر كان بتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا، بقصد إلحاق الهزيمة بجمال عبد الناصر والتخلّص منه. هذا «العدوان الثلاثي» كاد يوشك على تحقيق أهدافه عندما تدخّل الأميركيّون، وكذلك السوفيات، طالبين وقفه فوراً وانسحاب القوّات المعتدية من جميع المواقع التي احتلّتها. فخرج عبد الناصر من هذه المحنة منتصراً، وكُسرت إرادة بريطانيا لأوّل مرّة في تاريخها.

كنت في ذلك الوقت في جملة من اعتبر جمال عبد الناصر بطلاً عربيّاً من نوع لا عهد لنا به من قبل، عدا عن تحفّظ واحد تجاه الطريقة التي طلب فيها من الدول العربيّة قطع علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا عند بداية هجومهما على مصر. لم يكن تحفّظي تجاه مبدأ قطع العلاقات مع الدولتين المعتديتين، بل فقط تجاه صيغة الأمر به، إذ وجدتُ هذه الصيغة تنال من كرامة الدول العربيّة الموجّه إليها الطلب. كميل شمعون لم يقبل بأن يؤمر بقطع العلاقات (كما بدا لي)، فدعا «الملوك والرؤساء العرب» إلى مؤتمر في مقرّ رئاسة الجمهوريّة بمحلّة القنطاري في بيروت لتدارس الأمر. وهناك اختلف (كما سمعنا) مع رئيس الوزارة عبد اللّه اليافي ووزير الدولة صائب سلام. استقالا من الحكومة على الأثر، فباشر كميل شمعون بتشكيل حكومة جديدة برئاسة سامي الصلح تسلّم فيها شارل مالك وزارة الخارجيّة، وهو آنذاك كبير أساتذة الفلسفة في الجامعة الأميركيّة. وشارل مالك معروف بميوله

الأميركيّة وانحيازه إلى كلّ ما هو غربيّ، حضارياً وسياسيّاً. (قال لي أستاذي الدكتور نبيه فارس آنذاك أنّ لا لزوم للحكومة اللبنانيّة الجديدة أن تتقدّم ببيان وزاري إلى البرلمان لتنال الثقة على أساسه، إذ مجرّد وجود شارل مالك فيها وزيراً للخارجيّة هو بيانها.)

خسر صائب بك مقعده في المجلس النيابي في انتخابات ربيع ١٩٥٧، وكذلك غيره من الزعماء المعارضين لشمعون والموالين لعبد الناصر (بمن فيهم عبد اللّه اليافي وكمال جنبلاط). ولم يخفَ على أحد أنّ هذه الانتخابات كانت مزوّرة. لكنّي وجدت نفسي مرتاحاً لنتائجها، إذ بدا لي أنّ في تصرّف جمال عبد الناصر تجاه لبنان ما يحرّض المسلمين في البلاد ضدّ المسيحيّين. صحيح أن من المسيحيّين في لبنان من هو متحمّس لعبد الناصر، في الأقلّ ظاهراً، لكنّ الواقع أن أنصار الرئيس المصري في البلاد هم في أغلبيّتهم الساحقة من المسلمين. بدا لي هذا الواقع خطيراً، خصوصاً في وقت بدأ فيه الحديث الجادّ عن وحدة عربيّة تتزعمّها مصر وتذوب فيها الكيانات العربيّة القائمة، الواحدة بعد الأخرى، فلا يبقى لأيّ منها شخصيّة مميّزة. وماذا يكون مصير لبنان، ومصيري أنا كلبناني، في حال تحقّق ذلك؟

قرّرت كلّية الدراسات الشرقيّة والإفريقيّة بجامعة لندن، وهي كلّيتي السابقة، تنظيم مؤتمر يعقد فيها في حزيران ١٩٥٧ للنظر في الكتابة التاريخيّة عن الشرق الأوسط (Historical Writing on the Middle East). ودُعيت لقضاء الفصل الثاني من ذلك العام هناك بصفة «محاضر زائر» (Visiting Lecturer) للاشتراك في التحضير لهذا المؤتمر.

نصحني أصدقائي بقبول هذه الدعوة دون تردّد، فغادرت بيروت في ٢٢ شباط ١٩٥٨ على متن طائرة مروحيّة نفّاثة (turbo-prop) من نوع «فايكاونت» (Viscount) تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط، أوصلتنا إلى لندن في ظرف سبع ساعات (بدلاً من الخمس عشرة ساعة التي خبرتها عام ١٩٥٠). وما إن بدأت الرحلة حتى قرأت في الجريدة خبر تحديد ذلك اليوم بالذات موعداً لإبرام وحدة بين سوريّا ومصر يرأسها جمال عبد الناصر وتسمّى «الجمهوريّة العربيّة المتّحدة».

كانت إقامتي بلندن هذه المرّة في شقّة بشارع سلون غاردنز (Sloane Gardens) المتفرّع من محلّة سلون سكوير (Sloane Square)، والبيوت الجميلة في هذا الشارع مبنيّة من الطوب الأحمر في عهد الملكة فيكتوريا. لكنْ أنّى وضع المجتمع البريطاني في عهد الملكة فيكتوريا من الوضع الذي وصل إليه الآن. ما زال في البلاد قطاع محافظ يعتزّ بتقاليده، إلاّ أنّ هذا القطاع صار يجد نفسه في موقع الدفاع، إذ لم يعد قادراً على فرض قيمه كما كان يفعل سابقاً. حرب السويس فضحت المكانة المتدنّية لبريطانيا في العالم، وما زال جزء من المجتمع البريطاني يترنّح تحت وطأة هذه الفضيحة. حركة «الشباب الغاضبون» (Angry Young Men) تهاجم «المؤسّسة» (the Establishment)، أي مواقع القرار التقليديّة في البلاد، وتحمّلها مسؤوليّة ما حدث: تنتقد كلّ ما تعتبره Establishment بمرارة ووقاحة، ابتداءً بالعرش ومجلس اللوردات والكنيسة الأنكليكانيّة و«أوكسبريدج» (كناية عن جامعتي أوكسفورد وكيمبريدج، وإشارة إلى كل ما هو متعالٍ فكريّاً في البلاد)، ووصولاً إلى الأغاني التقليديّة التي تعلّم للأطفال (nursery rhymes)، مثل Baa Baa Black Sheep و Hickory Dickory Dock. («الشباب

الغاضبون» يعتبرون مثل هذه الأغاني البريئة الموروثة وسيلة خبيثة لنقل قيم «المؤسّسة» من جيل إلى جيل.)

كان المطلوب منّي أصلاً أن أقدّم عرضاً في المؤتمر المنوي عقده في الكلّية عن المؤرّخين الموارنة. وكنت مستعداً لذلك. لكنّي أُخبرت عن نقص في المواضيع التي سيشملها المؤتمر، وهي أن أحداً من المشاركين لن يتكلّم عن كتابات المستشرق اليسوعي الشهير هنري لامنس (Henri Lammens) حول تاريخ بلاد الشام، والسيرة النبويّة، والإسلام، والدولة الأمويّة. تبرّعت أن أعالج هذا الموضوع في المؤتمر، وأخذت أقرأ أعمال هنري لامنس، وأدب السيرة، وأخبار الدولة الأمويّة (وما كنت أعرف عن هذه المواضيع إلاّ القليل أصلاً)، وانتهيت إلى كتابة بحث عن «بلاد الشام والإسلام في كتابات هنري لامنس» (Islam and Syria in the Writings of Henri Lammens) أقدّمه للمؤتمر. (بقي لديّ رغم ذلك ما يكفي من الوقت لاستغلال وجودي في الكلّية لتعلّم مبادىء اللغة التركيّة.)

استمرّت أخبار لبنان تتوارد عليّ في تلك الأثناء. المظاهرات في المناطق الإسلاميّة من البلاد – وخصوصاً في طرابلس وصيدا والأحياء الإسلاميّة من بيروت – تزداد عنفاً. ومنطقة الشوف التي يسيطر عليها كمال جنبلاط هي أيضاً في هيجان. قامت مظاهرة في صور تؤيّد جمال عبد الناصر وتدعو إلى انضمام لبنان إلى الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، فداس المتظاهرون العلم اللبناني من فرط حماسهم. ثمّ جاء شهر أيّار واندلعت الثورة المسلّحة في طرابلس، ثمّ في بيروت، لتنتشر من هناك إلى كافة أنحاء البلاد، والجمهوريّة العربيّة المتّحدة

(على ما قيل) تمدّ هذه الثورة بالأسلحة، وأحياناً بالمقاتلين. كان صديقي بيتر أيمري يسكن مع زوجته الألمانيّة إنغي (Ingi تصغير Ingeborg) في بيت قريب من مسكني، وكنت أتردّد إليه أحياناً لأشاهد أخبار لبنان على التلفزيون (وهو الذي عمّ استعماله في بريطانيا تلك السنة). عبّرت له مرّة عن استيائي الشديد من الأمور التي أشاهدها، فأجاب دون اكتراث: «لا أراك تفعل شيئاً بشأنها» (I do not see you doing anything about it).

بعد شهر تقريباً من اندلاع الثورة في بيروت طلب المعهد الملكي للشؤون الدوليّة في شاثام هاوس (Chatham House) من الأستاذ برنارد لويس أن يشرح لأعضاء المعهد – وهم آنذاك من كبار رجال الدولة والقيّمين على الصحافة والإذاعة (ما يسمّى اليوم الإعلام) – طبيعة ما يجري في لبنان. ولم يكن لدى الأستاذ لويس ما يقوله في هذا الموضوع، فطلب منّي أن أقوم بهذه المهمّة بدلاً منه. أنا كذلك لم يكن لديّ معلومات كافية عن الموضوع: كانت لي آرائي الخاصّة بشأن لبنان والظروف التي يمرّ بها، لكنّ المطلوب لم يكن إبداء الرأي بل شرح الأوضاع. قرّرت أن أبدأ بالبديهيّات: أوّلاً، تركيبة لبنان الجغرافيّة والفرق بين المنطقة والأخرى منه؛ ثانياً، تركيبة لبنان الطائفيّة والمنطلق السياسي لكلّ طائفة؛ ثالثاً، أنواع الزعامات السياسيّة في البلاد، التقليديّة منها والطارئة، والفرق بين الزعامات الريفيّة والزعامات في المدن، وتشابك المصالح بين هذه الزعامات على أنواعها؛ رابعاً، النظام الحكومي في لبنان الذي يرتكز إلى دستور مكتوب وتقاليد غير مكتوبة؛ وهلمّ جرّا. وهكذا توصّلت، عن طريق النظر في البديهيّات، إلى رسم صورة ذهنيّة للبنان تظهر نقاط

القوّة والضعف فيه، وتوضح كيف يمكن لأيّ قوّة خارجيّة قادرة استغلالَ نقاط الضعف في البلاد لزعزعة أوضاعها أو لتقويض أركانها. انتهيت من ترتيب ملاحظاتي، فأخذني الأستاذ لويس إلى قاعة المحاضرات في شاتام هاوس وعرفني إلى الحضور، وبدأت أتكلّم. أسمع كلامي فأجده مبتذلاً. إلى أن انتهيت من الكلام ودوّى التصفيق في القاعة. ثمّ تتالت الأسئلة وأجوبتي عليها، والتي انتهت، هي أيضاً، بدويّ من التصفيق. وهكذا أصبحت أُعتبر، بين ليلة وضحاها، خبيراً دولياً في الشأن اللبناني، وذلك دون أي سابق تصوّر أو تصميم من جهتي.

قال لي الأستاذ لويس ونحن خارجون من القاعة: «أتعرف من هو الرجل الذي جاء إليك بعد المحاضرة، وأنت بعد على المنصّة، ليطرح عليك مزيداً من الأسئلة ويدوّن الملاحظات على ما تجيب؟ هذا هو الجنرال سبيرز الذي قام بتصفية الانتداب الفرنسي على لبنان.»

عدت إلى لبنان على متن الباخرة التركية «سمسون» (Samsun)، والتقيت في مرفأ مرسيليا بضابط في البحريّة اللبنانيّة اسمه أنطوان كرَيْدي، بقي رفيقي في تلك السفرة، ومعه راديو ترانزيستور (وكان بعد جديداً في الأسواق) نتلقّى منه أخبار لبنان من مختلف الإذاعات التي نفهم لغاتها. أبحرنا من مرسيليا في ١٣ تموز إلى جنوى، ومنها إلى نابولي، ثمّ أبحرنا من هناك في ١٤ تموز باتّجاه الإسكندريّة. وفي صباح اليوم التالي أخبرنا المسؤول عن اللاسلكي، ونحن نتناول الفطور معه في قاعة الطعام، أنّ شيئاً ما يحدث في البحار التي نسير فيها، لكونه قضى الليل وهو يجيب أسئلة تطرح عليه من قيادة

الأسطول الأميركي السادس، تطلب منه تعريف الباخرة وتحديد مسارها. جاء أنطوان كرَيْدي بالراديو الترانزيستور لنستمع إلى الأخبار، فكان الخبر موجزاً: حدث انقلاب عسكري في بغداد بالأمس أطاح بالنظام الملكي في العراق، وقتل فيه جميع أعضاء الأسرة المالكة، والأسطول الأميركي السادس بدأ يتّجه بقوات من المارينز (Marines) من نابولي إلى بيروت. (كان كميل شمعون طلب مثل هذا التدّخل الأميركي في لبنان سابقاً، لكنّ الولايات المتّحدة لم تستجب إلى طلبه إلاّ عندما حدث الانقلاب في العراق.)

كان معنا على متن الباخرة رجل يعمل في وزارة الخارجيّة الفرنسيّة، فعلّق على الخبر قائلاً: «قد يصبح الآن لعبد الناصر في العالم العربي من له قدرة أن ينافسه على الزعامة.»

وصلنا أخيراً إلى بيروت، فوجدت أخي منير ينتظرني وحده على رصيف المرفأ. قال لي: «أسرع بمعاملاتك حتى نتوجّه إلى بحمدون فوراً لأن الحالة في بيروت لا تطاق.» مررنا ونحن في طريقنا إلى بحمدون بأعداد من المسلّحين لم يوقفنا أحد منهم. وتوقّفنا بضع دقائق في عاريّا لنشاهد طليعة سفن الأسطول السادس تتقدّم نحو بيروت. بقيت أسبوعين تقريباً في بحمدون دون النزول إلى بيروت. أستمع أنا وأهلي للأخبار فلا نفهم شيئاً. ونجلس على شرفة الطابق الثاني من بيتنا لنراقب بيروت والسفن الأميركيّة التي تبدو وكأنّها نقاط في البحر، فلا نرى شيئاً يحدث. الطائرات الأميركيّة تنطلق من حاملاتها أحياناً باتّجاه الجبل، وتقوم بألعاب بهلوانيّة في الجوّ، ثمّ تعود أدراجها: سقطت منها واحدة مرّة في الوادي بين بحمدون المحطّة ورأس المتن وذهبنا لمشاهدتها، فوجدناها حطاماً، ولا أثر ظاهر للطيّار فيها.

كانت وداد، ابنة عمّتي وديعة، تعيش مع زوجها وأولادها في حمّانا، على بعد عشرة كيلومترات تقريباً من بحمدون. جاءت مرّة لتزورنا، فأخبرتنا أن لها جاراً، وهو قسّيس أميركي، يبدو وكأنه يعلم بالغيب: يخبرها عن كلّ الأمور قبل أن تحدث. يقول لها اليوم أن الأسطول الأميركي لم يأتِ إلى بيروت ليُبقي كميل شمعون في الحكم، كما يتصوّر الناس. طبعاً، سوف يُبقي شمعون رئيساً للجمهوريّة حتى آخر دقيقة من ولايته التي تنتهي في ٢٣ أيلول. لكنّ البرلمان سوف يلتئم في تلك الأثناء، بحماية أميركيّة، لانتخاب الجنرال فؤاد شهاب (قائد الجيش) رئيساً جديداً للجمهوريّة. وسوف يُطلب من فؤاد شهاب، فور تسلّمه الحكم، أن يعيّن رشيد كرامي (قائد الثورة في طرابلس) رئيساً للوزارة، ليكون الدور بعده لصائب سلام (قائد الثورة في الأحياء الإسلاميّة من بيروت). قالت أخيراً: «هذا ما سوف يفعله الأميركيّون، انتظروا فترَون (انطُرُو بِتْشُوفُو)».

١٢

ثور خارج القطيع

عدت إلى عملي في مكتبة الجامعة الأميركيّة في أوائل آب ١٩٥٨، والمواصلات بين بيروت والجبل ما زالت صعبة بسبب الأحداث، فسكنت في غرفة بالطابق الرابع من مبنى «كولدج هول» أقضي فيها أيّام الأسبوع، وأرى من نافذتها سفن الأسطول السادس الأميركي راسية في البحر. جاء عفيف تلحوق ليزورني في الجامعة مرّة، وكان يعمل آنذاك في السفارة الأميركيّة، فأخبرني أنّ الموظّفين اللبنانيّين في السفارة كانوا يعاملون بكامل الاحترام إلى الدقيقة التي بدأ فيها الأسطول السادس يتحرّك من نابولي باتّجاه بيروت، فصاروا يعاملون كالخدم، وتُصدر إليهم الأوامر للتنفيذ. فكّر قليلاً ثمّ أضاف: «أتظنّ يا كمال أننا نعود إلى عهد انتداب؟»

كنت يوماً أتناول الغداء في مطعم فيصل عندما جاءني أحد طلاّبي ليتحدّث معي عن همومه وهموم رفاقه من الطلاّب اللبنانيّين في

الجامعة (أكثريّتهم من المسيحيّين). لبنان في رأيه، وفي رأي رفاقه، يتعرّض لهجوم وقح وشرس يجب الوقوف في وجهه. وافقته على رأيه وتذكّرت ما قاله لي صديقي بيتر أيمري عندما عبّرت له عن مثل هذا الرأي وأنا في لندن: I do not see you doing anything about it. ثمّ أخبرني ما يأتي:

عندما أبرمت الوحدة بين سوريّا ومصر، قام الطلّاب القوميّون العرب في الجامعة بمظاهرة يهتفون فيها: «الشعب اللبناني الثائر بدّو الوحدة عاجل عاجل». وكان فريق من الطلّاب والطالبات اللبنانيّين يقوم في ذلك اليوم بجمع التبرّعات السنويّة للصليب الأحمر اللبناني عند مدخل الجامعة، فهجم المتظاهرون على صندوق التبرّعات الذي يحمل شارة الصليب الأحمر محاولين تكسيره، واصطدموا مع الطلّاب اللبنانيّين الذين حوله. تنادى الطلّاب اللبنانيّون المستاؤون في ذلك اليوم إلى عقد اجتماع تقرّر فيه تأسيس جمعيّة تسمّى «رابطة الطلّاب اللبنانيّة»، تقف في وجه التيّار المعادي للبنان في الجامعة. ثمّ تنادوا إلى عقد اجتماع ثانٍ، في قاعة نادٍ رياضي بجوار المنارة، حيث انتخب للرابطة رئيس وهيئة إداريّة. وكان الأستاذ المشرف على هذا الاجتماع الدكتور أنيس فريحة، فاقترح على أعضاء الهيئة الإداريّة المنتخبة أن يطلبوا منّي أن أكون مستشارهم بدلاً منه، فور عودتي من لندن، لكوني شابّاً أقرب إليهم سنّاً.

وافقت على الفكرة: الهجوم العربي المركّز على لبنان هو في منتهى الخطورة، والتصدّي له على أرض الجامعة بالتحديد ضروري، لكون ما يجري في الجامعة مقياساً لما يجري في

البلاد، وأخبار التحرّكات السياسيّة فيها كثيراً ما تملأ الصحف. تكاد لا تسير مظاهرة تندّد بلبنان في شوارع بيروت إلاّ ويكون مصدرها الجامعة. هذا الأمر يجب أن يتوقّف، وأنا مستعدّ من هذه الناحية للقيام بما يمليه عليّ ضميري من واجب. لدينا، على كلّ حال، شهران بعدُ من الصيف للبحث في ما يجب عمله عندما يبتدىء الفصل الدراسي في الخريف.

التأم المجلس النيابي بعد حين وانتخب الجنرال فؤاد شهاب خلفاً لكميل شمعون، يتسلّم منه رئاسة الجمهوريّة في ٢٣ أيلول. وما إن أصبح فؤاد شهاب رئيساً للجمهوريّة حتى عيّن رشيد كرامي رئيساً للوزارة (كما تنبّأ القسّ الأميركي صديق ابنة عمتي وداد في حمّانا). وأعلن رشيد كرامي، فور أن انتهى من تأليف الوزارة، أنّ حكومته تنوي «قطف ثمار الثورة». ثمّ اختُطف فؤاد حدّاد الذي كان يكتب المقالات الحماسيّة في جريدة «العمل» الكتائبيّة تحت اسم «أبو الجِن»، وقام حزب الكتائب على الأثر بقيادة «الثورة المضادّة» التي انتهت بإعادة تشكيل وزارة رشيد كرامي بشكل يرضي الطرفين في النزاع، على أساس «لا غالب ولا مغلوب».

كنت التقي في تلك الأثناء مارون كسرواني، أحد الطلاّب الناشطين في الرابطة. (كنت التقيت به مرّة أو مرّتين سابقاً في قاعة الرياضة قرب ملاعب الجامعة.) وجدته أفضل من يمكن الاعتماد عليه من أعضاء الرابطة الذين التقيتهم في ذلك الصيف، فصرنا نجتمع يوميّاً لتبادل الآراء في ما يجب عمله عندما يحين الوقت. ويجتمع معنا أحياناً صديقه نزيه زيدان، من «حارة صيدا»، عندما يكون في بيروت. قلت لمارون مرّة أنّي اعتبر نفسي عربيّاً، لكنّ الظروف القائمة تقضي

بأن نتنكّر للعروبة طالما أن النوع الرائج منها يهدّد استمرار لبنان في الوجود كوطن سيّد حرّ له ميزاته الخاصّة في العالم العربي. ووافقني على هذا الرأي. أبديت له استيائي من انتخاب فؤاد شهاب خلفاً لكميل شمعون في رئاسة الجمهوريّة، إذ كنت اعتبر شمعون بطلاً وطنيّاً خذله فؤاد شهاب عندما رفض مساعدته في قمع الثورة، وهو قائد الجيش، بحجّة أنّ الجيش لا بدّ أن ينقسم طائفيّاً إذا ما زُجّ في نزاع بين المسلمين والمسيحيّين في البلاد. لكنّ رأي مارون كان غير ذلك، وأقنعني به: لعلّ فؤاد شهاب، وهو من سلالة الأمراء الشهابيّين والمعنيّين الذين حكموا جبل لبنان حتى أواسط القرن التاسع عشر، لا يقلّ وطنيّة عن كميل شمعون. وربّما كان حكيماً عندما لم يلبِّ طلب شمعون بزجّ الجيش في الصراع السياسي القائم. شمعون صاحب مواقف يشكر عليها، وله دربة في السياسة. لكنْ، فؤاد شهاب يفهم لبنان عن طريق الجيش الذي تتمثّل فيه جميع قطاعات الشعب اللبناني، سواء من الناحية الطائفيّة أو الجغرافيّة والاجتماعيّة. وقد يساعده هذا الفهم الشامل للبنان على ضبط الأوضاع في البلاد. وهو الآن، على كلّ حال، رئيس منتخب للجمهوريّة، وعلينا أن نواليه إلى أن يتبيّن منه ما يستوجب المعارضة، في حال حصل ذلك.

اقترح مارون أن يكون أوّل عمل تقوم به الرابطة هو الاحتفال بعيد استقلال لبنان في ٢٢ تشرين الثاني، وهو العيد الذي كاد يكون منسيّاً. (أصبح هذا العيد، ابتداءً بتلك السنة، عيد الرابطة، نقيم بمناسبته احتفالاً فخماً ندعو إليه كبار رجال الدولة، فيلبّون الدعوة.) ثمّ أخذنا نتساءل: وماذا بعد ذلك؟ فهمت من قادة الرابطة أنّ عدد أعضائها لا يتجاوز الثلاثمائة أو الثلاثمائة والخمسين، وأنّنا لن نجد بين هؤلاء أكثر من

عشر أو خمسة عشر شاباً يُعتمد عليهم عند الحاجة. وجدت هذا العدد كافياً للقيام بالمهمّة المحدّدة التي أخذناها على عاتقنا. نحن لن نسعى لمنافسة الأحزاب القوميّة العربيّة في الانتخابات الطلاّبيّة، وليسيطروا على كلّ ما في الجامعة من جمعيّات إذا أرادوا. جلّ ما سوف نسعى إليه هو إيقافهم عند حدّهم إذا تجرّأوا على المساس بكرامة لبنان. إذا قاموا بمظاهرة، مثلاً، نحاول إيقافهم بالقوّة إذا لزم الأمر. نَفشل، طبعاً، لقلّة أعدادنا، لكنّا في الوقت ذاته نُفشل المظاهرة، وما المقصود منها إلاّ أن تظهر للعالم أنّ طلاب الجامعة الأميركيّة مجمعون، دون استثناء، على أنّ «الشعب اللبناني الثائر يدّو الوحدة عاجل عاجل»، وما عاد يطيق ما يتمتّع به من سيادة واستقلال دقيقة واحدة. (جرّب شباب الرابطة إفشال أوّل مظاهرة نظّمت بمناسبة الذكرى السنويّة الأولى لقيام الجمهوريّة العربيّة المتّحدة في ٢٢ شباط ١٩٥٩، بالهجوم عليها، فنجحوا، وحاولوا إفشال مظاهرة مماثلة عام ١٩٦٠ قبل انطلاقها، فنجحوا أيضاً. ولم يعد للرابطة مشكلة في مواجهة المظاهرات وغيرها من التحرّكات العلنيّة المسيئة للبنان في السنوات اللاحقة.)

هذا الموقف البسيط وغير المتفلسف للرابطة لقي تجاوباً ليس فقط بين الأساتذة اللبنانيّين في الجامعة، بل أيضاً بين الموظّفين فيها، كبارهم وصغارهم، بمن فيهم العمال. هؤلاء كانوا ينقلون إلينا الأخبار عن كلّ ما يحدث وكلّ ما يُتوقّع حدوثه. الجامعة لم تعترف بوجود الرابطة كجمعيّة طلاّبيّة لها الحقّ في العمل على أرضها، فحصلنا لها على الاعتراف من الدولة عن طريق العلم والخبر، وجعلنا مكتب الرابطة الرسمي خارج الجامعة. إدارة الجامعة تقيم العلاقات مع ممثّلي الأحزاب القوميّة العربيّة واليساريّة وتلتقي بهم باستمرار، فتأتينا

المعلومات الكاملة عن هذه اللقاءات. ونحن لا سبب لنا لأن نلتقي بأحد، فلا يُعرف عن دخائلنا شيء. هذا كان سرّ الرابطة، وهو أننا أصبحنا، في وقت قصير، منتهى الأخبار في الجامعة: لا يحصل شيء فيها أو حولها إلاّ ونعرف عنه – بل وعن أدقّ تفاصيله – مسبقاً. (قرأت مرّة تقريراً سرّياً أُرسله زميل لي إلى إدارة الجامعة يصفني بأنّي maverick، أي «ثور خارج القطيع».)

قبلت الجامعة الأميركيّة بنشر أطروحتي عن المؤرّخين الموارنة التقليديّين في جملة منشوراتها، فأعدت كتابة الأطروحة وصدرت عام ١٩٥٩ ككتاب يحمل عنوان Maronite Historians of Medieval Lebanon. لم تقبل «المطبعة الكاثوليكيّة» التابعة للجامعة اليسوعيّة طبع الكتاب قبل أن أحصل على إذن «لا مانع» (nihil obstat) من بطريرك الموارنة بولس المعوشي شخصيّاً. فكانت تلك مناسبة لي للتعرّف على هذا الرجل الفريد من نوعه. سألني: «يا ابني، هل أنت كاهن ماروني؟» أجبته بأني علماني وبروتستانتي. فقال لي: «إذَنْ، اذهب إلى أصحابك الرهبان اليسوعيّين وقل لهم عن لساني أنهّم أغبياء. إذَن nihil obstat من البطريرك الماروني لا يلزم لطباعة كتاب إلاّ إذا كان مؤلّفه كاهناً مارونيّاً. فاكتب ما شئت عنّا واطبع ما شئت.» ثمّ أضاف: «أتريد أن تعرف كيف أنا أفهم تاريخ الموارنة؟ نحن شعب مُخّه يابس مثل صخور هذا الجبل، وما تاريخنا إلاّ قرون من معاندة الدهر.»

كنت كتبت سابقاً مقالين بالفرنسيّة لجريدة «لوريان» (L'Orient) أبيّن فيها انعدام التواصل التاريخي المفترض بين لبنان الحديث وفينيقيا القديمة، وكيف أن تاريخ لبنان كان منطلقه في القرون الأولى

بعد الإسلام، وليس في وقت سابق. ولا شكّ أن هذين المقالين لم يعجبا أصحاب المقولة الفينيقيّة بشأن لبنان وقِدَم تاريخه. وبعد صدور كتابي عن المؤرّخين الموارنة جاء ميشال أسمر، مؤسّس «الندوة اللبنانيّة» (Cénacle Libanais)، لزيارتي في الجامعة ودعاني إلى محاضرة في الندوة، أجلسني فيها في الكرسي الأوسط من الصفّ الأمامي بين نخبة من وجهاء البلد كنت أسمع بأسمائهم منذ سنين، ولا أتصوّر أنه سيأتي يوم أكون جالساً بينهم. عرّفني إليهم بعد أن انتهت المحاضرة، فأحاطوا بي وأخذوا يتبارون في مديحي. جفلت من ذلك، إذ اعتراني شعور (وربمّا كنت مخطئاً) بأنّهم يحاولون احتوائي ليجعلوني أكتب ما يريدون، أو في الأقلّ أحجم عن كتابة ما لا يريدون. لم أداوم بعد ذلك على محاضرات الندوة، لكنّي بقيت أتردّد على ميشال أسمر في مكتبه، إذ وجدت العمل الذي تقوم به الندوة في غاية الذكاء. تأسّست الندوة عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٧ لتوفّر الغطاء الفكري للكيان اللبناني ومنبراً لكلّ مَن عنده شيء يقوله في شأن البلد، ربمّا (وليس بالضروري) لاحتوائه. لكنْ لا بأس بمثل هذه الطريقة المتمدّنة للاحتواء.

سألني ميشال أسمر عندما زارني لأوّل مرّة في الجامعة عن أهداف رابطة الطلاّب اللبنانيّة، فشرحتها له. كان رأيه أن كثرة التشديد على لبنانيّة لبنان قد تصبح مضرّة بمصلحة البلد على المدى الطويل، لكنْ قد تكون شهادة (témoignage) واضحة للبنان في مكان مثل الجامعة الأميركيّة ضروريّة في الظروف الحاضرة.

دعانا ميشال أسمر لاحقاً، أنا ومارون كسرواني، لنتعرّف على السيّد موسى الصدر: شاب وسيم ربمّا في أوائل الثلاثينات من العمر، يرتدي العباءة ويتدلّى شعره على أعلى جبينه من تحت عمامته السوداء. يتكلّم

الفصيحة، وفي كلامه بالعربيّة لكنة إيرانيّة جذّابة. تحدّث معنا عن مستقبل لبنان كوطن يثريه تعدّد طوائفه: يضمن الحريّات لجميعها بالتساوي في عيش وطني مشترك يكون مثالاً للعالم. كان موسى الصدر وصل حديثاً من إيران ليستقرّ في لبنان، ومن الناس من بدأ يتحدّث عنه ويمتدح مزاياه. طلب منّا ميشال أسمر أن نعرّف موسى الصدر إلى مجتمع رأس بيروت، فدعوناه ليلقي محاضرة عن تصوّره لمستقبل لبنان في نادي خرّيجي الجامعة الأميركيّة، حيث اكتظّت قاعة الاجتماعات بالحضور. دعوناه مرّة ثانية لإلقاء محاضرة عن مفهومه للإسلام في قاعة الاجتماعات الكبرى بالجامعة (Assembly Hall)، وهي التي كانت أصلاً كنيسة الجامعة (Chapel)، فلم يكن بين جمهور الحاضرين هناك من لم يُسحر به وبكلامه.

بدأت تتّضح آنذاك في ذهني رؤية لمستقبل لبنان: يذهب الجيل المنقسم طائفيّاً حول مسألة الولاء للوطن المشترك، ويحلّ مكانه جيل لا يعرف إلاّ لبنان وطناً، ولا ولاء له إلاّ لهذا الوطن، وبالإجماع، فلا يعود لبنان بحاجة إلى فريق من طائفة معّينة يقف حامياً لكيانه. قلتُ رأيي هذا مرّة لمستشرق فرنسي من معارفي، كان يعمل مستشاراً بالسفارة الفرنسيّة في بيروت، فخالفني الرأي قائلاً إنّ لبنان إمّا أن يبقى مسيحي الطابع أو لا يكون.

(كانت زوجة هذا المستشرق الفرنسي تقوم بدراسة أنثروبولوجيّة للمآكل في المناطق المختلفة من بلاد الشام. وفي رأيها أن الكبّة، من هذه المآكل، تمثّل اللقاء في هذه المناطق بين البادية والريف: اللحم فيها يأتي من البادية، والبرغل من الريف، فيدقّ الاثنان معاً بالمدقّة في جرن واحد. رسمت لي خريطة للشريط الجغرافي حيث انتشار الكبّة:

يبتدىء هذا الشريط في الموصل، ويتبع حاضرات الهلال الخصيب، مروراً بحلب والمرتفعات الساحليّة من بلاد الشام، إلى أن ينتهي عند حيفا ومرج ابن عامر، حيث الحدود الجغرافيّة بين الجليل وفلسطين.)

في ربيع ١٩٦٠ دعاني عفيف تلحوق لأشاهد ما يحدث سنوياً يوم عيد الفصح، منذ عام ١٨٦١، في ميدان حيّ المشايخ بعاليْه. تجمّع الرجال والشباب من آل تلحوق في الميدان قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، يتصدّرهم الشيخ محمود تلحوق (عّم عفيف)، كبير العائلة. وبعد ربع ساعة تقريباً وصل فريق من رهبان «دير الشير» إلى الميدان (والدير المذكور لطائفة الروم الكاثوليك، وموقعه أسفل عاليْه من ناحية الغرب، وقد ورد ذكره سابقاً). كان الرهبان يحملون هدايا من البيض الملوّن، و«كعك العيد» المصنوع من الدقيق والسكّر والسمن والحليب والمختوم برموز مسيحيّة. استقبل الشيخ محمود الرهبان وقَبِل منهم ما جاءوا به من هدايا. ثمّ أخذ الرهبان يتبادلون التحيّات مع سائر أفراد العائلة، وكأنهم أقارب. كان على آل تلحوق أن يردّوا الزيارة للرهبان في اليوم التالي، فذهبت إلى دير الشير لأشاهد ما يحدث: وصل آل تلحوق إلى الدير يتقدّمهم الشيخ محمود، فأخذه الرهبان وأجلسوه على الكرسي المخصّص للمطران في قاعة الدير قبل أن يقوموا بواجبات الضيافة.

هذه كانت المرّة المائة التي يُجلس فيها كبير آل تلحوق على كرسيّ المطران في دير الشير: الأولى كانت عام ١٨٦١ عندما جاء رهبان الدير في أحد الفصح ليشكروا الشيخ حسين الكبير، جدّ الشيخ

محمود، على حمايته للدير خلال أحداث العام السابق، فردّ لهم الزيارة في اليوم التالي. (كان الرهبان طلبوا من الشيخ حسين أن يوفّر الحماية لديرهم، فربط فرسه عند بابه، على ما يقال، وكان ذلك كافياً. ويُروى أن الشيخ حسين وصف أحداث ١٨٦٠ بين النصارى والدروز في جبل لبنان قبل بدايتها بأنها ستكون حرباً «يلّي بيخسرها خسران ويلّي بيربحها خسران».)

درجت الأغاني في بداية عهد فؤاد شهاب عن «الضيعة» (أي القرية اللبنانيّة)، ومحاسنها، والحنين إليها: أغانٍ جميلة الألحان، لكنّ الصور الشعريّة فيها تبدو لي (وأنا الذي نشأت في القرية) مصطنعة أحياناً. قال لي صديقي وزميلي يوسف إيبش مرّة، «تأمّل ذكاء فؤاد شهاب: جاء بكبار المغنّين في البلاد، على اختلاف مللهم، ليغنّوا للّبنانيّين هذه الأغاني، فأنسوهم النزاعات التي كانت بينهم وأعادوهم إلى صفو العيش.»

كان عليّ أن أقوم بزيارة لأصدقاء في عيناب في صيف ١٩٥٩، فوجدت سيّارة في سوق بحمدون تقلّني إلى هناك. فهمت من السائق أنّه من قرية معاد، بجرود البترون، وسألته كيف صدف وصوله إلى بحمدون، فأجاب: «دواليب بْتُبْرُم وما بْتِترك شي بمحلُّه» (أي عجلات تدور ولا تُبقي شيئاً في مكانه). ثمّ علّق قائلاً: «يا إستاذ، ما تتصوّر إنه بعد في شي بلبنان اسمه ضيعة. هالدواليب بتبرم ويتنقل كلّ الناس عا بيروت، وراح تاخذ الباقي. بيهجرو الضيعة وبيروحو عا بيروت، ويعدَيْن بصيرو يغنّو عن الضيعة.»

بدأت في ذلك الوقت أدرّس تاريخ لبنان بالإضافة إلى المواد الأخرى التي كنت أدرّسها، بعد أن أقنعت دائرة التاريخ بضرورة إضافة هذا الموضوع إلى برنامجها التدريسي، لكون لبنان «البلد المضيف» (host country) للجامعة. وبدأت في الوقت ذاته أكتب سلسلة من المقالات بالإنكليزيّة استعرض فيها تاريخ المناطق المختلفة من لبنان في العصور الوسطى، نشر معظمها في مجلّة الاستشراق الفرنسي «أرابيكا» (Arabica) التي تنشر مقالات بالإنكليزيّة أحياناً. وما كادت أولى مقالاتي تصدر في «أرابيكا» حتى طُلب مني تأليف كتاب عن تاريخ لبنان الحديث لسلسلة عن تاريخ الدول الآسيويّة والإفريقيّة الحديثة تصدرها دار وايدنفلد ونيكلسون للنشر (Weidenfeld & Nicolson) بلندن. اضطرّني هذان المشروعان إلى التعرّف على كلّ منطقة من لبنان عن كثب، لكي أقف مباشرة وبأكثر قدر من الدقّة على طبيعتها وإحداثيّاتها، لكون التاريخ مستحيل الفهم بتجرّد عن جغرافيّة المكان. بدأت استأجر السيارات لزيارة الأماكن المختلفة: أتوقّف في كلّ مكان وأجول حوله مشياً لأختبر جميع مسالكه. ثمّ تعلّمت قيادة السيّارات، واشتريت سيّارة فولكسفاكن عام ١٩٦٢ (الأولى التي اقتنيتها) لأسهّل على نفسي التجوّل. (في ذلك العام توقّف برنامج الدراسات العربيّة في الجامعة، فانتقلت نهائياً من المكتبة إلى دائرة التاريخ.)

كتابة التاريخ سرداً هي غير كتابة البحث التاريخي، إذ على راوي التاريخ أن يصهر مجموعة هائلة من المعلومات المفصّلة في ذهنه حتى يتمكّن من الربط المبدئي بينها. وعليه بعد ذلك أن يجهد حدسه

ومخيّلته لتحويل المعلومات المترابطة في ذهنه وتبسيطها إلى قصّة تُروى. استصعبت ذلك في البداية، فلجأت إلى من يدربّني على مبادىء الرواية القصصيّة. وكان أوّل هؤلاء الأستاذ البريطاني كريستوفر سكايف (Christopher Scaife)، كبير أساتذة الأدب الإنكليزي في الجامعة. فهمت منه ومن غيره أن أصول الكتابة السليمة تقتضي أن تأتي كلّ فقرة ممّا يكتب تفصيلاً للجملة الأولى فيها، بحيث يصبح بإمكان القارىء أن يأخذ فكرة كاملة عن المقال، أو الفصل من الكتاب، إذا قرأ الجُمل الأولى من فقراته بالتتالي.

(صدر كتاب «تاريخ لبنان الحديث» بالإنكليزيّة عام ١٩٦٥، ثمّ بالعربيّة عن «دار النهار للنشر» عام ١٩٦٧. تعمّدت عندما بدأت كتابته أن أتنكّر لميولي وأحكامي المسبقة وأركّز على الموضوع، فكانت النتيجة القبول العام بالكتاب. زكي النقّاش وحده بادر إلى مهاجمته في الصحف، بل ونشر كتاباً كاملاً يفنّد كلّ جملة فيه ليبرهن كيف أن الكتاب، إذا قُرىء ما بين سطوره، يكرّس التزوير المسيحي الخبيث للتاريخ اللبناني. ولعلّ استمرار زكي النقّاش في مهاجمة كلّ ما أكتب عن لبنان كان نافعاً لي: يبحث عن الزلاّت، فيجعلني أجتنبها وألوذ أكثر فأكثر بالموضوعيّة. والواقع أنّي كنت أوافق زكي النقّاش رأيه بأنّ المسيحيّين زوّروا تاريخ لبنان. وهو سمع ذلك منّي مراراً، إذ كثيراً ما كنّا نلتقي ونتحدّث في الموضوع).

استلمت رسالة من غوستاف فون غرونباوم (Gustave von Grunebaum)، رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجيليس (UCLA)، يعرض عليّ منصب «أستاذ مشارك» (Associate Professor) هناك، مع وعد بترقية سريعة إلى درجة

«أستاذ» (Professor)، فاعتذرت عن قبول العرض. قلت ذلك لزميلي وصديقي مالكولم كير (Malcolm Kerr) – وهو الذي أصبح عام ١٩٨٢ رئيساً للجامعة الأميركيّة في بيروت إلى أن قُتل عام ١٩٨٤ – فاعتبرني مجنوناً. ثمّ سألني إذا كنت أسمح له بتقديم طلب للمنصب الذي اعتذرت عن قبوله، فقلت له أنّ من الطبيعي ألاّ أُمانع في ذلك، علماً بأنّ لا نيّة عندي إطلاقاً بمغادرة بيروت والرحيل إلى الولايات المتّحدة. فتقدّم مالكولم كير بطلبه، وقُبل: التحق بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجيليس في العام التالي، وبقي هناك إلى أن عاد إلى بيروت رئيساً للجامعة.

دُعيت إلى جامعة شيكاغو لحضور أوّل مؤتمر دولي يعقد عن لبنان (أيّار ١٩٦٣). رافقتني أختي سنيّة في الرحلة، فتوقّفنا بضعة أيّام في نيويورك، ذهبنا خلالها لزيارة عمّتي سليمة وسائر المغتربين من أقاربنا في ولاية ساوث كارولَيْنا. (بدا لنا أقاربنا هناك وكأنهم تحجّروا في اللحظة التي غادروا فيها جبل لبنان في العقد الأوّل من القرن، وهكذا بقوا، جيلاً بعد جيل. ولو لم يهاجروا لربّما كانوا تطوّروا، كما تطوّرنا نحن، ليصبحوا أناساً عاديّين.) ذهبنا بعد ذلك إلى شيكاغو حيث لاقانا أخي بهيج في المطار وأخذنا لنقضي معه ومع عائلته بضعة أيّام في بلدة مارشفيلد بولاية ويسكونسين. ثمّ ذهبت إلى شيكاغو لحضور المؤتمر.

أهمّ ما سمعته هناك هو الكلام المرتجل الذي قاله إدوارد شيلس (Edward Shils)، أستاذ السوسيولوجيا في جامعة شيكاغو، بعد العشاء الافتتاحي للمؤتمر. وصف لبنان بأنّه نموذج فذّ من العيش الديمقراطي وممارسة الحرّيات في الشرق الأوسط: نظامه في توزيع المقاعد النيابيّة والمناصب الحكوميّة

والوظائف الإداريّة بين الطوائف متلائم مع تركيبة شعبه، لا ينقصه إلاّ بعض التعديلات الطفيفة، هنا أو هناك، وحكّامه عقلاء وبعيدون، على وجه العموم، عن التطرّف. لكنْ دِقّة تركيب لبنان من الناحيتين، الاجتماعيّة والسياسيّة، تفترض بل وتستوجب وجوده في محيط هادئ، لا أمواج فيه. والواقع أنّه موجود في محيط هائج وعاصف، ولا غنى له عن هذا المحيط لأسباب وأسباب. وهو لذلك معرّض لأمواج عاتية قد تطيح يوماً به أو في الأقلّ بنظامه. (قال الأستاذ شيلس ما قاله عن لبنان من منطلق سوسيولوجي نظري بحت، وبناءً على ما لديه من معلومات قرأها عن البلد، وهو الذي لم يزره مرّة واحدة.)

(قضيت شهرين من صيف ١٩٦٣ في مزرعة الجامعة بحوش السنيد، في سهل بعلبك، حيث كان زميلي ديمتري برامكي، أستاذ علم الآثار، يقوم بمشروع تنقيب في مكان بمحاذاة المزرعة يسمّى «تلّ الغسيل». والذين يعملون معه في التنقيب رجال ونساء من القرى المجاورة، والعدد الأكبر منهم من قرية الخضر، على الطرف الشرقي من السهل. دعوني لزيارة قريتهم، فصرت أتردّد عليها، وهي آنذاك من القرى المنسيّة في تلك المنطقة. ومن أبناء القرية مَن صار يرافقني في جولات بالسيّارة تعرّفت فيها على جميع القرى في سلسلة الجبال الشرقيّة من لبنان. ويبدو أنّ أهالي الخضر أَنِسوا لي، ربّما لكوني في الأصل ابن عشيرة مثلهم، ويسهل عليّ فهم تقاليدهم وعاداتهم. كنت أقوم بزيارة أحدهم مرّة، فطرب لحديثي إلى حدّ جعله يصارحني بالقول: «واللّه يا دَكْتَور شهّيتنا النار.»)

انعقد مؤتمر ثانٍ في جامعة شيكاغو في أيلول ١٩٦٦ عن بداية التحديث في الشرق الأوسط ابتداءً من عهد «التنظيمات الخيريّة» التي حوّلت الدولة العثمانيّة التقليديّة، بين ١٨٣٩ و١٨٧٦، إلى دولة تتّبع النظم الأوروبيّة الحديثة. دعيت للاشتراك في هذا المؤتمر لأقدّم فيه بحثاً عن بداية التحديث في لبنان. وكنت سئمت الكتابة في الموضوع اللبناني، ففضّلت أن يكون بحثي في موضوع آخر. تذكّرت أنّي ذهبت مرّة إلى دمشق عام ١٩٥٥، بصحبة وليد الخالدي، لنصوّر مخطوطات من المكتبة الظاهريّة على ميكروفيلم: هو يبحث هناك عن مؤلفات لعبد الغني النابلسي لم تطبع بعد، وأنا أبحث عن مخطوطات تهمّ برنامج الدراسات العربيّة في الجامعة. عثرت آنذاك على مذكّرات مخطوطة لمحمّد أبو السعود الحسيبي، من أعيان دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يصف فيها ما شاهده يوم حصل الهجوم في دمشق على حيّ النصارى بالمدينة عام ١٨٦٠، ويتحدّث عن الطريقة التي استغلّت فيها الدولة العثمانيّة هذا الحدث لتفرض التنظيمات على ولاية دمشق. قرّرت أن يكون البحث الذي أقدّمه للمؤتمر عن مذكّرات الحسيبي الموجودة في مكتبة الجامعة الأميركيّة على ميكروفلم.

اضطررت إلى زيارة دمشق عدّة مرّات وأنا أقوم بهذا البحث لأتعرّف على الأحياء القديمة فيها. وكانت هذه الأحياء ما زالت قائمة عام ١٩٦٦. وجدت بيت الحسيبي في حيّ «القنوات»، وأحفاده (على ما أذكر) مقيمون فيه. ومن هناك تتبّعت خطواته، تماماً كما يصفها في مذكّراته، من مكان إلى آخر حتى وصوله إلى مدخل حيّ النصارى في الوقت الذي حصل الهجوم عليه. ثمّ تتبّعت خطواته في طريق عودته من حيّ النصارى، وتحقّقت من المكان الذي امتثل فيه أمام وزير الخارجيّة

العثماني فؤاد باشا، ومن المكان الذي أُوقف فيه قبل محاكمته، وحيث التقى بأحد المحكوم عليهم بالإعدام قبل دقائق من إعدامه شنقاً وقرأ له الأوراد. وبعد أن تحقّقت من كلّ موقع يذكره الحسيني في مذكّراته، سواءً بالنسبة إلى ما حدث يوم الهجوم على حيّ النصارى، أو ما حدث بعده، كتبت المقال. وما زلت أعتبره من أدقّ الأبحاث التي كتبتها.

قرأت المقال في المؤتمر، فكان التعليق عليه أنّه «أنيق» (elegant)، وفهمت من ذلك أنّ المستمعين استخفّوا به لكونه لا يحتوي على عبارة واحدة لا يفهمها الإنسان العادي. وكان بين الحاضرين ارجمنت كوران Ercüment Kuran، وهو أستاذ تركي من جامعة أنقرة تعرّفت إليه في لندن عام ١٩٥٨. كان عليّ أن التحق بجامعة هارفَرد كأستاذ زائر (Visiting Professor) في ذلك العام الدراسي، فاضطررت إلى مغادرة شيكاغو قبل يوم من نهاية المؤتمر. إرجمنت كوران في جامعة هارفَرد وهو في طريق عودته إلى أنقرة، فقال لي: «مشكلتك أنّك تكتب ببساطة عن أمور معقّدة، فتعطي الانطباع بأنّ ما تكتبه سطحيّ. عُدنا إلى قراءة مقالك بعد أن غادرت شيكاغو، فوجدنا أنّه ليس سطحيّاً إطلاقاً، بل فقط يبدو سطحيّاً لأنّك لا تستعمل فيه عبارة واحدة معقّدة. والواقع أنّنا استفدنا كثيراً منه عندما قرأته في المؤتمر دون أن ندري. أرجوك أن تستمرّ في الكتابة على هذه الطريقة السهلة التي تُفهم أبسط الناس، وليقل المتفلسفون عنك ما يريدون.»

قضيت ذلك العام في جامعة هارفَرد أدرّس فيها مادّة تاريخ الشرق الأوسط، وأُلهي زملائي بكتابة قصائد بالإنكليزيّة أعبّر فيها عن الأسف، مثلاً، لوعكة صحية ألمّت بالزميلة آن ماري

شيمّل (Annemarie Schimmel)، أو أهنّيء إدارة جامعة هارفَرد لاختيارها بْرِندا (Brenda) خليفة لبَتسي (Betsy) كسكرتيرة لمركز دراسات الشرق الأوسط (Middle East Center). كان مسكني ذلك العام في شقّة بمبنى كيركلاند هاوس (Kirkland House) للطلاّب الداخليّين. وهناك تعرّفت على طالب أميركي أردني الأصل اسمه شارلز أَجلَت (Charles Ajalat)، تحويلاً عن الأصل العربي الذي هو خليل عجيلات، اسم جدّه. (هاجر أبو شارلز إلى الولايات المتّحدة من بلدة مادبا في بداية شبابه ليستقرّ في كاليفورنيا، فدرس الطبّ هناك وصار يعمل طبيباً.) كان شارلز يواظب على حضور القدّاس كلّ يوم أحد في كنيسة الروم الأرثوذكس بحيّ روكسبري (Roxbury) بمدينة بوسطُن (Boston)، واصطحبني مرّة لحضور القدّاس في هذه الكنيسة والتعرّف إلى الجالية العربيّة المسيحيّة بالمدينة، ومعظمهم لبنانيّ الأصل. هناك شاهدت نموذجاً آخرَ من العرب الذين توقّف نموّهم منذ اللحظة التي وطأوا فيها – هم أو آباؤهم أو أجدادهم – أرض أميركا. (الشيء الوحيد الذي يبقى نامياً فيهم، على ما لاحظت، هو الأنف: يضطرد نموّاً بينهم، رجالاً ونساءً، من جيل إلى جيل، وعبثاً حاولت أن أفهم السبب.)

دخلت القاعة المعيّنة لي للتدريس في الطابق الأرضي من «هارفَرد هول» (Harvard Hall) لألتقي بطلاّبي (والطالبات بينهم من كلّية رادكليف Radcliffe College الخاصّة بالبنات). وبدأت أرسم خريطة الشرق الأوسط على اللوح الأسود تمهيداً لمحاضرتي الأولى عن جغرافيّة المنطقة. وإذا بأربعة شبّان يدخلون القاعة بما يشبه المشية العسكريّة، ويدوسون الأرض الخشبيّة للقاعة بجزماتهم بقوّة، ويقصد

الإزعاج. جلسوا على المقاعد الخلفيّة من القاعة رافعين أرجلهم على المقاعد الفارغة التي أمامهم، وأخذوا يتبادلون الملاحظات السلبيّة عنّي بهمس مسموع، والواضح أنّهم يفعلون ذلك عمداً. توقّفت قليلاً قبل أن أبدأ بالمحاضرة، فهدأوا. ثمّ أخذت اتكلّم عن السمات السطحيّة (topography) للمنطقة (الهضاب والأودية منها، والأنهار، والسواحل، والمسالك الطبيعيّة، الخ.) وما كانت إلاّ دقائق حتى خرج الشبّان الأربعة من القاعة بالطريقة ذاتها التي دخلوا فيها، إلاّ أنّهم مرّوا هذه المرّة أمام المنصّة وهم يحدّقون في وجهي بوقاحة لم أعرف سببها إلى أن شرحه لي شارلز أجلَت لاحقاً. هؤلاء الشبّان من «رابطة الدفاع اليهودي» (Jewish Defence League): سمعوا عن وجودي بجامعة هارفَرد كأستاذ عربي زائر لتدريس تاريخ الشرق الأوسط، فجاءوا ليعلموني من الدرس الأوّل، وبطريقتهم الخاصّة، أنّي مراقب منهم.

ربمّا كان نصف الطلاّب الذين درّستهم في هارفَرد من الأميركيّين اليهود، ولم يكن لي مشكلة مع أحد منهم. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى اليهود من زملائي، سواءً في دائرة التاريخ ومركز دراسات الشرق الأوسط أو في كيركلاند هاوس. بل كثيراً ما كان الطلاّب اليهود في كيركلاند هاوس يقصدون الجلوس إلى طاولتي في قاعة الطعام، أو يأتون إلى مسكني لزيارتي والتحدّث معي. ومن هؤلاء جوناثان بورستين (Jonathan Boorstin) الذي طلب منّي أن أُشرف على الرسالة التي ينوي تحضيرها حول الوضع الاجتماعي في مصر في القرن الثامن عشر (كان جون من الطلاّب المتفوّقين، وهؤلاء يسمح لهم أن يقوموا في صفّ «السينيور» بكتابة رسالة في موضوع يختارونه، وتحت إشراف أستاذ يختارونه، بدلاً من متابعة المحاضرات.) والد

جوناثان هو دانيال بورستين (Daniel Boorstin)، أستاذ التاريخ الاجتماعي في جامعة شيكاغو، وله نظريّة فلسفيّة معروفة حول تاريخ الولايات المتّحدة مفادها أن الثورة الأميركيّة ليست حدثاً تاريخيّاً محدّداً، بل تغيُّر يحدث في نفسيّة الإنسان المهاجر إلى أميركا عند عبوره نقطة اللارجوع في المحيط الأطلسي. ولذلك تُوجز نظريّته بالقول: «الثورة الأميركيّة تحدث (في صيغة المضارع) في وسط الأطلسي» (The American Revolution happens in mid-Atlantic). (شرح لي هذه النظريّة عندما جاء مرّة إلى هارفَرد لزيارة ابنه.)

التحق طريف الخالدي (أخو أسامة الأصغر) ببرنامج الدكتوراه في جامعة شيكاغو للتخصّص في التاريخ الإسلامي في ذلك العام، والتحق مارون كسرواني ببرنامج الدكتوراه في جامعة إنديانا ببلومنغتون (Bloomington) للتخصّص في الإدارة العامة. وكان أخي بهيج يقيم في مارشفيلد بولاية ويسكونسين، كما سبق وذكرت، واذهب لزيارته هناك كلّما سنحت الفرصة، فأمرّ في طريق الذهاب أو العودة على طريف أو مارون، وأحلّ في شيكاغو ضيفاً على طريف، ومعه زوجته أمل وطفلاه محمّد علي وعليّة. التحى طريف بعد استقراره في شيكاغو. وأخبرني مارون أنّ أحد أصدقائه الموارنة كان ينوي الزواج في كنيسة كاثوليكيّة هناك، ولم يجد رجلاً ملتحياً يقرأ الإنجيل بالعربيّة في الكنيسة لهذه المناسبة، فطلب مارون من طريف القيام بهذه المهمّة. وأخذ الأميركيّون الذين حضروا الإكليل يتهامسون فيما بينهم ويقولون: لا بدّ أن هذا الرجل الملتحي هو

الكاهن الخاصّ (chaplain) بالجالية اللبنانيّة في شيكاغو (علماً بأن طريف هو سليل قضاة الشرع في القدس، من آل الديري الخالدي، منذ عهد المماليك).

عندما انتهيت من التدريس في هارفَرد في أواخر أيّار ١٩٦٧، ذهبت لأقضي أسبوعين مع أخي بهيج في ويسكونسين. مارغريت (Margaret)، زوجة أخي بهيج (وهي كنديّة)، لا تفارق الراديو: تبقيه معها في المطبخ وتنقله من غرفة إلى أخرى لتستمع إلى الموسيقى وتتابع الأخبار وهي تقوم بواجباتها المنزليّة. فكانت هي أوّل من أخبرنا باندلاع الحرب العربيّة – الإسرائيليّة الثالثة في ٥ حزيران. اذكر أنّه قيل لي في ذلك اليوم، أو في اليوم التالي: «الآن يجب أن تقرّر أن تبقى في هارفَرد، إذا عرضوا عليك البقاء.» فأجبت: «الآن يجب أن أقرّر أن أنتقل من بيروت إلى حمص لأعلّم في مدرسة الفيروزة، إذا لزم.» (فيروزة قرية بجوار حمص توقّفت مرّة لآكل البطيخ من حقولها وأنا في طريقي من دمشق إلى تدمر، وبقيت صورتها الجميلة عالقة في ذهني.)

كنت في منزل طريف وعائلته في شيكاغو، ومعنا مارون كسرواني، عندما زفّت الإذاعات الأميركيّة بُشرى انتصار إسرائيل في تلك الحرب واحتلالها كامل قطاع غزّة وسيناء (من مصر)، وكامل هضبة الجولان (من سورية)، وكامل الضفّة الغربيّة (آنذاك من الأردن) حيث «تحرّرت» مدينة القدس أخيراً وأعيد «توحيدها»، وكلّ ذلك خلال ستّة أيّام. خرجت أنا ومارون في اليوم التالي لنشاهد الجماهير في شوارع شيكاغو تبتهج بالانتصار الإسرائيلي وتشمت بهزيمة العرب وهي تصرخ: «اقتلوهم جميعاً، اقتلوهم جميعاً»

(Kill them all! Kill them all!). وأذكر أن مارون علّق على هذا المشهد قائلاً: «قدّيش الغرب ما بيفهم العرب. مساكين العرب» – جملتان توجزان مأساة العرب في تاريخهم الحديث، وربّما أيضاً مأساة الحضارة في العالم.

١٣

الطائر على السنديانة

كان صديقي يوسف إيبش أستاذاً زائراً بكلّية دارتموث (Dartmouth College) في العام الذي قضيته أنا بجامعة هارفَرد، فقرّر إبقاء زوجته جون وطفليه حسين وكريم في الولايات المتّحدة والعودة إلى بيروت بمفرده، ريثما تستقرّ الأوضاع في المنطقة. اقترح عليّ أن نترافق في طريق العودة إلى بيروت. وكان رأيه أنّ السرعة في العودة ليست ضروريّة، لكون مطار بيروت ما زال مقفلاً، فاتّفقنا على أن نتوقّف في أوروبا فنتعرّف على الأندلس، مثلاً، ونقوم بالتعّرف (أو إعادة التعّرف) بأماكن أخرى مثل روما وإسطنبول. توقّفنا أوّلاً ليوم أو يومين في لِشبونة، بالبرتغال، ثمّ توجّهنا إلى مدريد حيث قضينا عدّة أيام زرنا فيها طليطلة، وقضينا السهرات في مشاهدة رقص الفلامنكو (flamenco). بعد ذلك زرنا غرناطة حيث شاهدنا قصر الحمراء، وقِطَع الخزف في جدرانه مكتوب عليها: «ولا غالب إلاّ اللّه». قال لي يوسف، «تأمّل

عظمة الإسلام: تغلّب المسلمون في زمانهم على العالم فلم يتغطرسوا كما يتغطرس الذين يتحكّمون بمقادير العالم اليوم، ولم يقولوا غلبنا، بل قالوا ولا غالب إلاّ الله.»

توقّفنا بعد ذلك في روما، ثمّ في إسطنبول حيث زرنا قبور السلاطين من آل عثمان وترحّمنا عليهم. (كنت زرت إسطنبول قبلاً مع أمّي عام ١٩٦١: كانت ترغب برؤية «الباب العالي» وهي بعد قادرة على السفر، فأخذت قطعة من خشب الباب تبقيها معها وكأنها ذخيرة مقدّسة.) وأخيراً وصلنا إلى بيروت.

كنت أتوقّع أن نكون تعلّمنا درساً من الهزيمة التي منينا بها قبل أسابيع قليلة في حرب حزيران، فإذا بي أجد العكس: ما كادت الهزيمة تحلّ حتى بدأت تُوظّف في هجوم على كيان لبنان ونظامه، بدا لي أشدّ من الهجوم السابق، وكأن لبنان مسؤول – بل هو المسؤول، ولمجرّد كونه موجوداً – عن خسارة العرب للحرب. الأحزاب القوميّة العربيّة واليساريّة في البلاد تلتفّ حول القيادات الفلسطينيّة فيها، والعكس بالعكس، لتركيز الهجوم على لبنان بشكل رأيت أنّه يستوجب العودة إلى الساحة للوقوف في وجه هذا التيّار الخطير. وهكذا عدت إلى العمل من خلال رابطة الطلاّب اللبنانيّة لمكافحة هذا التيّار على أرض الجامعة التي كانت من أهمّ مراكزه. (أذكر، بالمناسبة، أنّي التقيت فور رجوعي إلى بيروت بصديق قال لي ما مفاده: «شاءت الأقدار أن تُجنّب العرب مهالك النصر، فلو انتصروا في الحرب لكانت مفرقعات ابتهاجهم أطاحت بلبنان والأردن، في الأقلّ، في ليلة واحدة.»)

كـان ولـيـد الخـالـدي يـقضـي أشـهر الصيف في بيت قديم بـقريـة شمـلان، مـع زوجـتـه رشـا سـلام، وكـنت أمـرّ أحـيـانـاً عـلـى شـمـلان لزيارتهما وأنـا في طريقي مساءً من بيروت إلى بحمدون. وجدت مرّة موفداً من القيادة الفلسطينيّة يتحدّث مع وليد الخالدي في بيته على حدة، وكأنّه يتفاوض معه: يعرض عليه ما بدا لي مسؤوليّة من نوع أو آخر، ووليد يرفض العرض رفضاً قاطعاً. انتهيا أخيراً من الكلام، وكنت جالساً مع رشا على الشرفة، فانضمّا إلينا. قال الزائر لوليد، وهو ينهي كلامه: «على كلّ حال، نحن ننوي استغلال نقطة الضعف في لبنان التي هي عدم التوافق بين المسلمين والمسيحيّين من شعبه، فنأخذ جانب المسلمين، وهم أنصارنا الطبيعيّون» (والمتكلّم مسيحي، كما فهمت لاحقاً). حذّره وليد من مخاطر مثل هذه السياسة، وثارت ثائرة رشا فأضافت ما معناه: نحن اللبنانيّون. نختلف ونتشاجر، لكنْ إذا حاول أحدٌ استغلال خلافاتنا للتنكيل بنا نعود إلى الاتّفاق فيما بيننا في ليلة «ما فيها ضوء قمر»، فيكون ذلك درساً له.

طُلب منّي بعد عودتي من هارفَرد أن أترأّس دائرة التاريخ وأن أقوم، في الوقت ذاته، بإدارة برنامج دراسات الشرق الأوسط الذي أنشيء في الجامعة في العام السابق ليحلّ مكان برنامج الدراسات العربيّة المتوقّف منذ عام ١٩٦٢. لم تكن مهمّة هذا البرنامج تقتصر على التدريس، بل كانت تشمل أيضاً تقديم المساعدات الماليّة للأساتذة الذين ينوون القيام بأبحاث: يتقدّمون بطلبات إلى اللجنة المشرفة على هذا البرنامج (أنا واثنين من زملائي، جوزيف مالون (Joseph Malone) من دائرة التاريخ، وصديقي وتلميذي السابق

فؤاد خوري من دائرة الأنثروبولوجيا). ننظر في الطلبات ونبتّ بأمرها مبدئيّاً، ثمّ نرسل بتوصياتنا إلى «لجنة الأبحاث» (Research Committee) لتصدر القرارات النهائيّة بشأنها. ومعظم الطلبات يتراوح في القيمة بين ألفين وأربعة آلاف دولار أميركي في العام. (من حسن حظّي، كما وجدت لاحقاً، أنّي لم أجد ضرورة لطلب مساعدة ماليّة لأبحاثي التي كانت تعتمد على القراءة والكتابة، لا غير، وأقوم بها بمفردي ودون مساعدين.)

انعقدت الجلسة الأولى للّجنة للنظر في أُولى الطلبات، ومنها طلب من أستاذ لبناني في دائرة التربية بقيمة أربعة وعشرين ألف دولار، وموضوع البحث هو إعادة النظر في الكتب المدرسيّة المعتمدة في لبنان للرياضيّات والعلوم. والقيمة المطلوبة لهذا البحث تكاد تفوق ثلث الميزانيّة المخصّصة لبرنامج دراسات الشرق الأوسط سنويّاً. حاول جوزيف مالون أن يقنعنا، أنا وفؤاد خوري، بأهمّية هذا البحث وضرورة تخصيص المبلغ الهائل (آنذاك) المطلوب له، فلم نقتنع. وتمّ الإجماع، في النهاية، على أن نقترح على المتقدّم بالطلب أن يعيد النظر فيه.

حملتُ توصيات المشرفين على البرامج إلى لجنة الأبحاث، وإذا بأحد الأساتذة الأميركيّين هناك يبادر إلى مهاجمتي شخصيّاً، قائلاً أنّ مصدر التمويل للتوصيات التي أقدّمها للّجنة غير نظيف، ومحدِّداً بأن هذا المصدر هو «آربا» (ARPA)، ولم أكن سمعت عن مؤسّسة بهذا الاسم سابقاً. أجبته أنّي لست مسؤولاً عن مصادر تمويل برنامج دراسات الشرق الأوسط، وأنّ عليه أن يحاسب إدارة الجامعة على ذلك، إذ إنّ مسؤوليّتي كمدير لهذا البرنامج تنحصر في تقديم ما لديّ من

توصيات، فيقرّها هو وزملاؤه في لجنة الأبحاث أو يرفضونها. لم يقبل منّي هذا الكلام، واستمرّ يحمّلني المسؤوليّة عن قضيّة التمويل التي لا أعرف عنها شيئاً. وفي صباح اليوم التالي صدرت إحدى صحف بيروت اليساريّة المعروفة تحمل صورتي وأنا أضع قطعة من الحلوى في فمي، ومكتوب تحتها «كمال الصليبي لا يهمّه من أين يأتي المال.» (ربّما أخذت لي هذه الصورة خفية، وعن قصد، في إحدى حفلات الجامعة.)

بعد يومين أو ثلاثة جاءني مسؤول من السفارة الأميركيّة، لبناني الأصل، وبادرني بالقول: «أنظر (Look here)، كان المفروض أن أستدعيك أنا لمكتبي في السفارة بدلاً من أن آتي لزيارتك. نحن مهتّمون بأمر هذا الأستاذ اللبناني في دائرة التربية الذي ينوي القيام ببحث في حقله يكلّف أربعة وعشرين ألف دولار. فإمّا أن يحصل هذا الأستاذ على المبلغ، أو تُوقف مساعدات آريا لبرنامجك.» طلبت منه أن يوقف مساعداته فوراً (وهذا، طبعاً، لم يحصل) وأن يغادر مكتبي فوراً (وهذا، طبعاً، حصل). واستقلت من إدارة برنامج دراسات الشرق الأوسط بعد مرور الزمن الكافي على التهجّم الصحفي والتهديد والوعيد الذي تعرّضت له، ولم أعد أقبل تحمّل أيّ مسؤوليّة من هذا النوع تحاشياً لمهاترات لا حاجة لها.

(وجدت لاحقاً أن آريا مؤسّسة تابعة لوزارة الدفاع بواشنطن اسمها Advanced Research Programs Agency، أي «وكالة برامج الأبحاث المتقدّمة»: تأسّست عام ١٩٥٨، ثمّ تغيّر اسمها عام ١٩٧٢ إلى DARPA (Defense Advanced Research Programs Agency). والوكالات الأميركيّة الحكوميّة أو شبه الحكوميّة من هذا النوع توفّر

التمويل لمؤسّسات الأبحاث، أو للباحثين الأفراد الأميركيّين وغير الأميركيّين، دون شروط. الأبحاث التي تموّلها هذه المؤسّسات تُنشر ككتب أو مقالات في مجلاّت الاختصاص فتصبح في متناول كلّ من هو مهتمّ، ولا يُمنع أحد من قراءتها والاستفادة منها، ولا تبقى حصراً على الإدارة الأميركيّة التي قد تستخدمها أو لا تستخدمها في رسم مخطّطاتها السياسيّة أو العسكريّة. وليس من بحث علمي يُنشر إلاّ وتكون منه فائدة لمن ينوي الاستفادة، سواءً أكان البحث مموّلاً من آريا أو مؤسّسات مماثلة أو لم يكن. لكنْ بين الناس عادة من هو صغير العقل، فيشتبه بالمقصود من البحث إذا كان مموّلاً من جهة معيّنة، بدلاً من أن يقرأ البحث ويستفيد منه. وحدث في عدّة جامعات في الولايات المتّحدة أن باحثين هوجموا من قِبَل زملائهم، داخل جامعاتهم وأحياناً على صفحات الجرائد، لأنّهم قاموا بأبحاث أو نظّموا مؤتمرات علميّة بدعم من آريا. ومنهم من خسر منصبه الأكاديمي لهذا السبب.)

كنت قمت برحلتين إلى الأردن عام ١٩٦٥، قبل سفري إلى الولايات المتّحدة: الأولى برفقة أسامة الخالدي وفريق من أساتذة وطلاب دائرة الكيمياء الحيويّة بكلّية الطبّ، والثانية برفقة فؤاد خوري. كانت عمّان لا تزال مدينة صغيرة في ذلك الوقت، تكاد تنعدم الحركة فيها بعد غياب الشمس، ولذلك اخترنا أن نقيم المرّتين في القدس، ننطلق منها للتجوّل في الضفّة الغربيّة التي كانت آنذاك جزءاً من الأردن، وننهي الرحلة بزيارة للعقبة: نتوقّف عند شفا رأس النقب لنتمتّع بمشهد مشارف العقبة أسفل الشفا، حيث تلتقي الهضاب

الرسوبيّة لبلاد الشام عند نهايتها بهضاب الحجاز الناريّة. أخذنا أسامة في المرّة الأولى، ونحن في القدس، ليرينا حائط المبكى، وأضعنا الطريق. توقّفنا عند دكّان لنسأل صاحبه (وهو رجل من بلدة الخليل): «وين صار حيط المبكى؟» فأجاب بلهجته الخليليّة: «ليش هو انتقل؟»

استأنفت جولاتي في سورية والأردن بعد عودتي من الولايات المتّحدة، وبسيّارتي الفولكسفاكن الجديدة، تارة بمفردي وتارة برفقة طلال فرح، من طلاّب دائرة التاريخ آنذاك. وهو أقرب إليّ سنّاً من سائر الطلاّب، فصار يرافقني في معظم رحلاتي، وتوطّدت علاقة الصداقة بيننا. كنت أقوم مرّة برحلة إلى الأردن بمفردي، مروراً بسهل حوران، فاستوقفني عريف في الدرك خارج قرية غباغب طالباً منّي أن أوصله إلى بيته في درعا. وحدث أن استوقفني العريف نفسه مرّه ثانية في المكان ذاته، وللغرض نفسه، وأنا في طريقي إلى عمّان. سألني ما ثمن سيّارة فولكسفاكن جديدة مثل سيّارتي في بيروت، فأجبت بأنّي اشتريتها بستّة آلاف وخمسمائة ليرة لبنانيّة تقريباً (أقلّ من ألفين ومائتي دولار أميركي في ذلك الوقت). توقّف عن الكلام بضع دقائق وهو يفكّر، ثمّ انهال على العروبة بالشتائم. وعندما سألته عن السبب أجاب: «لولا تعلّقنا بالقوميّة العربيّة وقضاياها، لربمّا كان بإمكان شخص مثلي أن يقتني سيّارة ظريفة مثل هذه، فلا يضطر أن يقف ساعة أو ساعتين على حافة الطريق في شمس الظهر ينتظر من يوصله من غباغب إلى درعا.»

رافقني نزيه زيدان في رحلة بالسيّارة إلى إسطنبول، توقّفنا فيها ليلة في الإسكندرون وأخرى في أنقرة، ذهاباً وإياباً. وقمت تالياً

برحلة برّية ثانية إلى تركيا رافقني فيها طلال فرح وفؤاد خوري وزوجته سونيا. كان التركيز هذه المرّة على بلاد الأناضول حيث توقّفنا في قونية، وقطعنا جبال طوروس في طريقنا من هناك إلى أنطاليا، ثمّ إلى علانية، ثمّ إلى مرسين على ساحل البحر المتوسّط وبعد ذلك انطلقنا إلى عينتاب لنعود من هناك إلى لبنان عن طريق أعزاز وحلب وحماة وحمص. (استكشفت في تلك الرحلة نقاط التواصل بين برّ الأناضول وشمال الشام.) وفي العام التالي قمنا، أنا وفؤاد خوري، بجولة في العراق (نيسان ١٩٦٨). كان وصولنا إلى بغداد عن طريق المفرق، بشمال الأردن. وانطلقنا من بغداد لزيارة النجف وكربلاء والحلّة وأطلال بابل على الفرات، ثمّ لزيارة البصرة، مروراً ببلاد «الجبايش» (أي منطقة الأهوار) في مستنقعات نهر دجلة (وهي التي تمّ تجفيف الجزء الأكبر منها عقب الحرب العراقيّة – الإيرانيّة). رأينا هناك الجبايش يعيشون كما كان يعيش أجدادهم في زمن الخلفاء العبّاسيّين، في أكواخ من القصب الذي ينمو في مستنقعاتهم، وأولادهم في القوارب يصطادون الأسماك بما يشبه الرمح، وهم عراة أو شبه عراة. بعد ذلك توجّهنا إلى الموصل، ثمّ اخترنا طريق العودة مروراً بجبل سنجار والقامشلي والحسكة ودير الزور. ومن هناك قطعنا البادية الشاميّة قاصدين حلب لنعود منها إلى بيروت.

كان الجوّ ماطراً ونحن في طريق العودة، فغرقت عجلات السيّارة في الوحل بناحية نهر الفرات عند اقترابنا من الحدود السوريّة، وعبثاً حاولنا أن نعالج هذه المشكلة. وإذا بتراكتور زراعي يتوجّه نحونا من بعيد، والذين فيه يلوّحون لنا بأيديهم. قلنا: لا بدّ أن هذه

نهاية أمرنا، إذ إنّ القادمين إلينا يعرفون أنّنا مسافرون نحمل معنا ما نحمل من النقود، فعسى أن يأخذوا ما يريدون منّا ويتركونا أحياء. لكنّ الذي حصل كان على العكس تماماً. وصل الجماعة إلينا، وهم الذين ظننّا في البداية أنّهم لصوص، فباشروا إلى ربط سيّارتنا بالتراكتور لينتشلوها من الوحول، ثمّ دعونا إلى تناول الشاي معهم. اعتذرنا، لأنّنا كنّا نريد الوصول إلى القامشلي قبل الغروب، وحاولنا أن نكافئهم على الخدمة التي قدّموها لنا، فلم ننجح: أجابوا بما معناه أن الناس لبعضها.

قمت بأوّل زيارة للبحرين في شتاء ١٩٦٩، بدعوة من يوسف الشيراوي الذي كان آنذاك مسؤولاً عن التنمية في إدارة البحرين قبل اكتمال استقلالها. وكان جيمز بلغريف عاد إلى البحرين في تلك الأثناء، هو وزوجته وطفلتاه، ليستقرّ هناك كرجل أعمال، وهو ما زال يعتبر البحرين – وليس بريطانيا – وطنه. (توفيّ، هو وزوجته، في أواخر السبعينيّات وهو على وشك الحصول على الجنسيّة البحرينيّة.) أنزلني يوسف في فندق «مون بلازا» (Moon Plaza) بأمّ الحَصَم، خارج المنامة، وأمام الفندق نخيل يصل إلى البحر. والمنامة، كما وجدتها آنذاك، بلدة صغيرة هادئة في وسط جنّة من النخيل، ليس فيها غير فندق واحد عدا «مون بلازا» هو فندق «دِلمون» (Dilmun Hotel). والمكان الوحيد الذي يقدّم المآكل الغربيّة هو مطعم مجمّع شركة البترول (BAPCO) في العوالي، حيث مساكن الموظّفين الأجانب في الشركة. أهالي البحرين بدوا لي وكأنّهم يشكّلون عائلة واحدة، والشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة (ويسمّونه «الشيوخ») ربّ هذه العائلة:

يستقبل الناس في مجلسه، وهو يعرفهم جميعاً بالاسم، ثمّ يسأل كلّ واحد منهم بعد أن يتّخذ مقعده: «شلونك؟» فيجيبه: «اللّه يطوّل عمرك.» كانت البحرين آنذاك على وشك نيلها الاستقلال الكامل الذي حصلت عليه في أواخر العام التالي، والاستعدادات قائمة لتحويلها إلى دولة دستوريّة. ففكّرت: حبّذا لو أبقى دستور البحرين العتيد على مجلس الشيخ عيسى كبرلمان للدولة، وهو البرلمان الطبيعي لها.

كان الحديث يدور آنذاك عن قيام اتّحاد للإمارات العربيّة بعد استقلالها عن الحماية البريطانيّة، يشمل البحرين وقطر و«الإمارات المتصالحة» (أبو ظبي ودُبيّ وعجمان والشارقة وأمّ القيوين ورأس الخيمة والفجيرة) التي أصبحت لاحقاً «دولة الإمارات العربيّة المتّحدة». ارتأى جيمز بلغريف أن استغلّ وجودي في البحرين لأقوم بجولة شاملة لقطر والإمارات فأراها قبل أن يبدأ التحديث فيها على نطاق واسع فيغيّر معالمها. ورتّب لي يوسف الشيراوي برنامجاً لهذه الجولة، وأولى محطّاتها في الدوحة، بقطر. نزلت هناك في فندق «الواحة» حيث كان سائر النزلاء من رجال الأعمال الأجانب، ومنهم مجموعة تبحث عن إمكانيّة تنمية السياحة في بلدان الخليج. سمعت هؤلاء مرّة يتحدّثون عن الموضوع في قاعة الطعام، وأذكر أنّ واحداً منهم قال: «المهمّ أن لا تصبح السياحة هنا مثل لبنان، حيث تطوّرت في شكل لم يعد يجتذب السوّاح الأوروبيّين والأميركيّين.» بدأ يصف بعد ذلك كيف أن الشاطىء اللبناني، مثلاً، برماله وخلجانه الصخريّة النادرة المثيل، يتحوّل إلى امتداد للمسابح التجاريّة من الإسمنت تُفقد البلد أصالته وتنفّر السائح الغربي منه.

والمسابح هذه – كما في خليج جونية الرائع أصلاً – تضجّ بمكبّرات صوت تبثّ آخر ما توصّلت إليه الموسيقى الإيطاليّة التافهة (nondescript Italian music) من الأغاني.

انتقلت بالطائرة من الدوحة إلى أبو ظبي، فوجدتها بلدة ما زالت تحتفظ بطابعها القديم، يكاد لا يكون فيها من المباني الحديثة غير قصر الضيافة وفندق «البيتش» (Beach Hotel) وفندق «العين» (تديرهما شركة «كات» اللبنانيّة للمقاولات)، وبضعة مبانٍ تجاريّة سيّئة التصميم والبناء تحيط بساحة رمليّة تتوسّطها شجرة «كُنار» كبيرة يستظلّ بها الناس في حرّ الظهر. («الكُنار» هو السِدر، شجر دائم الخضار من فصيلة العنّاب، وثمره الأحمر أو الأصفر، ويُسمّى «النَبْق»، يشبه الكرز، لكنّه أقلّ حلاوة. ورد ذكر السِدر في سورة سبأ وسورة النجم وسورة الواقعة، وأشار أبو العلاء المعرّي في داليّته إلى «ظلّ السِّدر» حيث قال: «والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السِدرِ ضربَ الأطنابِ والأوتادِ».)

لم يجد المسؤول عن استقبالي غرفة شاغرة لي في قصر الضيافة، ولا في فندق «بيتش» أو فندق «العين»، فأسكنني في شقّة من الشقق التابعة لقصر الضيافة بأحد المباني المحيطة بالساحة، وسائر سكّان هذا المبنى من الشباب الفلسطينيّين الذين يعملون في أبو ظبي: منهم مروان الطبري، من خرّيجي كلّية الهندسة بالجامعة الأميركيّة في بيروت، والطبيب عبد الكريم الرَمَحي وابن عمّه جمال الموظّف في دائرة الأمن العام، وصبا الفاهوم المسؤولة عن مدارس البنات في الإمارة، ووائل أبو حجلة المسؤول عن الإذاعة. استقبلني هؤلاء في المبنى وأحاطوني بالعناية: نقضي السهرات إمّا في شقّة صبا أو شقّة

مروان أو شقة وائل، وفي النهار يتجوّل بي إمّا عبد الكريم أو ابن عمّه جمال في أبو ظبي وجوارها. أخذني يوماً «الدْرِيوَر» (driver) سيف، سائق وائل، في رحلة إلى بلدة العين، وبالقرب منها واحة البريمي التابعة لعُمان، فرأيت المواسير تُمدّ على جانب الطريق لجرّ مياه العين إلى أبو ظبي. والرمال تمتدّ على جانبي الطريق، وفيها أشجار متفرقّة من نوعين: نوع لا يعلو كثيراً عن الأرض، وهو من صنف العوسج عدا أنّه كثير الشوك ومنمنم الأوراق، ونوع آخر وافر الظلّ شبيه بشجر الكينا. قال لي «الدْرِيوَر» سيف أن النوع الثاني يسمّى «الغاف»، أمّا النوع الأوّل فيسمّى«السُمَر». أدركت أنّ السُمَر هو الشجر المذكور في البيت الرابع من معلّقة امرىء القيس:

كأنّي غداة البين يوم تحمّلوا   لدى سَمُرات الحيّ ناقفُ حنظلِ

علّمني «الدْرِيوَر» سيف، دون أن يدري، أن لفظة «سَمُرات» في هذا البيت – بالإشارة إلى شجر «السُمَر»، حيث بكى امرؤ القيس أطلال أحبابه – يجب أن يعاد تحريكها المألوف لتصبح «سُمَرات». (كنت زرت سابقاً قرية «نَحْلة»، في بلاد بعلبك من لبنان، وتبيّن لي من إحداثيّات تنقّلات المتنبّي في أرض الشام أنّها هي «نحلة» – وليس «نخلة» بالخاء، حسب المألوف – التي يشير إليها المتنبّي في قوله «ما مقامي بأرضِ نَحْلَةَ (وليس نَخْلَةَ) إلاّ كمقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ.» أخبرت الشاعر الأستاذ إبراهيم العريّض في البحرين عن ذلك، وهو الكثير الاهتمام بسيرة المتنبّي وشعره، وله نظريّة خاصّة في الموضوع، فأعجبته الملاحظة. والأستاذ إبراهيم العريّض هو حمو يوسف الشيراوي الذي يبحث

حالياً في جغرافيّة تنقّلات المتنبّي بين العراق والشام وشمال الجزيرة العربيّة ومصر.)

(تعمّقت معرفتي بأبو ظبي وأهلها لاحقاً عندما صرت أتردّد لزيارتها في الثمانينيات بدعوة من صديقي عوض العتيبة. التقيت به أوّل مرّة عام ١٩٨١ عندما كان طالباً بالجامعة في بيروت. وصرت أشعر بعد ذلك، كلّما ذهبت إلى أبو ظبي، بأنّي أتردّد على ربعي.)

انتقلت من أبو ظبي إلى دُبيّ بالطائرة، إذ لم تكن الطريق بين البلدتين تعبّدت بعد. استقبلني هناك مهدي التاجر وأنزلني في فندق «كارلتون»، وهو الفندق الحديث الأوحد بدُبيّ آنذاك. عرّفني مهدي التاجر إلى الشيخ راشد، حاكم دُبيّ: رجل من العالم الحديث، سريع الحركة على كبر سنّه، ثاقب الذكاء، لا يفوت شيءٌ على سرعة ملاحظته، ولا يهتمّ كثيراً بقضايا «البروتوكول». دُبيّ ما زالت بلدة خليجيّة تقليديّة على جانبي «الخور» الذي يدخل إليها من البحر، والواضح أن الشيخ راشد ينوي تحويلها إلى نموذج للمدينة التجاريّة الحديثة. طلب من مهدي التاجر أن يريني أوّل حفّارة يتمّ بناؤها خارج البلدة للتنقيب عن البترول تحت سطح البحر، وقرّر لي برنامجاً لزيارة سائر الإمارات في المنطقة: الوصول إلى الفجيرة بالسيّارة صعب جدّاً، والأفضل أن أؤجّل زيارتي لها إلى مناسبة لاحقة. لكنْ الشارقة قريبة جدّاً من دُبيّ، وكذلك عجمان وأمّ القيوين، والإمارات الثلاث يمكن زيارتها في يوم واحد. يبقى لي أن أقضي يوماً في رأس الخيمة: الطريق إليها بدائيّة ومعظمها غير معبّد، ومنها أقسام تمرّ في الرمال، لكنّها سالكة.

وجدت نفسي وأنا في طريقي إلى رأس الخيمة وكأنّي في مجاهل الدنيا: الأرض حولي خالية تماماً من العمران، والطريق ترتفع فجأة، ثمّ تسقط فجأة، بين كثبان الرمال المكسوّة أحياناً بشجر الإثل (شجر صغير شبيه بالسرو، ورقه أقرب إلى الرمادي الفاتح منه إلى الأخضر، ونموّه أكثر ما يكون على السواحل وفي الأراضي الصحراويّة). عندما وصلنا إلى رأس الخيمة، وجدت شقّة محجوزة لي في دار الضيافة التي كانت سابقاً منزل المقيم البريطاني. اعترضت على هذا الترتيب، إذ كنت أنوي قضاء كامل ما لديّ من الوقت في زيارة البلدة وما حولها، لكنّ سائقي أشار إليّ بضرورة قبول ما يقدّم لي من ضيافة، ولو لنصف ساعة أدخل فيها الفراش بضع دقائق، ثمّ أقوم فأغتسل وأتناول وجبة خفيفة.

أخذت اتجوّل بعد ذلك في البلدة والأماكن التي حولها. ومن ذلك بستان كبير طلبت من السائق أن يتوقّف عنده، ودخلته مشياً لأتفحّص تربته وما فيه من الأشجار والمزروعات الاستوائيّة التي لم أكن أعرفها. وإذا بتراكتور زراعي يتقدّم نحوي من بعيد. ظننت أنّ سائق التراكتور ينوي طردي من البستان، إلى أن رأيت الابتسامة العريضة على وجهه عندما اقترب مني: نزل من التراكتور ليرّحب بي سائلاً بلهجة فلسطينيّة قرويّة، «من وين الأخ؟» قلت له، «من لبنان»، فعانقني قائلاً «الدم واحد»، واصطحبني إلى السقيفة التي هي مسكنه، حيث قدّمت لنا زوجته الشاي. حدّثني طويلاً عن ظروف مجيئه إلى رأس الخيمة، ثمّ أوصلني إلى السيّارة وافترقنا وكأنّنا رفاق عمر: لا أنا أعرف اسمه ولا هو يعرف اسمي.

في صيف ١٩٦٩ وصل الأميركي نيل آرمسترونغ (Neil Armstrong) إلى القمر ورأينا صورته على التلفزيون وهو يدوس سطحه. وقمت ذلك الصيف بجولة في المناطق الشماليّة من سورية برفقة طلال فرح تفقدّت فيها جميع المسالك الطبيعيّة هناك. اقترح طلال أن ننهي جولتنا بليلة نقضيها في ضيافة صديقنا سيف الدين القصير في السلميّة، وسيف الدين تلميذي ومن رفاق طلال بالجامعة. أخذنا إلى حيث كان أهله يصطافون: بيوت من اللِبن مخروطيّة الشكل على طرف البادية، من النوع التقليدي المألوف في أرياف شمال سورية، تشبه قفران النحل، وحولها الحقول. قال سيف الدين عند وصولنا: «عشاؤنا اليوم دجاج ببندورة، من مآكلنا المحليّة، ومن الحقول التي ترونها.» وبعد أن قدّمت لنا والدته العشاء أخذنا نتحدّث مع والده.

سألته ما هو الفرق بين الإسماعيليّة وغيرها من المذاهب الإسلاميّة، فأجاب: «أعطيك مثلاً. آرمسترونغ داس سطح القمر، ومن المسلمين من احتار في الأمر. يوجد بين إخواننا الإسماعيليّين فرقاء محتارون، هم أيضاً، لأن أجدادهم فات عليهم أن يعترفوا بالآغا خان الأوّل إماماً، بينما أجدادنا نحن، في السلميّة، اعترفوا به. واليوم لنا إمام هو الآغا خان الرابع يفهمنا كلّ ما يلتبس علينا، ونحن لذلك غير حائرين، بل مطمئنّون. أفهمنا الإمام أنّ العلم في الغرب أوصل الناس إلى القمر وقد يوصلهم إلى أبعد من القمر، وعلينا أن نقبل بهذا الواقع، إذ لا توجد مشكلة أساساً بين الإسلام والعلم. وقِس على هذا المثل فتفهم الإسماعيليّة.»

كان سبق لي أن أدركت الحقيقة الأساسيّة بشأن المذهب الزيدي في التشيّع عندما كنت أحاول شرحه من الناحية النظريّة لطلابي،

وبينهم شاب من اليمنيّين «الزيود»: عندما قلت أن البدر كان آخر أئمّة الزيديّة في اليمن، اعترض قائلاً أن البدر لا يجوز وصفه بالإمام لأنّه تخلّى عن الإمامة وقَبِل المنفى، والإمام لا يفعل ذلك. صدف مثل هذه (ومثل حديث «الدْريوَر» سيف عن شجر السُمَر)، حيث يتعلّم الإنسان من الاستماع، أعادت إلى ذاكرتي الأبيات من تراث الأدب الإنكليزي للأطفال التي تقول:

A wise old bird sat on an oak
The more he saw the less he spoke
The less he spoke the more he heard
Why can't we all be like that wise old bird?

(طائر حكيم مسنّ حطّ على سنديانة
كلّما رأى أكثر تكلّم أقلّ
كلّما تكلّم أقلّ سمع أكثر
لماذا لا نكون جميعاً مثل هذا الطائر الحكيم المسنّ؟)

١٤

مصير الساعة السويسرية

«لكي تبقى الأمور كما هي يجب أن تتغيّر قليلاً» (For things to remain the same, things will have to change a little). هذا ما قاله الشاب الأرستقراطي الصقلّي الثائر في فيلم «الفهد» (The Leopard) لعمّه الأمير المحافظ، تبريراً لالتحاقه بجيش غاريبالدي قبل غزوه لصقلّية عام ١٨٦١ للإطاحة بالنظام القائم فيها. رأيت هذا الفيلم ربّما في أواخر الستّينيّات، وبقيت أتذكّر منه هذه الجملة. (قصّة الفيلم مأخوذة عن رواية Il Gattopardo، أي «الفهد»، للروائي الصقلّي جيوسيبّي توماسي دي لامبيدوزا Giuseppe Tomasi di Lampedusa).

كان على لبنان أن يستمرّ في «التغيّر قليلاً» بعد عهد فؤاد شهاب ليتفادى ما حلّ به لاحقاً، وهذا لم يحصل، وربّما لم يكن ممكناً أن يحصل دون تجربة العكس أوّلاً. وكانت أرض الجامعة الأميركيّة، كالعادة، هي التي وفرّت الساحة لأولى التجارب. في عام ١٩٦٩

احتلّ شباب الثورة الفلسطينيّة وأنصارهم مبنى «نايسلي هول» (Nicely Hall) للتدريس وأغلقوا الصفوف، ولم يخلوا المبنى إلاّ بعد صدام مع شباب الرابطة اللبنانيّة كان الأوّل من نوعه. قامت بعد ذلك صدامات أخرى بين الفريقين، لسبب أو آخر، لا أذكر تفاصيلها تماماً. وفي تلك الأثناء بدأت الأحزاب اللبنانيّة المسيحيّة (وبخاصّة الكتائب والوطنيّون الأحرار) تنظّم خلايا لها في الجامعة في محاولات لاختراق الرابطة، ونجحت في السيطرة عليها في آخر عام ١٩٧١ عن طريق الانتخابات، فأخليت موقعي كمستشار للرابطة لغيري.

(في ذلك العام طلب منّي شباب «التنظيم الأردني»، ورئيسهم عبد الكريم الكباريتي، أن أكون مستشارهم. ورافقني عبد الكريم في رحلة إلى الأردن زرنا فيها العقبة، حيث استضافنا أخوه عبد العزيز في فندق «كورال بيتش» الذي كان يديره. هناك تعرّفت على «أبو عطاالله» علاّوي الكباريتي، والد عبد العزيز وعبد الكريم، وسمعت منه أخباراً كثيرة عن أحوال العقبة وجوارها في زمن الثورة العربيّة الكبرى وبدايات عهد الإمارة، عندما كان هو رئيس بلديّة العقبة، وهو بعد شابّ. وهناك تعرّفت أيضاً على مجموعة كبيرة من آل الكباريتي، وأصبحت أشعر بوحدة حال بيني وبينهم.)

في ربيع ١٩٧٢ حصلت معركة بالأيدي والعصي والكراسي بين شباب الرابطة وشباب الثورة الفلسطينيّة في كلّية الهندسة، جُرح فيها طلاّب من الفريقين. فعلّق رئيس الجامعة صموئيل كيركوود (Samuel Kirkwood) التدريس في جميع الكلّيات وأعلن أنّه لن يُستأنف فيها قبل التوصّل إلى اتفاق يجنّب الجامعة مزيداً من المعارك. طُلب منّي آنذاك أن اتفاوض مع فلسطينيّين نافذين (منهم

اثنان من زملائي) للتوصّل إلى اتّفاق يكون ملزماً للطرفين في النزاع ومقبولاً منهما، فتوصّلنا، أنا وإيّاهم، إلى صيغة مناسبة أعادت الهدوء إلى الجامعة سنة كاملة. غير أن الأحزاب المسيطرة على الرابطة لم يعجبها ذلك.

هذا ما اتّضح لي ذات صباح في ربيع ١٩٧٣ عندما قام شباب الرابطة بهجوم مفاجئ على زملائهم الفلسطينيّين استخدموا فيه النقّافات، يرمون بها «الكِلَل» الزجاجيّة. وتبيّن لي أن التخطيط لهذا الهجوم، الذي لم أجد له مبرّراً، تمّ بالتواطؤ مع جهات نافذة داخل الجامعة وخارجها. فقمت بالاتّصالات اللازمة لإيقاف الهجوم، ولم تعد لي علاقة بالرابطة بعد ذلك اليوم.

(أكسبني العمل في الرابطة خبرة في الشأن العام على مستوى القرار، تعلّمت عن طريقها أشياء كثيرة لا يمكن فهمها إلاّ بالممارسة. الفرق بين المثاليّة والغرض المبطّن، مثلاً، أو بين المثاليّة والهوس. وماذا يعني أن يكون الموقع القيادي عزيز الجانب، وما هي الشروط لذلك. والحدّ الذي يمكن الوصول إليه في المصانعة، والذي لا يمكن تجاوزه دون خسارة في الموقف.)

كنت أتردّد في تلك السنوات على البحرين لزيارة يوسف الشيراوي وجيمز بلغريف، وأنزل أحياناً ضيفاً على جيمز، وفي مكتبته مجموعة من الكتب عن الجزيرة العربيّة قلّ مثيلها: منها ما ورثه عن والده، ومنها ما قام هو بشرائه. استهوتني قراءة هذه الكتب، وبدأت أفكّر في إدخال مادّة جديدة على برنامج التاريخ تستعرض تاريخ جزيرة العرب عبر العصور. (كنت بدأت أوسّع

معلوماتي في تلك الأثناء عن جغرافيّة الجزيرة، فزرت عُمان عام ١٩٧٠، والرياض عام ١٩٧٢، واليمن الشمالي عام ١٩٧٣.) ومن الذين درسوا هذه المادّة معي، آنذاك ولاحقاً، عدد من طلاّب كلّية الهندسة الذين ذهبوا للعمل في السعوديّة وبلدان الخليج بعد تخرّجهم.

كانت دائرة العلوم السياسيّة في جامعة مانشستر، بإنكلترا، تقوم عام ١٩٧٤ بتنفيذ برنامج لدراسة لبنان بالتعاون مع دائرة الأنثروبولوجيا، لاعتبار لبنان نموذجاً للعيش الديني المشترك قد يُحتذى في حلّ مشكلة إيرلندا الشماليّة. ودعيت لقضاء شهرين كأستاذ زائر هناك لأُشرف على بعض الدراسات التي من اختصاصي (منها واحدة عن الزعامات الإسلاميّة البيروتيّة، وأخرى عن حزب الكتائب). ودعيت في الوقت ذاته للاشتراك في مؤتمر يعقد في جامعة السوربون بباريس، خلال وجودي في مانشستر، حول «العرب من خلال محفوظاتهم» (Les Arabes par leurs archives)، فبدأت أبحث عن موضوع أقدّم عنه عرضاً في هذا المؤتمر.

كان أسامة الخالدي أعارني مرّة مذكّرات لجدّه أبو علي سليم سلام تركّز على أخبار بيروت في أواخر العهد العثماني، طالباً منّي أن أصوّرها في نسخة ميكروفيلم أُبقيها في مكتبة الجامعة. سألت الستّ عنبرة عن الأصل، فقالت لي أنّه ضاع، وسرّت عندما أعلمتها أن نسخة منه ما زالت موجودة على ميكروفيلم بالجامعة. وبين قراءة هذا الميكروفيلم واستنطاق الستّ عنبرة وأخيها صائب بك وغيرهما بشأن المتوفّر بعد في الأذهان عن تاريخ بيروت وأسرها الإسلاميّة في المائة سنة الأخيرة من العهد العثماني، تمكّنت من كتابة مقال عن «بيروت في زمن تركيا الفتاة» (Beirut under the Young Turks)

استعرض فيه تاريخ آل سلام منذ عام ١٨٢٠، مركّزاً على سيرة أبو علي وأحوال بيروت في زمانه.

رجعت إلى بيروت بعد نهاية عملي بجامعة مانشستر، فوجدت القيامة قائمة في الجامعة الأميركيّة: الناشطون الفلسطينيّون وأنصارهم من اللبنانيّين يسيطرون على أرض الجامعة ومداخلها ويحتلّون مباني التدريس والإدارة، والرئيس كيركوود محاصر في بيته، لا يستطيع الخروج منه، ويرفض التفاوض مع الطلاّب. والرابطة اللبنانيّة لم تعد موجودة لتضمن توازناً في القوى على أرض الجامعة، إلاّ بالاسم. طلب مني قادة الإضراب أن أتوسّط مع إدارة الجامعة للخروج من المأزق القائم، فبذلت الجهد للتوصّل إلى مخرج تربوي يكون ملائماً للجامعة ويحفظ للطلاّب ماء الوجه، فلم أنجح. (حاول الطلاّب أيضاً أن يقنعوني بصحّة موقفهم، فلم اقتنع.) وهكذا بقي الوضع على حاله مدّة أسابيع إلى أن طلبت الجامعة من قوى الأمن اللبناني أن تتدخّل لتقمع الإضراب بالقوّة وتلقي القبض على قادته. (كان ذلك الإضراب، على كلّ حال، مناسبة لتعرفّي على أحد قادته، وهو فتحي البسّ الذي يقوم حاليّاً بنشر هذه المذكرات.)

قمت في أيلول ١٩٧٤ برحلة إلى اليمن الجنوبي لاستكشاف كامل مناطقه، وزوّدني صديقي هاني الهندي برسالة موجّهة إلى مدير مكتب الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين في عدن يطلب منه الاهتمام بي والمساعدة في ترتيب البرنامج والتسهيلات اللازمة لرحلاتي الداخليّة. أخذت هذه الرسالة إلى مكتب الجبهة الشعبيّة

فور وصولي إلى عدن، فالتقيت في غرفة الاستقبال بعدد من الناشطين الفلسطينيّين اللاجئين إلى اليمن الجنوبي، وليس لأحد منهم آنذاك مأمن في بلد آخر لكونهم ملاحقين دوليّاً. هذا ما جعلني أشعر، أنا أيضاً، بالأمان، ومنذ تلك اللحظة، خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في عدن، وفي التجوال برّاً أو جوّاً من منطقة إلى أخرى في البلاد: انتقل من مكان إلى آخر برفقة ناجي مصلح أو شايف ناجي أو غيرهما من المرافقين الذين لم تكن لي أي صلة بهم من قبل، ونقطع الجبال والقفار معاً، نهاراً أو ليلاً، وأنا أردّد في ذهني قول الشنفرى:

هُمُ الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ   لديهم ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ

اندلعت الحرب في لبنان في ربيع ١٩٧٥، وتوقّفت في أشهر الصيف، ثمّ اندلعت مجدّداً في الخريف. وقمت في أيلول من ذلك العام برحلة استكشافيّة أولى إلى مصر برفقة عبد الرحيم أبو حسين الذي كان تلميذي المفضّل آنذاك (وهو حالياً رئيس دائرة التاريخ في الجامعة الأميركيّة ببيروت وأستاذ التاريخ العثماني وتاريخ لبنان فيها). تجدّدت الحرب في لبنان أثناء غيابنا، فذهبت بعد العودة إلى بيروت إلى مكاتب جريدة «النهار» لأسأل ميشال أبو جَودة، رئيس تحريرها، عن رأيه في ما يحدث. كان جوابه أنّ الانتداب الفرنسي أورث لبنان ساعة سويسريّة ثمينة، دقيقة التركيب، فلمّا طرأ عليها عطل لم يشأ اللبنانيّون إرسالها إلى خبير يقوم بصيانتها حسب الأصول، بل رموها بعرض الحائط لتحطيمها.

وصلتني بعد ذلك رسالة من فرانك ستوكس (Frank Stoakes)، صديقي وزميلي السابق في دائرة العلوم السياسيّة بجامعة مانشستر، يطلب منّي أن أشرح له ما يحدث في لبنان. بدأت أجيب على هذه الرسالة وأنا أدخّن النارجيلة في مقهى أبو وليد العيتاني بشارع جرداق القريب من بيتنا بشارع السادات، فكتبت: «عزيزي فرانك (Dear Frank)، من الصعب التكهّن الآن إذا كانت الحرب القائمة في لبنان حاليّاً ضرباً من الجنون، أو إذا كانت ضروريّة لسبب أو آخر....» وطال الشرح في الرسالة من يوم إلى يوم، ومن أسبوع إلى أسبوع، إلى أن أصبحت الرسالة كتاباً. فحذفت عبارة Dear Frank من البداية وأرسلت نصّ الكتاب للنشر في شباط ١٩٧٦ تحت عنوان «الطريق إلى الحرب الأهليّة (Crossroads to Civil War): لبنان ١٩٥٨–١٩٧٦». (صدر هذا الكتاب عن دار كارافان للنشر (Caravan Books) في ديلمار بولاية نيويورك، وتولّى زاهي خوري، أحد صاحبَي هذه الدار، طبعه في بيروت. وتوفّي صديقي فرانك ستوكس بنوبة قلبيّة مفاجئة قبل وصول نسخة من الكتاب إليه ليقرأ جوابي على رسالته.)

وفّرت لي ظروف الحرب في لبنان ما يكفيني من الوقت لكتابة أشياء كثيرة كانت تجمّعت في ذهني منذ أن بدأت التدريس في الجامعة. وكان لما خبرته من أثر الحرب على رأس بيروت تأثير على ما كتبت أحياناً. بقيت مداوماً على الكتابة في مقهى أبو وليد العيتاني: ذهبت يوماً إلى هناك فوجدت مسلّحين من «عرب المسلخ» (وزعيمهم يلقّب «السفير»)، ومعهم أسرهم، يحتلّون الشقق الشاغرة في المباني المجاورة، وسكّان هذه المباني يخلون شققهم هرباً من القادمين. ربّما هذا ما كان يحصل تكراراً عبر تاريخ الشام، بل

وتاريخ المنطقة عموماً، عندما ينهار النظام القائم في المدن، فيُحدث ذلك فيها فراغاً يمتصّ أهالي الأرياف والبوادي إليها. على مثل هذه الملاحظات بنيت الأطروحة لكتاب عن تاريخ بلاد الشام في العصور الأولى للإسلام نشرته دار كارافان عام ١٩٧٧ تحت عنوان Syria Under Islam: Empire on Trial 634-1097.

جمعت بعد ذلك ما لدي من معلومات عن تاريخ لبنان في القرون الإسلاميّة الأولى وأصدرتها في كتاب بالعربيّة تحت عنوان «منطلق تاريخ لبنان» (نشرته دار كارافان عام ١٩٧٩). ثمّ تحوّلت إلى تدوين ما أعرفه عن تاريخ الجزيرة العربيّة، فكانت النتيجة كتاباً بعنوان A History of Arabia (نشرته دار كارافان عام ١٩٨٠)، وهو أوّل سرد لتاريخ الجزيرة يربط بين جميع أجزائها بناءً على أطروحتي حول التفاعل المستمرّ تاريخيّاً بين الأرياف والمدن والبوادي والحواضر في بلادنا. وكلّ ذلك انطلاقاً من مقهى أبو وليد العيتاني ومشاهدتي الأولى لاستقرار عرب المسلخ في جواره بقيادة زعيمهم «السفير» عندما انهارت هيبة الدولة في رأس بيروت.

دعيت في تلك الأثناء للاشتراك في مؤتمر عن «تاريخ الجزيرة العربيّة قبل الإسلام» عُقد في جامعة الرياض عام ١٩٧٩، قدّمت فيه بحثاً عن «الإطار الخارجي لجاهليّة العرب»، على ما أذكر. ومن الذين حضروا ذلك المؤتمر مجموعة من أشهر المستشرقين وعلماء الآثار والخبراء في اللغات الساميّة. وكان في جملة الحاضرين هادون العطّاس، من مكّة، وهو حضرميّ الأصل. استغلّ فرصة وجود هذه النخبة النادرة من أهل الاختصاص في المؤتمر ليطرح

سؤالاً عن اسم حضرموت: لماذا يُفترض أن هذا الاسم يعني «حاضرة الموت»، وحضرموت ليست صحراء قاحلة ينطبق عليها مثل هذا الوصف، بل امتداد من الواحات الخصبة بين رمال الربع الخالي إلى الشمال والقفار الصخريّة المسمّاة «الجول» إلى الجنوب؟ أجاب أحد الضالعين في اللغات الساميّة، وهو مستشرق ألماني (نسيت اسمه)، أنّ اسم حضرموت لا يعني بالضرورة «حاضرة الموت»، بل ربّما يعني «حاضرة مُوت»، على اسم الإلهة «مُوت» التي يرد اسمها في النقوش الأوغاريتيّة (من ناحية اللاذقيّة على الساحل السوري).

تقدّمت أنا بطرح آخر. ترد في المزمور ٢٣ من التوراة لفظة «صلموت»، على وزن «حضرموت»، وقد حُرّكت تقليديّاً لتلفظ بالعبريّة (وهي الكنعانيّة) «صَلْ ماوِث»، بمعنى «ظِلّ مَوْت»، ومن ذلك الترجمة التقليديّة للجملة التي ترد فيها هذه اللفظة: «أيضاً إذا سِرتُ في وادي ظلّ الموت لا أخاف شرّاً لأنّك أنت معي.» لكنْ من علماء التوراة من يقترح إعادة تحريك اللفظة لتُقرأ «صَلَمُوث»: جمع المؤنث الكنعاني من «صلمه»، يقابلها بالعربيّة «ظُلمة». إذن: «أيضاً إذا سِرتُ في وادي ظُلماتٍ لا أخاف شرّاً....»

اسم «حضرموت» يرد في سفر التكوين من التوراة على شكل «حصرموت« (بالصاد بدلاً من الضاد)، وقد حُرّك تقليديّاً ليلفظ «حَصِر ماوِث»: مضافاً ومضافاً إليه بمعنى «حاضرة مَوْت». ومن ذلك التحريك المصطنع لاسم «حَضْرَمَوْت» بالعربيّة، علماً بأن اللفظ العادي للاسم هو «حَضْرَمُوت» (على وزن عنكبوت). إذا أُعيد تحريك لفظة «حصرموت» التوراتيّة لتُقرأ «حَصْرَمُوث»، قياساً على إعادة تحريك «صلموت» لتُقرأ «صَلَمُوث»، يصبح لدينا جمع المؤنّث الكنعاني للمفرد

«حصرمه»، يقابلها بالعربيّة إما «حصرمة» أو «حضرمة» أو «خصرمة» أو «خضرمة». أنا اقترح «خضرمة»، بمعنى الواحة، ومن ذلك جمع المؤنّث «حَضْرَمُوت» كاسم مكان بمعنى «خضرمات»، أيّ «واحات»، علماً بأن وادي حضرموت هو امتداد من الواحات.

هذه التفاصيل اللغويّة المملّة قد تورث الضجر، لكنّها لا تستثير الحساسيّات في العادة. ولذلك فوجئت بردّة فعل المستشرق الألماني على كلامي حين قال بغضب: أوّلاً، جئني باسم مكان واحد في بلادكم بصيغة جمع المؤنّث الكنعاني. أجبته فوراً، بيروت، جمع المؤنث للفظة «بئر»، بمعنى البِئر، أو «بئره» بمعنى «البيّارة»، أي البستان. قال: ثانياً، الكنعانيّة لغة ساميّة شماليّة – غربيّة تختصّ بالمناطق الساحليّة من الشام، فكيف انتقلت بهذه اللغة إلى اليمن؟ أجبته، تماماً كما انتقلت أنت بالإلهة «مُوت» من اللاذقيّة إلى اليمن. ومن قال أن الكنعانيّة كانت في زمانها محصورة على أهل الشام دون أهل اليمن؟ نحن اليوم نتكلّم العربيّة في الشام كما في اليمن، وربّما كان أجدادنا قديماً يتكلّمون الكنعانيّة أو الأراميّة بالشام كما باليمن. ويمكننا التحقّق من ذلك عن طريق درس أسماء الأماكن في المنطقتين والمقابلَة بينها. (لم يعد المستشرق الألماني يتكلّم معي بعد هذه المواجهة.)

أهداني عبداللّه بن خميس في ذلك اليوم نسخة من كتابه القيّم «معجم اليمامة»، وأخبرني عن مؤلّفات حمد الجاسر وغيره من العلماء السعوديّين في موضوع أسماء الأماكن في المملكة العربيّة السعوديّة، فحصلت على نسخ من هذه المؤلّفات من السفارة السعوديّة في بيروت بعد عودتي من الرياض. استوقفني في مؤلّف عبداللّه بن خميس اسم

«خضرمات» العربي، بمعنى الواحات، الذي يطلق على وادي اليمامة إلى الشمال من رمال الربع الخالي، بينما يطلق الاسم ذاته بصيغته القريبة من الكنعانيّة على وادي «حضرموت»، إلى الجنوب من هذه الرمال. فكّرت: ربمّا في ذلك ما يشير إلى أنّ أهالي اليمامة كانوا يتكلّمون العربيّة في غابر الأزمنة حينما كان أهالي حضرموت يتكلّمون نوعاً من الكنعانيّة. وبدأت اتفحّص أسماء الأماكن في الجزيرة العربيّة على هذا الأساس، آملاً بأن أتوصّل إلى نتيجة أطرحُها في الموضوع. وفيما كنت أقوم بهذا العمل لاحظت أن أسماء الأماكن الكنعانيّة والأراميّة التركيب تتركّز أكثر ما يكون في أرض الحجاز، وأكثر من ذلك في أرض عسير، ومنها أسماء أماكن كثيرة واردة في التوراة ولا وجود لها في فلسطين، وهي التي تعتبر تقليديّاً أرض التوراة دون وجود أيّ برهان قاطع على ذلك. أخذت أركّز على هذه الناحية من الموضوع أكثر فأكثر، وبدأت أكوّن في ذهني أطروحة حولها: ربمّا التوراة تتحدّث عن تاريخ حصل في غرب الجزيرة العربيّة بين الطائف وحدود اليمن، وليس في فلسطين.

كان صديقي أسامة الخالدي منشغلاً آنذاك بالتدقيق في سورة الفيل، بدلاً من التركيز على أبحاثه في حقل الكيمياء الحيويّة الذي هو اختصاصه: يرى في عبارتَي «طيراً أبابيل» و«حجارة من سجّيل» من هذه السورة إشارة إلى انفجار بركاني حدث في اليمن بينما كان أبرهة يتّجه بجيشه نحو مكّة، ويحاول التحقّق من ذلك. حصل على مجموعة من الكتب عن البراكين وهو يقوم بهذا البحث، فأعارني إيّاها لأقابل الإشارات التوراتيّة إلى البراكين مع طوبوغرافيّة البراكين في غرب الجزيرة العربيّة.

وهكذا بدأت الأطروحة حول العلاقة بين التاريخ التوراتي وأرض الحجاز وعسير تتكامل في ذهني شيئاً فشيئاً إلى أن بدأت في الكتابة وأكملت المسوّدة الأولى من كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» في صيف ١٩٨٢، خلال الحصار الإسرائيلي لبيروت. بقي لي أن أقوم بزيارة استكشف فيها المنطقة من الجزيرة العربيّة التي أتحدّث عنها في كتابي قبل مراجعة مسوّدته، فقمت بهذه الزيارة في ربيع ١٩٨٣. (صدر الكتاب بالإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة والهولنديّة عام ١٩٨٥، وبالعربيّة عام ١٩٨٦، وبعد ذلك بلُغات أخرى، منها الفنلنديّة واليابانيّة والماليزيّة، على ما أذكر.)

تحوّلت بعد ذلك إلى إعادة النظر في النصوص التوراتيّة: أوّلاً، بإعادة تحريك ما هو غامض فيها حتى يستقيم إعرابه ويظهر المعنى المقصود منه وثانياً، بإعادة ترتيب النصوص التي تَلاعب بها جيل بعد جيل من المحرّرين قبل أن تتّخذ الشكل الذي وصلنا منها (ما يسمّى بالإنكليزيّة Received Text). بدأت بمعالجة النصوص القصصيّة في سفر التكوين وسفر الخروج وسفر العدد وسفر النبي يونان (أي يونس، والاسم بالعبريّة «يُونَه»): عمل لا يمكن لأحد القيام به بالدقّة اللازمة إلاّ إذا كانت اللغة العربيّة (وهي أمّ اللغات الساميّة) من غريزته. ونتج عن هذا العمل كتاب «خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل» (صدر عن «دار الساقي» بالإنكليزيّة عام ١٩٨٨، وبالعربيّة عن الدار ذاتها في العام التالي).

كنت بدأت العمل على النصّ الإنكليزي لهذا الكتاب عام ١٩٨٤ عندما قرّر صهري سامي داغر أن الوقت حان لي لأبدأ استخدام

الكمبيوتر في الكتابة بدلاً من الآلة الكاتبة أو القلم. جاءني بكمبيوتر من نوع «كيبرو» (Kaypro) ووضعه على طاولتي قائلاً: «استعمله وما تخاف». ولم يعد باستطاعتي الاستغناء عن الكمبيوتر للكتابة بالإنكليزيّة منذ ذلك الوقت.

ساءت الأحوال عام ١٩٨٦ في بيروت بحيث لم يعد العيش فيها آمناً لي، فنصحني رئيس الوزراء رشيد كرامي والوزير منير أبو فاضل وصديقي وزميلي السابق الرئيس سليم الحصّ (وهو الوزير آنذاك)، وكذلك آخرون، أن أغادر المنطقة الغربيّة من المدينة ولا أعود إليها إلى أن يدخلها الجيش السوري لإعادة ضبط الأوضاع فيها. ولم تكن لديّ رغبة بأن انتقل إلى بيروت الشرقيّة لعدم اقتناعي بالموقف السياسي الذي تمثّله، فقرّرت الانتقال إلى عمّان. (أوصلني مرافقو الرئيس الحصّ إلى الطائرة على مدرج المطار بسيّارته المصفّحة وبقوا معي في الطائرة إلى أن حان موعد إقلاعها.)

التقيت بسموّ الأمير الحسن بن طلال بعد وصولي إلى عمّان بأيام: سألني ما هو سبب مجيئي إلى الأردن، فأخبرته. وكان في ترحيبه بقدومي ما جعلني أقول في نفسي «هم الأهل»، فبادرت إلى شراء شقّة في شارع مستشفى الخالدي أقيم فيها. وبقيت بعيداً عن بيروت لمدّة سنتين قضيت منهما سنة ونصف في عمّان، ونصف سنة أستاذاً زائراً في أكسفورد. ولم يكن لديّ ما أعمله في عمّان، فبدأت أتعلّم اللغة اليونانيّة لكي أتمكّن من معالجة «العهد الجديد» من الكتاب المقدّس (وهو المكتوب أصلاً باليونانيّة) بالطريقة ذاتها التي عالجت فيها التوراة العبريّة.

وما كانت إلاّ أشهر حتى باشرت قراءة الأناجيل والرسائل من «العهد الجديد» باليونانيّة، والمقابلة بين ما تفيده عن سيرة «يسوع الناصري» وما تفيده النصوص القرآنيّة عن سيرة «عيسى بن مريم»، إلى أن اتّضحت في ذهني صورة تاريخيّة متكاملة حول هذا الموضوع. فكانت النتيجة كتاب «من كان يسوع؟» (Who Was Jesus?): كتبته على شكل قصّة بوليسيّة استنطق فيها الشهود (التي هي المصادر) للتوصّل إلى جليّة الأمر. (نشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٨٩، وأعدت كتابته عام ١٩٩٩ بالعربيّة بأسلوب آخر، ومع معلومات إضافيّة، لنشره تحت عنوان «البحث عن يسوع».)

بقي لديّ متّسع من الوقت لأشغله، فعدت إلى موضوع تاريخ لبنان، أُراجع في ذهني المقولات التقليديّة فيه (القول، مثلاً، إنّ لبنان الحديث هو امتداد تاريخي لفينيقيا، أو إنّه الجبل الأشمّ الذي لم تتمكّن الفتوحات العربيّة والإسلاميّة من إخضاعه، أو إنّ تاريخ لبنان ما هو إلاّ تصوّر لا أساس له من الصّحة، الخ.) تبيّن لي أن هذا الصراع بين المقولات المختلفة حول تاريخ لبنان هو في أساس الحرب الأهليّة القائمة بين اللبنانيّين، وأنّ لبنان لن يخرج من هذه الحرب و«يتغيّر قليلاً» ليحافظ على كيانه إلاّ عندما يتصالح مع تاريخه، ويتمّ الإجماع بين اللبنانيّين على واقع هذا التاريخ. دُعيت في ذلك الوقت لحضور مؤتمر في جامعة تورونتو، بكَنَدا، عن الوضع التاريخي للطوائف المسيحيّة في العالم الإسلامي، وعرّجت، في طريق العودة إلى عمّان، على واشنطن لألقي محاضرة في جامعة جورجتاون. التقيت هناك

بـجـمـيـل مروّة، صـاحب جـريـدة «الـحيـاة»، وحـدّثـتـه عـن تـصـوّري لمشكلة التـاريـخ اللبـنـاني، فـأصرّ عليّ أن أبـاشر فوراً بوضع كتـاب حول هذا الموضوع لأهمّيته بـالنسبة إلى إعـادة تركيب لبـنـان: «الساعـة السويسريّـة» الـتـي ضُرب بـهـا عرض الحائط عندمـا تعطّلت، بدلاً من أن تُخضع للصيانة الملائمة.

بدأت العمل على هذا الكتـاب فور رجوعي إلى عمّان، ولم تكن لديّ أيّ مراجع أعود إليهـا، فـاضطررت إلى الاعتمـاد فقط على ذاكرتي. وربّمـا كان ذلك جيّداً، لأنّ الذاكرة لا تحتفظ إلاّ بـالأشيـاء المهمّة، ولا تنشغل عنها بـالتفـاصيل الجانبيّة. وهكذا كتبت «بيت بمنـازل كثيرة (A House of Many Mansions): إعـادة النظر في تـاريخ لبنـان» في ظرف ثلاثة أو أربعة أشهر (صدر بـالإنكليزيّة عـام ١٩٨٨، وبـالعربيّة في العـام التـالي).

أهديت نسخـة من هذا الكتـاب للأمير الحسن بن طلال في عمّان، فقـال لي: «حبّذا لو فعلت للأردن مـا فعلته للبنـان.» ففكّرت: الأردن هو الآن بلدي كمـا أنّ لبنـان بلدي، فلمـاذا لا أقوم بمحـاولة لكتابة تـاريخه؟ لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، فطلبت من الأمير أن أستـعين بمكـتـبـتـه الخـاصّـة، وأخـذت في الـوقت ذاتـه أستـسقـي المعلومـات عن الأردن من أصحـاب الدرية في أخبـاره. بدأت بكتابة فصل تجريـبـي عـن الـعـلاقـات بين الأمير عـبـد اللّـه والحـاج أمين الحسيني مفتي القدس في زمن الانتداب البريطاني، وأرسلته عن طريق صديق إلى الدكتور حـازم نسيبة، الخبير في الموضوع، للنظر فيه دون أن يعرف من هو مؤلّفه، فجاء جوابه مشجّعاً: اعتبر أن الذي قـام بكتـابه هذا الفصل لا بدّ أنّه عـاصر أحداثه وربّمـا كان له

ضلع فيها، بل ربمّا كان بريطانيّاً يعمل في حكومة فلسطين ويقف على خفايا الأمور.

عدت إلى التدريس في الجامعة الأميركيّة ببيروت في خريف ١٩٨٨ بعد انقطاع سنتين، فوجدت بين طلاّبي في دائرة التاريخ جيلاً جديداً من الشباب اللبناني متصالحاً تلقائيّاً مع لبنان وأوضاعه، ربّما لأنّه نشأ في ظروف الحرب وخبر منها ما خبر: جيل بدا لي واقعياً، بعيداً عن الإيديولوجيّات والتفلسف العقيم، وتائقاً إلى المعرفة. ولذلك كان للسنوات الأخيرة التي قضيتها في التعليم بالجامعة رونقٌ خاصّ. رتّبنا لطلاّبنا رحلة إلى الأردن وأخرى إلى حلب لتوسيع آفاقهم، والحرب في لبنان ما زالت قائمة. ولم يكن بينهم من المسيحيّين إلاّ قلائل بسبب استمرار الحرب. وبينما كنّا نجول في الأحياء القديمة من حلب توقّفنا أمام الكنيسة المارونيّة هناك، وأمامها تمثال للمطران جرمانوس فرحات، فهتف جميع الطلاّب مبتهجين: «شوفوا هاي كنيستنا!» (خبرة الحرب هي التي جعلت هذا الجيل اللبناني الشابّ يَرى في كنيسة مارونية بحلب، وبالإجماع، رمزاً لبلاده.)

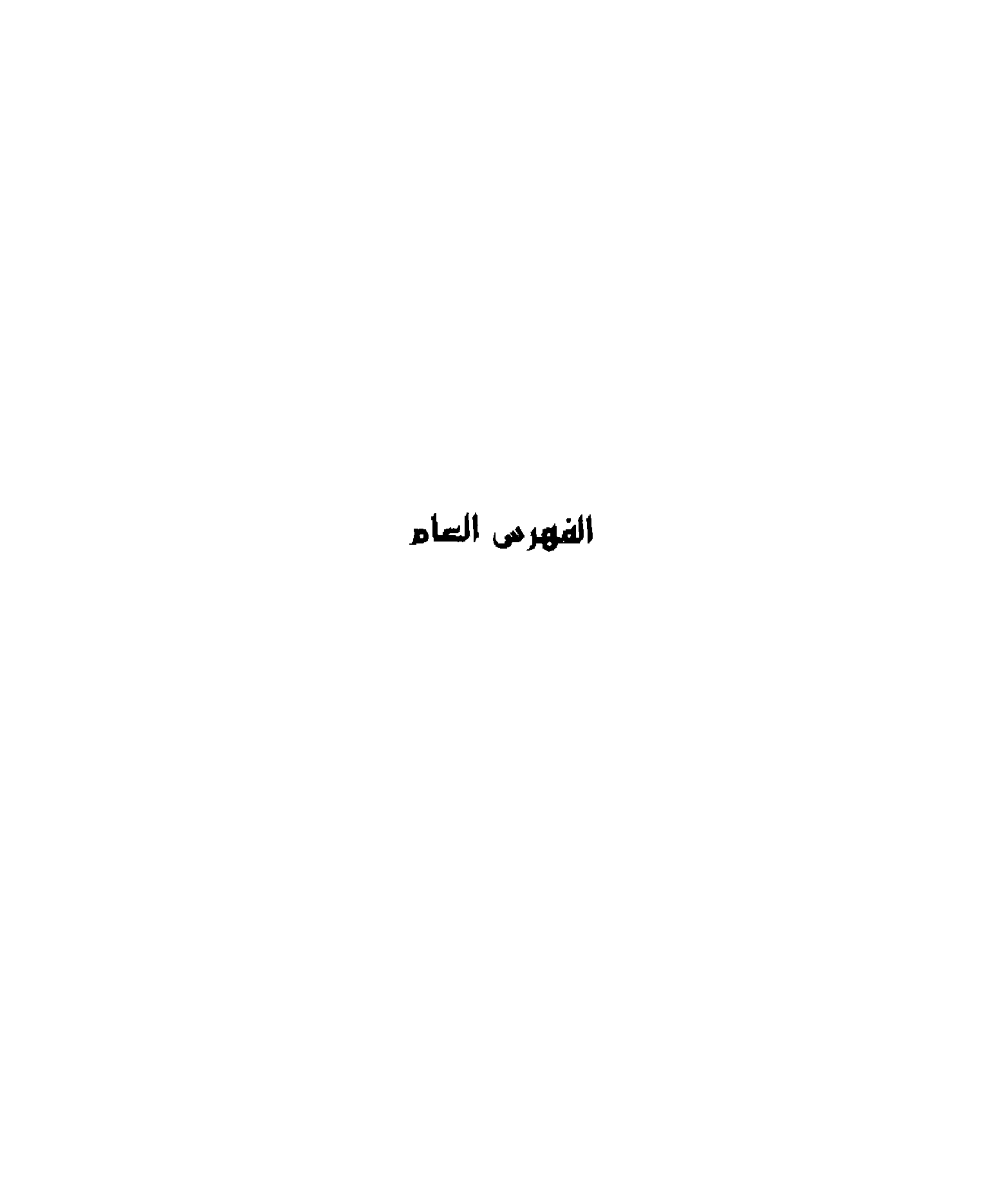
بقيت أتردّد على الأردن في تلك الأثناء والتقي بالأمير الحسن بن طلال، فيستشيرني أحياناً في الأمور التي لي خبرة فيها. وطلب منّي عام ١٩٩٣ أن اقترح عليه ترتيباً لتأسيس معهد في عمّان لدراسة المسيحيّة في العالم العربي. وفي رأيه أن دور العرب المسيحيّين في تاريخ العالم العربي لم يعط بعدُ القدر الذي يستحقّه من الاهتمام. طلب منّي أيضاً أن أقوم بزيارة للفاتيكان لأرى ما

هو موقف الكنيسة الكاثوليكيّة من مثل هذا المشروع. دعيت بعد ذلك لأقضي الفصل الأولّ من العام الدراسي ١٩٩٣-١٩٩٤ في كلّية سميث (Smith College) بالولايات المتّحدة، أدرّس فيها طريقتي في القراءة النقديّة للعبريّة التوراتيّة. وما إن عدت من الولايات المتّحدة إلى بيروت، مروراً بعمّان، حتى طلب منّي الأمير الحسن أن أقوم بتأسيس وإدارة ما تقرّر تسميته «المعهد الملكي للدراسات الدينيّة» (Royal Institute for Inter-Faith Studies)، ومقرّه عمّان.

بقيت أتنقّل بين لبنان والأردن حتى صيف ١٩٩٧ عندما اشتريت بيتاً جديداً في حيّ أم أذينة الشرقي بعمّان، وتقاعدت من الجامعة الأميركيّة في بيروت لأتفرّغ لعملي الجديد في المعهد الملكي للدراسات الدينيّة، ولديّ الدعم الكامل من الأمير للقيام بهذا العمل بالطريقة التي نراها مناسبة. وحظيت منذ البداية بفريق ممتاز من الشباب الأردني يعاونني في هذا العمل: نحلم معاً (كما قال لي الأمير مرّة)، ونخطّط المشاريع معاً، وننفّذها معاً. اقترحت على الأمير أن نتوسّع في عمل المعهد الملكي للدراسات الدينيّة (مع الإبقاء على اسمه) ليشمل جميع المواضيع التي تتعلّق بالتفاعلات بين الحضارات المختلفة في العالم اليوم، فوافقني الرأي. هذا الموضوع لم يكن في أيّ وقت من اختصاصي، فقرّرنا الاستعانة في تنظيم المؤتمرات الأكاديميّة حوله بالخبراء المختصّين حيث نجدهم، سواءً في جامعات أميركا، أو في جامعات أوروبّا، أو في جامعات أوستراليا: نوكل المؤتمر إلى خبير نختاره، فيقترح علينا الطريقة المناسبة لمعالجة الموضوع المعيّن له، وأسماء المختصّين فيه

لندعوهم من جميع أنحاء العالم إلى المشاركة. ونبقى نحن في موقع المنظِّم والمستمع. وبعد ذلك نختار من محاضر المؤتمر ما هو مناسب للنشر.

وهكذا انتهيت من دور المعلّم في الوقت المناسب لأتوقّف عن الكلام وأصبح مستمعاً لأجيال جديدة من العلماء، أتابع ما يقولونه في مواضيع جديدة وأتعلّم منهم، متمثلاً بالطائر الذي حطّ على السنديانة.



الفهرس العام

الفهرس العام

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء